#48

راوي حاج

الصرصار

28.10.2018

رواية

الكاتب
الذي أحدث ثورة بعد
«مصائر الغبار»



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

راوي حاج

الصرصار

رواية

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الصرصار



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN: 978-9953-88-308-3

Originally published as: ***Cockroach.***

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الاخراج الفني: بسمة تقي



شكر خاص للمجلس الكندي للفنون

الذي دعم نشر هذه الرواية بالعربية واستثمر في خلال العام

الفائت ٢٠,١ مليون دولار لدعم الكتابة والنشر في جميع أرجاء كندا.

الناشر

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts which invested last year $20,1 million in writing and publishing throughout Canada.

The Publisher

إلى رمزي، جيني، وندى الذين يجلبون لي الابتسامات، إلى أشقائي،

إلى ليزا، بناء على وعد سابق، إلى مادلين التي تحب الشرق،

وإلى أصدقائي المنفيين: علّهم يعودون.

ليس ما نسمّيه الأنواع سوى انحطاطات مختلفة للصنف نفسه

ــ ايزيدور سانت ــ هيلار،

Vie d'etienne Geoffroy Saint-Hilaire (1847)

ثم إن الستافيزا يجعل تلك المياه تنساب نزولاً إلى عوالم الأرض السبعة، وهو بوصوله إلى هناك يقف، جميلا، ينشر الراحة والفرح على البلدان الخصبة

ــ الأفيستا، كتب الزرادشتية القديمة المقدّسة ــ



أغرق في يمّ حبّ شوهره، لكنني لم أعد أثق بمشاعري. لم يسبق لي أن عشت مع امرأة، أو غازلت واحدة كما يليق. ولطالما تساءلت عن حاجتي إلى إغواء كل أنثى، وامتلاك أي فتاة، من أي نوع، تقترب صوبي.

ما إن أرى امرأة حتى تصبح أسناني أكثر دقّة، وطولاً، وحدّة. يحدودب ظهري، ويُنبت جبيني هوائيين يتمايلان في الهواء، يلوّحان بالحاجة إلى إثارة الانتباه. أريد أن أزحف تحت أقدام النسوة اللواتي ألتقيهن، وأتأمل، من تحت قاماتهن المنتصبة، معجباً برسوغ أقدامهن الدقيقة. إلا أنني أشعر أيضاً بالنفور ـ ليس بالارتباك، بل بالنفور ـ حيال المشاعر القذرة، من مكر ورغبة. إنه لمزيج غريب من المشاعر والغرائز يجتاحني، ويدفعني إلى مقاربة هؤلاء النسوة، أشبه بالأحدب في حضرة تلميذات المدرسة.

ربما حان الوقت لألتقي معالجتي النفسية من جديد، لأن هذا الشعور أخذ يثقل عليّ في الآونة الأخيرة، ولو أن هذه النزعة القوية أخذت تفعل فعلها بي بوجود المعالجة النفسية. فعندما رأيتها أخيراً تتضاحك مع أحد العاملين معها، أدركت أنها هي الأخرى امرأة. وعندما دعتني إلى إعادة عيش نزعاتي،

وضعت يدي على ركبتها وهي تجلس في مواجهتي. بدّلَت الموضوع، وأبعدت يدي بهدوء، وبوجه متعاطف، وجرّت مقعدها إلى الوراء، وقالت: حسناً، فلنتحدث عن انتحارك.

اعترفت لها، في الأسبوع الماضي، بأن من عادتي أن أكون أكثر شجاعة، وأشد خلوّ بال، بل في وسعي إضافة أنني كنت أيضاً أكثر عنفاً. لكن ما من أحد، في هذه الأرض الشمالية، يعطيني حجّة للضرب، والسلب، أو إطلاق النار، بل ليس حتى للصراخ من الشرفة، وشتم أمهات جيراني وتهديد أولادهن.

لم أتردد في قول ذلك للمعالجة، فأبلغتني أنني أحمل الكثير من الغضب الدفين. وعندما غادرت الغرفة لبعض الوقت، فتحتُ حقيبة يدها وسرقتُ أحمر شفتيها، وواصلت بعودتها روايتي عن ترعرعي في مكان آخر، لكنها أخذت تقاطعني بأسئلة، مثل: كيف تشعر حيال ذلك؟ أطلعني على المزيد. وهي في الغالب تستمع وتسجل الملاحظات. وليست الغرفة كذلك بمونّقة، تحتوي على أريكة من الجلد ومن خشب الكرز المصمت (أو من هذا القبيل، بدت أشبه بخريطة كروية تعود إلى أميرال قديم). كلا، فقد جلسنا متقابلَيْن في مكتب صغير، في عيادة عامة، لا تفصل بيننا إلا منضدة دائرية صغيرة.

لا أدري لماذا أخبرتها عن علاقاتي بالنساء. حاولت مرات عدّة أن أُبلغها بأن محاولة انتحاري لم تكن إلا وسيلة للهروب من ديمومة الشمس. وجاهدتُ بصراحة، مستخدماً معرفتي

المحدودة بعلم النفس وقدراتي على النطق، أن أشرح لها أنني حاولت الانتحار كنوع من الفضول، أو ربما كتحدّ للطبيعة، وللكون بنفسه، وللضوء الذي لا ينفكّ يتكرر. شعرت بالإرهاق من ذلك كلّه. فمسألة الوجود استهلكتني.

أزعجتني المعالِجة النفسية بسلوكها المختصر. حرّكت في داخلي شعوراً بالعنف لم أختبره منذ غادرتُ الديار. لم تتمكن من الفهم. كل شيء، بالنسبة إليها، مرتبط بعلاقاتي بالنساء. أما بالنسبة إلي، فكل شيء يتعلق حصرياً بتحدّي القوة الجائرة في العالم التي لا يمكنني المشاركة فيها ولا السيطرة عليها. والسؤال الذي كرهته أكثر ما يكون ـ وهو يظهر عندما يصيبها الإحباط لأنني لا أتكلم بما يكفي ـ، هو عندما انحنت إلى الطاولة، وقالت، بلا أي تعبير: ما الذي تتوقعه من اجتماعنا؟

انفجرت: أنا مُجبَر على المثول هنا بقرار من المحكمة! أفضّل ألا أكون في هذا المكان. لكن عندما شوهدت وأنا أتدلّى من حبل ملفوف حول غصن شجرة، هرع أحد الذين يمارِسون رياضة المشي واستدعى شرطة المتنزَّه. جاء اثنان من رجال الشرطة لإنقاذي على ظهرَي جواديهما الرائعين. كل ما لحظته حينها هو الجوادان. أعتقد ان الجياد قد تشكّل الجواب لمشكلتي التقنية. أعني لو أنني امتطيت أحد هذين الجوادين، لتمكّنت من بلوغ غصن أكثر ارتفاعاً وصلابة، وأحكمت ربط الحبل عليه، وتركت الجواد يعدو حرّاً من تحتي. وها إنه، بدلاً من ذلك، كبّلاني بالأصفاد وساقاني مخفوراً، كما قالا، لتقويم وضعي.

سألتني المعالجة النفسية: أَخبرني عن طفولتك.

ـ كنت في طفولتي حشرة.

- أي نوع من الحشرات؟

- صرصار.

ـ لماذا؟

ـ لأن شقيقتي حولّتني إلى واحد.

ـ ما الذي فعلته شقيقتك؟

ـ قالت لي شقيقتي: تعال لنلعب، ورفعت تنورتها، ووضعت مؤخرة رأسي بين ساقيها، ورفعت كعبيها في الهواء، ومالت بساقيها عليَّ ببطء. قالت: انظر، افتح عينيك، ولمستني. هذا وجهك، وتلك أسنانك، ورجلاي هما شارباك الطويلان، الطويلان. ضحكنا، وزحفنا تحت الشراشف، وعض كل منا وجه الآخر. قالت: لنمنع دخول النور، لنُحكم إلصاق ذلك اللحاف بالسرير، بحيث لا يدخل أي نور. لنلعب تحت الأرض.

- هذا مثير للاهتمام. أعتقد أن في وسعنا سبر غور المزيد من هذه القصص. الأسبوع المقبل؟

- الأسبوع المقبل.

ونهضت على عقبيَّ، ومضيت خارج جدران العيادة، ونزلت الدرج، وغادرت إلى المدينة الباردة والمشرقة.

* * *

بعودتي إلى منزلي، وجدت المجلى وقد امتلأ بالصحون، وبمجموعة هجينة من الأكواب لها ألوان النيون البخسة الثمن، مختلطة مع أطباق ذات طراز من رسوم الأزهار، متكومة تحت قِدْر كبيرة لطبخ المعكرونة، وكلها غير مغسولة. وقبل أن أتمكن من بلوغ خفّي القاتل، حَشَرت الصراصير التي تعيش معي نفسها في البالوعة، وفرّت ناجية بحياتها.

أنا جائع، ولم يبق معي سوى القليل القليل من المال. حان وقت البحث عن الموسيقي الإيراني رضا، الذي يَدين لي بأربعين دولاراً. صمّمت على استعادة مالي، وقد عيل صبري حيال ابن الحرام ذاك، بل إنني فكّرت في تحطيم سنطوره إذا لم يُعد إلي مالي في وقت قريب. إنه يتسكّع في مقهى أرتيستا، الذي يقع على الناصية، ويفتح أبوابه ٢٤ ساعة في اليوم. ويجمع، على مدى أربع وعشرين ساعة، الدخان الذي تضخّه رئات المهاجرين الجدد المتلكئين على الكراسي البلاستيكية، ومرافقهم تحفر في الطاولات المستديرة، وأيديهم تلوّح بشكاواهم، وأصابعهم المصطبغة بالتبغ تستدعي الندلاء، وعيدان ثقابهم، الأشبه بالإشارات الهندية، تشتعل تحت أنوفهم المشعرة، ووجوههم المذهولة تنفث دخان السجائر بحدة الثيران الإسبانية التي تشنّ هجومها الأخير على قطعة القماش المتراقصة الحمراء.

هرعت نزولاً بحثاً عن ابن الحرام في المقهى. يا للروعة! رشقتني سيدتان من شهود يهوه بابتسامتيهما الكاريبيتين، وعرقلتا طيراني بقبعتيهما المريشتين المصنوعتين من القش، وقد ألصقتا ظلاً أشبه بشجرة جوز الهند على الأدراج المرملة للمبنى

المتداعي الذي أقيم فيه. سألتاني: هل أنت مهتم بالعالم؟ وقبل أن يتسنّى لي الرد، صفعتني إحدى المرأتين، تلك التي ترتدي المعطف الطويل ذا الحشوة، بنبوءة رؤيوية: أعالم أنت بطبقة الأوزون المثقوبة فوقنا؟

سألت:

- الأوزون؟

ـ نعم، الأوزون. إنها الطبقة الجوية التي تحميني من أشعة الشمس الحارقة. إن بها ثقباً، وهو يتّسع الآن، ونحن نتحدّث، وسرعان ما سنُشوَى جميعاً. وحدها الصراصير ستنجو لتحكم الأرض. لكن لا تيأس، أيها الشاب، لأنك ستخلّص نفسك اليوم إذا اشتريت هذه المجلة ـ يصدف أن بين يدي بضع نسخ منها ـ وإذا حضرت الاجتماعات حول الكتاب المقدّس في قاعة الملكوت الخاصة بنا. وفي إمكانك بعد ذلك، يا صاحبي الوسيم، النزول إلى الطبقة السفلية والاستماع إلى زعيمنا (وبيدك قطعة من الحلوى وكوب بلاستيكي)، وسيبلغك أن عمليات نقل الدم (سواء أتمَّت من خلال حقنة، أم طبيب صحة، أم الانحراف الجنسي) خطيئة مميتة. عندها، وعندها فقط، تُتاح لك الفرصة.

«تُبْ!»، صاحت المرأة وهي تفتح الكتاب المقدّس عند صفحة معلّمة. «هي كلمات الربّ يا بني: فأنا أيضاً أعامِل بالغضب. لا تشفق عيني ولا أعفو. وإن صرخوا في أذني بصوت عالٍ، لا أسمعهم. اشتر، يا بني، هذه المجلة (وهي تتضمن كلام الرب). اقرأها وتب!»

سألت عن ثمنها وأنا أُحرر جيبي من الثقل الخاطئ الممثَّل ببعض النقود المعدنية الممهورة بالصور الوثنية للبط، والأوز، والدببة، والرؤوس ذات المقام. وهي كل ما أملك.

قالت: أَعطني تلك النقود وصلِّ، فعندها، وعندها فقط، ستسنح لك فرصة أن يتهلل بك يسوع، مخلّصنا. فيمكنك، وأنت ترتفع صوب السماوات، أن تلقي نظرة إلى تحت، إلى جيرانك هؤلاء الذي صَفَقوا أبوابهم في وجوهنا. يمكنك أن تتفرج عليهم وهم يُشوَون ويبدون مثل كتل العجين المسلوقة. وأؤكّد لك أن ربّنا لن يبالي بتضرعاتهم، وبآلامهم، وبصراخات نزاعهم وندمهم وألمهم القوية. نعم، الألم! ولينجِّنا الله من مثل هذا الألم الملوّع.

قبلتُ يدَي سيدتَي شهود يهوه. طلبت إليهما أن ترحماني في يوم اللظى ذاك. فالموت بالنار أمر رهيب. ولو أُعطيتُ الخيار، لأردت بالتأكيد شيئاً أقل ألماً، وأكثر سرعة، بل ربما أكثر شاعرية، مثل الشنق من على شجرة الصفصاف، أو تلقّي رصاصة في الرأس، أو السقوط في غيبوبة أبدية لا إحساس فيها، ترافقها رائحة الغاز المتسرّب من الفرن.

تركتُ السيدتين ونزلت راكضاً إلى مقهى أرتيستا في سانت لورانت، يحدوني الأمل في العثور على رضا في حلقة من الدخان ومتلقّي الإعانات وبخار القهوة. وما كادت قدماي تسيران على الأرض الرطبة، حتى شعرت بقشعريرة البرد، ولعنت حظّي. لعنتُ الطائرة التي حملتني إلى هذه البلاد القاسية. حدّقت إلى

الشارع وسرت بتردد صوب الشرق، متفادياً كل بقعة موحلة، ومحاولاً تجاهل أصوات الاحتكاك الذي تُصدرها إطارات السيارات وهي تشق الثلج، وتُحدث أصداء كانت ترتد إلى أذني كتذكير دائم بندف الثلج التي تتجمع وتتراكم بهدوء، واجتهاد، مستملكة كلَّ زجاج سيارة، وكلَّ قبعة، وكلَّ مستوعب نفايات، وكلَّ رمشة عين، وكلَّ سقف وجبل. وماذا، يا صديقي، عن تلك الجيوش المرهبة من الجزمات الثقيلة التي تغلّف أرجل الناس، والآذان التي صُمّت، وقد سُدّت بالصوف وبشرائط الرأس، والمعاطف الهافية العابرة بأشكالها الأشبه بالأشباح، والوجوه المختبئة والشفاه المزمومة، والأيدي الخشنة؟ لعنة الله على ذلك! ما من هزّة رأس حتى في هذا المكان البارد، ولا حتى تلويحة يد خجولة، ولا ابتسامة من تحت الأنوف الحمراء، المصابة بالزكام، والدائمة السيلان. كل تلك الرؤوس المدفونة فوق أعناق مخنوقة بأوشحة اصطناعية. يثير ذلك اضطرابي، فأسأل نفسي: أين أنا؟ وما الذي أفعله هنا؟ وكيف انتهى بي الأمر عالقاً في جثّة تقفّ من البرد باستمرار، والندف القطنية الرطبة تتساقط عليّ كل الوقت؟ وأنا، فضلاً عن ذلك كله، جائع، فقير، وليس لديَّ أحد، لا أحد... الجليد اللعين، تشتت بسيط للذهن وقد ينتهي بك الأمر وقدمك غارقة في واحدة من تلك البرك الغدّارة الباردة التي تنتظر خطواتك بصبر أشبه بصبر زوجات البحّارة، وبسخرية أشبه بسخرية مسوخ المستنقعات. يمكن أن تعلن ما شئت، فسيبقى عليك أن تتحمّل الأصابع المجلّدة، وخبّة الجوارب المبتلّة، ولزوجة يدي القابلة، وقامات

المعاطف التي تمرّ بك في الشوارع وهي تفتح وتغلق، وترفرف وتنتفخ مثل الأشرعة التي يدفعها الهواء صوب الأرض الموعودة.

أنا هالك!

بدخولي المقهى، سحبتُ نفسي من تحت طبقات من القبعات، والقفازات، والأوشحة، وحررت نفسي من السحابات والأزرار، وتحمّلت ألم فسخ القماش اللاصق (الفيلكرو) الذي فحّ كأحد زواحف ما قبل التاريخ، يلتصق وينفك مثل حياة الناس، مثل المنفيين الذين يسقطون في شقوق تولد وتؤدي إلى الموت تحت الرفوش الحافرة، التي يشبه صوتها تماماً احتكاك إطارات السيارات وهي تفلع الثلج حول أجزائي الفانية.

لمحت البروفسور يوسف جالساً وحده إلى طاولته المعتادة. هذا المثقف الجزائري الفرنسي الزائف الكسول، المدّعي، الذي يرتدي على الدوام بزّات من الغابردين، وربطة العنق ذاتها التي كانت لها أمجادها في السبعينيات. وهو يتخفّى وراء نظارته التي تعود إلى حقبة الستينيات، ويقلّد المفكّرين الفرنسيين بتدخينه الغليون في مواقع خفيفة الإضاءة. يجلس طوال اليوم في ذلك المقهى ويتحدّث عن الثورة والأدب révolution et littérature.

سألت البروفسور إن كان قد شاهد رضا، الموسيقي الإيراني، لكنه لم يجب. واجهني فقط بابتسامته الصلفة.

أعرف الأمر، أعرفه! يريد البروفسور إمطاري بأسئلته الوجودية. فابن الحرام يريد أن يلعب دور سقراط كلما سنحت له فرصة ذلك. ولطالما عامل الباقين منّا كأننا تلامذة أثينيّون

نضطجّع على أدراج أمكنة التجمّع، ولا يجيب أبداً عن سؤال. يتخيّل أنه صحافي بربري اشتراكي زائف، وهو ليس إلا رجل دين كامناً، يجيب دوماً عن السؤال بسؤال آخر.

صرخت بحدّة: «نعم أم لا؟ الأمر ملح»، c'est urgent، وأنا أنوي أن أقطع عليه خطته المتعلّقة بنظرية المعرفة.

«لا لم أشاهد صديقك»، Non! j'ai pas vu ton ami... وتمنطق البروفسور من جديد بابتسامته الازدرائية، ونفخ في غليونه، وغيّر موقع ساقيه. أرخى بجسمه على ظهر الكرسي ونظر إلي نظرة فكرية صرفة كما لو أنني فلاح غير جدير بجداري نظارته الطبية السميكة. إنه لا يثق بي. يشمّني من خلال سحابة غليونه. أعرف أنه يشتبه في أنني سرقت آخر كيس تبغ منه، وهو ما فعلته. لكنه لا يستطيع إثبات ذلك. وفي كل مرّة أقترب منه الآن، يتصرّف كما لو أنه يعيد تموضع نفسه على الكرسي، ليقول أمراً قيّماً وعميقاً، لكن يمكنني رؤيته من خلال دخان غليونه يجمع حاجياته ويقرّبها إلى جسمه، ويتشبّث بكيسه كأنه لاجئ في مركب مكتظ.

استدرت مبتعداً عن البروفسور، وأنا أفكّر في خنق رضا، المتوسّطي الأحدب، بأوتار آلته الموسيقية. هو مَدين لي، وأنا في ضِيق. لطالما تدبّر، بطريقة أو بأخرى، أن يسحب مني المال. فهو إما يواجهني بمناجاة عن بلاد فارس وعظمة تاريخها، وإما يعيد تمثيل دموع والدته التي لن تراه قبل أن تموت، لأنه، كما يدّعي، منفي تعيس. لكنني أعرف أن كل ما

يهتم به رضا هو تخدير شفتيه ووجهه. فهو دائم الشمشمة بصوت مسموع: إذا لم يكن بسبب البرد، فبسبب الحساسية، وإذا لم يكن بسبب الحساسية، فبسبب باعث طبيعي لرش أنفه بالبودرة «الكولومبية البيضاء»، كما يصفها. لكنه لم يعد في مقدوري الآن سوى أن أرتدي من جديد درعي المضادة للبرد، وأعود إلى غرفتي وأنتظر اتصالاً منه.

استلقيتُ في منزلي على السرير، وتناولت دخاني. وبلا أي سبب، أُصبت بالفزع، أو ربما بالاكتئاب. هذا الشعور ليس بالهوس الجنوني، كما كتبت المعالجة في ملاحظاتها الغبية (ملاحظات تمكّنت من سرقتها)... فالأمر ليس إلا حاجتي من جديد إلى الاختباء من الشمس وعدم رؤية أيّ يكن. إنها الحاجة التي شعرت بها لتعرية العالم من كل شيء حولي، وأن أوجد تحت ذلك كله بلا أدوات، أو أناس، أو ضوء، أو صوت. إنها حاجتي إلى بسط غطاء أبدي يغطّي كل شيء، يُحكم سد السماء ونافذتي، ويحوّل العالم إلى لعبة حشرات.

* * *

بعد ذلك بساعات، أي في أوّل المساء، قرّرت أن أزور رضا في منزله. سرت إليه في البرد. قرعت الجرس، وانتظرت. فتحت ماتيلد الباب، وهي نادلة فرنسية جميلة ورفيقة سكن رضا. لكن ما إن وقع نظرها عليّ حتى حاولت ضفق الباب في وجهي.

وضعتُ رجلي عند زاوية إطار الباب وهمست برقّة: أنا قلق على رضا.

Alors, appelle la police; quoi, bof. Ah moi, alors, je ne veux pas me mêler de cette affaire (اتصل بالشرطة إذاً... فأنا لا أريد التدخل في هذه المسألة. وهو لم يدفع حصته من الإيجار هذا الشهر). J'en ai marre là de vous deux (لقد اكتفيت منكما أنتما الاثنين).

قلت: أوتسمحين لي بالدخول؟

ـ قلت لك إنه ليس هنا.

ـ أريد فقط أن ألقي نظرة على غرفته.

ـ Mais non là, tu exagères (لا، فأنت هنا تبالغ).

قلت مترجّياً: من فضلك.

وأظهرتُ لماتيلد ما في وسع عيني الذابلتين الخجولتين أن تفعلا.

- تستطيع المضيّ إلى غرفته فقط لا إلى المطبخ، ولا لكي تسرق أوراق الحمام، مفهوم؟ عندما عملت معي في المطعم هناك، أجمعوا على أنك أنت من يسرق أوراق الحمام، ورمقني الجميع بنظرات مستهجنة لأنني أنا التي أوصت بك للوظيفة.

تطلّعتُ إلى مؤخّرة ماتيلد المكتنزة تتراقص في اتجاه المطبخ. قبعتُ في نفسي وجمّعت عنقي بين كتفي. شعرت كأن

أسناني تصبح مسنّنة، وأنا أحدّق في إستها الفرنسي الرائع، المهيب، الملوكي. تفحّصته، وعاينته، وخمّنته، وتمتّعت به حتى آخر تمايل من تمايلاته. فهي لا تزال في قميص نومها الذي يصل إلى ما فوق فخذيها. . . وكانت حافية!

تنهّدتُ. حكّكتُ ساقَيَّ إحداهما بالأخرى وأنا لا أزال متكوّراً. ثم استدرت بيأس المهجّر، ومن لا وطن له، والبائس، والعالق في أروقة البيروقراطية ودائرة الهجرة، وهربت إلى رضا.

غرفته تعبق برائحة الجوارب القديمة وفرقة من العبيد المدخّنين. تكاد تخلو من أي ضوء. وبرغم ذلك أمكنني التعرّف إلى التلفاز الأبيض والأسود الذي ورثه عن صديقه هشام، وهو مبرمج كومبيوتر فارسي انتقل إلى الولايات المتحدة، لأنه، على حد قوله، يوجد المزيد من المال هناك، ولا مستقبل في كندا، بل الكثير من الضرائب. على الأقل هذه هي الطريقة التي أبلغني فيها التكنوقراطي المغفَّل الوصولي الأمر في الليلة التي تم تعريفي فيها إليه في إحدى الحفلات الإيرانية. امتلأت الحفلة بالمنفيين الإيرانيين: فنانين هاربين، شعراء مهجّرين، يساريين ممن يلفون سجائر الحشيشة، وثوريين سابقين تحوّلوا إلى سائقي أجرة. كانت تلك الليلة أيضاً التي التقيت فيها شوهره. آه، الجميلة شوهره! جعلتني أصاب بالجنون، سبّبت لي ضربة تحوّل فوري جعلتني أشرع في قضم الصحون الكرتونية، ولحس الأدوات البلاستيكية، والضياع داخل أكياس رقائق البطاطس (أكياس تخشف بصوت أشبه بتكسّر الجليد أو انقصاف

الأغصان). كانت ترقص مع إيراني هزيل مثليّ الجنس يرتدي الأسود، اسمه فرهود. رقص وهو يحتكّ بجسدها المكتنز. وقد ارتدت، مثله، ثوباً أسود اللون، وصدرها يتراقص على أنغام الصراخ المتصاعد من جهاز الستيريو البخس الذي يخص أحد المهاجرين. وما إن توقفت الموسيقا لبرهة، حتى انسحبتُ وراءها في الممشى المكتظ وتبعتها إلى المطبخ. شققت طريقي عبر الصحون والشوك والطعام الذي يؤكل بالأصابع، وبادرت أخيراً، وهي تغمس شريحة من الخيار في صلصة سمك الوحلة. قلت لها: أريد أن أسرقك من خليلك الراقص.

ضحكت شوهره وهتفت: خليلي؟ خليلي! ورفعت صوتها ضاحكة ونادت الرجل الذي يرتدي الأسود: فرهود! يعتقد الفتى أنك خليلي.

أفرد فرهود ابتسامة، وسار في اتجاهنا. وهمس بلطف وهو يمايل خصره: أنا أبحث في الواقع عن خليل. اتخذ الشراب في يده شكل مصاصة الحلوى وتوهجها. ضحكت شوهره، ونفضت شعرها وابتعدت.

طوال الليل وأنا ألاحق شوهره؛ أراوغها كالذئب. وعندما دخلت المرحاض، ألصقت أذني على بابه آملاً في الاستماع إلى تدفُّق بولها الذي يتضمن ١١ في المئة من الكحول يندفع في سقوط حرّ من بين فخذيها المتكتّمين الطريين. آه، كم تنهّدت على صوت تدفُّق السائل في بركة مياه المدينة الصافية كالخزف

الصيني. آه، كم أخذتني الروعة، وتخيّلت ذلك الدفق الثمين كله، الذي سينساب عبر الأنفاق الدافئة والبخارية تحت هذه المدينة الجليدية. إنه السيل السخي لمخلوقات مثل شوهره، يُبقي الأرض من تحتنا دافئة. تخيّلت جمال الخط الذي يشق طريقه عبر الظلمات تحت الأرض، ذهبياً ومتميّزاً، أُنزل واحتُضن، كاشفاً عن كلّ ما استدعاه ذلك الجسد مرّة، وأبقاه، وحوّله، وأطلقه، أشبه بطائرة ورقية مع خيط لولد، أشبه بحبل صرّة طفل. آه! رأيت في ذلك اليوم الخلاص، والبعث، وخيوط الاحتفال الذهبية في كل مكان.

طلبت من شوهره رقمها. فقالت «لن أعطيك إياه، لكنني لن أمانع إذا بذلت الجهد وحصلت عليه بنفسك. الأمر أكثر رومانسية على هذا النحو، ألا تعتقد ذلك؟». نظرت إلي وهي ترقص، تبسّمت أحياناً، وتجاهلتني أحياناً أخرى. أمكنني القول كم أنها اغتبطت بمظهري اليائس. عرفت تمام المعرفة أنني مستعد أن أزحف مثل حشرة تحت قدميها، وأرقص مثل الدب المقيّد في سوق الشارع، وأصفق مثل فقمة على مقعد، وأهز برأسي مثل كلب بلاستيكي صغير على لوحة قيادة سائق تاكسي مهاجر. رغبت أشد الرغبة في أن أكون من يفتلها على حلبة الرقص. أردت أن أكون من يغطّ بها ويعبّ أريج نهديها المتدفقين من فوق صدريتها المخرّمة السوداء.

على مدى أيام تلت الحفلة، رجوتُ ذلك الأحمق رضا أن يعطيني رقم شوهره. رفض. واكتفى هذا المنفي الأناني المريب

بالقول، مستخدماً لكنته السخيفة: إنك لست جدّياً في شأنها. تريد أن تضاجعها فحسب. إنها ليست من ذلك النوع من الفتيات، فهي إيرانية. إنها مثل أخت لي، وعليّ أن أحميها من عرب قذرين مثلك.

قلت: لكن يا رضا، يا مايسترو، الشقيقات يضاجعن كذلك، فللشقيقات حاجات أيضاً.

أثار هذا استياءه، وجدّف: والله العظيم. سأمنعك من لقائها مجدّداً!

إلا أنني التقيت شوهره من جديد. حصلت على رقمها من فرهود، الراقص. شاهدته في أحد الأيام يسير في الشارع، «يتراقص» بسعادة... يخبّ مثل بامبي. كنت في ذلك اليوم ألفّ وشاحاً كبيراً حول وجهي، وعبرت الشارع طيراناً، ووقفت أمامه ويداي على ردفيّ مثل الرجل الوطواط. عرفني فرهود فوراً، برغم قناعي وغيره. أنزل وشاحي وقبّلني على وجنتي وضحك مثل روبن (رفيق الرجل الوطواط ـ المترجم). قلت له على الفور إنني مغرم بشوهره وأريد رقمها.

قال: «علي أن أسألها أولاً»، وتحرّكت يداه بالتزامن مع أهدابه المرفرفة. وأضاف: لكنها ليست من النوع الذي يسقط في الحب.

قلت له واعداً: «أعطني رقمها، وسأحبك إلى الأبد»، ووضعت ذراعي حول كتفه وطبعت قبلة على جبينه.

ضحك. وصاح: «أنت سيّئ للغاية!»، وسحب من حقيبة يده قلماً له رأس دبدوب صغير، وكتب رقمه ورقمها.

* * *

ها أنا الآن أفتش غرفة رضا بحثاً عن مال، طعام، حشيشة، كوكايين... أي شيء يمكنني أن أحصل عليه من ابن الحرام هذا. فتحت أدراجه، شممت تحت سريره، مددت يدي تحت خزانته، ونكشت بأصابعي بحثاً عن الأكياس البلاستيكية الصغيرة التي يربطها في العادة هناك مقلوبة. كنت لأرضى ببطاقة لصعود الباص... أي شيء لاستعادة ما يدين لي به. لكنني لم أجد شيئاً. فعازف المطعم الفقير يطيّر كل شيء عبر أنفه.

صرخت لماتيلد، لكنها لم تُجبني. مضيت إلى غرفتها. كانت متمدّدة شبه عارية في السرير تقرأ أحد كتب الجَيْب والدخان يتصاعد من خلف صفحاته. شعرت بتنفّسي القوي وبعينيي تنزلقان فوق فخذيها الناعمي الحلاقة. وسمعتها تهمس، من وراء مشهد من مشاهد الكتاب: اعتقدت أننا اتفقنا على أنك لن تدخل هنا.

ـ هل تتصلين بي إذا سمعتِ خبراً من رضا؟

نفخت ماتيلد ولم تجب.

ـ الأمر مهم.

ـ D'accord (حسناً). سأتصل بك. ارحل الآن. أرجوووك.

سرتُ إلى باب الشقة، فتحته وأغلقته بقوة، ثم عدت متسلّلاً إلى المطبخ وفتحت البراد بهدوء. تناولت ما أمكن ـ طعاماً

وحلوى ـ ثم غادرت نهائياً وأنا أشق طريقي إلى المنزل عبر الثلوج المتراكمة.

في مطبخي، شمّت الصراصير رائحة المسلوب في يدي، وأخذ لعابها يسيل كجراء الكلاب الصغيرة. انتقلتُ إلى غرفة النوم، بعيداً عن أعينها الحاسدة. جلست على سريري، وأعددت لنفسي شطيرة. فكّرتُ في أن عليّ الحصول على بعض المال قبل نهاية الشهر، وقبل أن أموت جوعاً في هذه الشقة القذرة، في هذا العالم البارد، وفي هذه المدينة التي تعاني بسبب الثلوج المزمنة. صفَرَت النوافذ وتسلل الهواء الجليدي من بين الشقوق. وإذا سألتني، فإنه لمكان قذر متهادم هذا الذي أعيش فيه. لكن ما الفرق؟ لم يتغيّر الكثير في حياتي منذ زمن ولادتي. وأنا على الأقل أعيش اليوم وحدي، وليس في غرفة مكتظة مع شقيقة، ووالد يشخر، ووالدة مصابة بالوسواس العصبي تقفز ليلاً لتسألك إن كنتَ جائعاً، عَطِشاً، أو تحتاج إلى دخول المرحاض (أو إذا كنت غافياً، كما هي الحال). لم أَعد أقيم في الغرفة نفسها مع شقيقة مراهقة تكاد تبلغ السن القانونية، تحلم بعرب يحملون السلاح، وتغطس يدها اليسرى تحت اللحاف، تتطلع خيالياً في الفراغ، وتدير سبابتها كما لو أنها اللفة الدوّارة لمسطاع سينمائي يعرض الأحلام الجنسية على جدران غرفة النوم. وها إن الهتافات تنطلق، مثل هتافات الرجال في سينما لوسي القديمة، حيث تظهر الأفلام البذيئة السرّية سريعاً بين مقاطع من الحرب العالمية الثانية، والمسلسلات الإيطالية، ورعاة البقر والهنود يقفزون على ظهور أحصنة جامحة.

سينما لوسي، بمقاعدها الملطّخة التي تتوهج وتخبو بالمني، وبرجالها المضطربين المنتشرين على الأرض مع مناديلهم التي يمسكون بها بأيديهم، كما لو أنهم ينتظرون النساء اللواتي يواعدونهن ليلة الجمعة. هؤلاء الرجال، أشبه برجال حرب العصابات في الليل، ينتظرون بفارغ الصبر ظهور المشاهد الإباحية في ما بين العوالم النابية للأفلام الأساسية، وحلقات الحيوانات اللبونة القافزة وسقوط المهرّجين، وأفلام أعالي البحار وغروب الشمس التي خَبَتْ وأظلمت لتظهر الجيوش الأوروبية الغازية تطأ بجزماتها العالية التلال المحروقة والساحات المرصوفة بالحجارة، وقد تجمّدت على منظر بضعة جنرالات يؤدون التحية وزوجاتهم بأرساغ أقدامهن الممتلئة.

نجلس داخل لوسي وننتظر ظهور الأجساد على الشاشة. كنّا أشبه بالملائكة. وكان الرجال الأكبر سنّاً، عندما يحسّون أن وقتاً طويلاً قد مرّ أو أُهدر في عرض الذكريات القديمة، والحروب، والنجوم المتقدمين في السن، يأخذون بالصياح وبضرب أسفل الكراسي القديمة بأيديهم: قطشة (أي مشهد جنسي) أبو خليل! قطشة أبو خليل! وتحت تأثير ضغط الأيدي المطبّلة، تنتفخ الشاشة بصورة صدر، وتحجب مؤخرة رأس ما فخذاً مثيرة، فيقف بعض الرجال، يهتفون، ويصفرون إلى أن يؤدّي التورم في سراويلهم إلى تمزيع سحاباتهم التي تفتح، فتجنح أكتافهم إلى الأمام مثل خيالات صيادي السمك في مواجهة آفاق ملتوية، يجرفون الأسماك على ضوء الشمس الآخذة في الغياب، ويعصفون مناديلهم فتصدر أصوات الرصاصات المنطلقة، جارحة

كبرياءهم، لتتكشّف في النهاية عن صور عشاق قدامى وزوجاتهم غير المكتفيات.

فكّرت في أن سيجارة حشيشة ربما أدخلت الدفء إلى عظامي، أو خدَّرت دماغي على الأقل بما يكفي حتى لا أشعر ببؤسي وبالبرد. انسللتُ داخل خزانتي حتى بلغت الثقب الخفي المحاذي للرف العلوي. فأنا أرتّب خزانتي بدقّة: المناشف والشراشف على الرف السفلي، والأمور التي لا تُمَس، مثل الأفيون والأفلام، في العلوي. سحبت علبة الأفلام البلاستيكية والأوراق البيضاء الرقيقة التي تتناسب معها. لم تبقَ إلا كمية قليلة من الحشيشة: كرة صغيرة، كافية للفة رقيقة ترفعني صعوداً كالحبل، وتؤرجحني نزولاً في هبوط هادئ. قطعتها وحاولت أن ألفها، لكن أصابعي كانت باردة وترتجف كالعادة. ثم إنني لا أملك التبغ لأمزجه مع المادة. فعزّيت نفسي بأن السجائر مضرّة بالصحة.

استلقيت على السرير وتركت الدخان يدخلني غير مخفّف. تركته يفرّخ لي أجنحة وأرجلاً عدة. وسرعان ما وقفت حافي القدمين أفتش عن أخفافي الستة. نظرت في المرآة وبحثت من جديد عن أخفافي. في المرآة، رأيت وجهي، فكّي الطويل، وشاربي يتقطّعان عبر الدخان من حولي. رأيت الكثير من الأقدام الحافية تتحرك. هرعت لإغلاق النافذة وإسدال الستائر. وعدت من ثمّ إلى السرير، ودفنت وجهي في الشراشف، وسحبت الوسادة والأغطية فوق رأسي. أغمضت عيني وفكّرت في ورطتي.

لا تزال تفصلني عشرة أيام عن وصول حوالة المساعدة الخاصة بي. لم يعد عندي مخدّر. ولم يبقَ في مطبخي إلا الأرزّ والفضلات والحشرات الزاحفة التي ستبقى من بعدي عندما يأتي يوم الدين. وأنا محظوظ لامتلاكي كيس أرز البسمتي هذا، وبعض الفضلات النباتية من حفلة ماري البوذية.

أقول، حيثما توجد الموسيقا يوجد الطعام! فمنذ بضع ليالٍ، عند حوالى السابعة، سمعت أقداماً حافية تطأ فوق سقفي أرض الطابق الذي يعلو طابقي. أصابع صغيرة تدبّ في ظل جلبة الضيوف والبداية الواهية لجلسة صاخبة بدت متوعّدة وواعدة معاً. أخذت الطبول تناديني.

شققت الباب ورأيتُ أقداماً تصعد إلى مكان جارتي. وفكّرت: ماري؟ نعم هذا اسمها. أذكر أننا التقينا مرّة تحت في الطابق السفلي. اشتكت من عدم وجود مستوعبات لإعادة التدوير، أم أن الأمر يتعلّق بسماد النفايات؟ وهي، على أي حال، أرادت أن تملأ الأرض بغبار من الفضلات النباتية، ولديها نوع من النظرية الغريبة عن التقمّص. وبالنظر إلى ضيوفها، عرفت نوع الحفلة المقامة: نظرة واحدة إلى الضفائر، والطبول، وكتل الشعر بحسب ديانة الراستا (ديانة أفرو ـ كاريبية تحرّم قص الشعر ـ المترجم) المحتضرة على رؤوس مبيضة، الآذان المثقوبة والأنوف التي تجعل مالكي الثيران فخورين جداً. والمسألة هي ماذا أرتدي. أشراشف سرير ألفها حول وسطي ولا شيء غيرها؟ أم ثياب نومي؟ نعم، نعم! فكل واحد في نصف

الكرة الجنوبي يجلب الجريدة عند انبثاق الفجر بثياب نومه التي ترفل من فوق الأخفاف المسطَّحة والأقدام المتهالكة، والجميع يشربون القهوة على الأرصفة المغبرة ووجوههم الصباحية المجعّدة تحدّق خارجاً من بين حواجز السيارات التي توقّفت عن السير. إلا أنني قرّرت عدم المبالغة في ما أُقدم عليه. يجب هنا تعديل الغرابة. ليست أصلية جداً، ولا كثيرة التوابل أو الرائحة، بل ما يكفي منها لتذكير الآخرين بأوهام مكان آخر. بقيت في النهاية مرتدياً الجينز، وخلعت حذائي وتركت جوربيّ في الغرفة لمزيد من التهوئة، وتسلقت الجدران حافي القدمين.

بدت ماري مُرحّبة. هفّت صوبي بابتسامة مسالمة. لم أكن متأكداً هل هذا من تأثير البخور الدائم الاشتعال في الغرفة، أم الأدخنة المهلوسة التي كنت أضخها بنفسي، عبر السنين، في جدرانها.

تدّبرت أمري بالطعام في الحفلة، بينما تربّع الباقون على الأرض يأكلون. أمكنني سماع مضغهم، أشبه بالتعويذة، وهم يطفون على وسائد هندية، والطنين داخل حلوقهم يتزامن مع صوت براد ماري القديم وتواتر دورات العالم.

أحتقر الطريقة التي يمسك بها هؤلاء النباتيون الشاحبو الوجوه بملاعقهم الصغيرة، مذلّين أنفسهم. من يعتقد أن هؤلاء البراهمانيون المبيّضون شُعُورَهم يخدعون؟ نعلم جميعنا أن جلوسهم على مقربة من الأرض، ليس إلا ممراً آخر في حياتهم القصيرة. فسوف يحصلون في النهاية على ملاعق أكبر،

ويحفرون الأرض من أجل ميراث آبائهم وأمهاتهم. إلا أنني أنا! أنا وأمثالي من سنأكل فضلات الطبيعة تحت الأشجار المائتة. أنا! أنا وأمثالي الذين سننتظر أن تهزّ الريح الأغصان لتُسقط لنا الفاكهة. قذارة، ريائيون، ممثلون على مسرح إغريقي! سيسقط هؤلاء البوذيون في نهاية الأمر، ويخلعون أزياءهم الملونة الغريبة ويرتدون بزّات آبائهم المؤلفة من ثلاث قطع. لكن سيكون بإمكاني التعرّف إليهم من خلال خصلات شُعورهم الآخذة في الشيب. سأحسدهم عندما يتربعون كالملوك على الكراسي، وقد لمّعوا، بلا حياء، أحذيتهم السوداء، وقد ارتفعوا عالياً من فوق رجال مطأطئين، ذوي أظافر سوداء، يريّشون ويلوحون بفراش من شعر الحصان فوق أرساغهم المشتركة. ومن على مقعد ماسح الأحذية، سيفلش البراهمانيون صحفهم، يقفون ويصلحون ربطات عنقهم، ويغرفون في جيوبهم بحثاً عن فكّة. يرمون بعض النقود في الهواء للرجال العاملين من تحتهم. وسيدخلون المصاعد الطالعة، يقومون بمصافحات قوية، تُربَّت أكتافهم، ويسوّون شعورهم في الزجاج الملوّن لناطحات السحاب. سوف تلمع أحذيتهم الوضّاءة كالمرايا، ويتردد وقع خطواتهم الخفيفة في أروقة الشركات على همسات «أراك في حفلة الشواء، بلّغ زوجتك الرائعة تحياتي». لا، لم يرتّل أي من هؤلاء المرائين للنجاة من التقمّص. أرادوا جميعهم العودة إلى المطابخ المعبَّأة ذاتها، وإلى المنازل الكبيرة ذاتها، والأسرّة المرتفعة عينها، والأغطية ذاتها التي سيختبئون تحتها المرّة تلو المرّة.

نفد من عندي ورق الحمّام، لا يهم؛ فأنا أغتسل دوماً بعد التغوّط. لكن يجب أن أعترف بأنني إبان انقطاع المياه زمن الحرب في المكان الذي جئت منه، قضيت فترات لم أغتسل فيها ولمدة طويلة. بالكاد أمكن المرء أن ينظِّف أسنانه. آه، كيف أنني أعطيت مرّة الأولوية لذلك الذي كان أكثر بداية للنظر. كنت أغسل وجهي، وأحرم كل شيء آخر من كمية الماء القليلة المتوفرة لي. أوحت لي كل نقطة ماء جرت عبر المصرف، بأن أتبعها، وأجمعها، وأستخدمها من جديد. لطالما سحرتني مصارف المياه وأنا طفل. لست متأكداً مما إذا كانت الرائحة، أم الضجيج والأصداء التي تخرج على نحو غير متوقع بعد ازدراد المياه، أم أنها ببساطة القدرة على الهروب إلى مكان تجتمع فيه أوساخ الوجوه الملطّخة، والأيدي القذرة، والأرجل المتسخة، والعلك الأرجوانية الداكنة المتكوّمة في بركة كبيرة مخصصة لأولاد الأزقة ليسبحوا فيها، ويتراشقوا بالماء، ويلعبوا.

نهضت واتجهت إلى النافذة وفتحت الستائر. تألّقت الجمرة المحترقة في رأس صاروخ الحشيشة، برّاقة وفضّية، على خلفية ماونت رويال. يوجد صليب معدني كبير على رأس الجبل. أمسكت به عموديّاً، وبسطت يدي عبر النافذة، وراصفت نار رأسه المشتعلة مع وسط الصليب. راقبت أعمدة دخانه تتصاعد كالشعر المشتعل. ذكّرني الدخان بأن الوقت قد حان للهروب من هذا البياض المستديم، والدنين الأبدي لضوء الفلوريسانت في البهو، وتكة ساعة المطبخ، وتنفسي الدائم... نعم تنفُّسي أنا

الذي غبّش الزجاج وطمس العالم الخارجي برداء من التنهدات والحزن، بينما رطّب بخار دموعي النافذة. تنفّسي أنا يحجب نظرتي إلى العالم!

ذكّرت نفسي بأن في وسعي الهروب من أي شيء. فأنا سيّد في الهرب (على عكس أولئك البوذيين العالقين والمعاودين). وأنا طفل، كنت أهرب عندما تبكي أمي، وعندما يحلّ والدي حزامه، وعندما يرفع أستاذي مسطرته عالياً فوق راحة يدي الصغيرة. كنت أختفي عندما تشتعل الضربة الساقطة على يدي أشبه بالرعد عبر مشهد خطوط الحياة: سفرات طويلة، وراحات أيدي المسافرين. راقبت مسطرة المعلم كما لو أنني لست من يتلقى تلك الجلدات على أصابع ممتدة مثل منتصف نهار أحمر فوق شواطئ تضيئها شموس كثيرة. كنت أناوب بين أياديّ الصرصارية الست لأوزع آلام تلك الضربات. وعندما تحترق راحاتي وتؤلمني، أحرّك أجنحتي الصرصارية وأدع الهواء يبرّد أياديَّ المتورمة وأنا واقف في الزاوية ووجهي وبطني الغض إلى الجدار.

إلّا أنني هربت أكثر ما يكون عندما أخذت أسرق الحلوى، والأقلام، والعلكة، ولاحقاً آلات التصوير والسيارات. شعرت غريزياً، بما أنا عليه من بدائية وعدم ثقافة، بأنني عالق في العالم القاسي والمجنون المشبع بالآدميين. كرهت البالغين الذين يحومون دوماً من فوقي وينظرون إلي من فوق. فمن المؤكّد أنهم يحكمون الأعالي: يمكنهم بلوغ الثريا، وأعلى البرّاد،؛ ويمكنهم

أن يعكّشوا شعري كلما حلا لهم ذلك. إلا أنني سيد السفلي. وقد دببت تحت الأسرّة، وخيّمت تحت الطاولات؛ بل إنني كنت ذلك النوع من الأولاد الذي يزحف تحت السيارة لجلب الكرة، وإنقاذ القطة العالقة، والعثور على النقود تحت البراد.

قابلت، وأنا في سن المراهقة، مرشدي أبا رورو، سارق الحيّ. أدرَكَ أنني أتمتع بالقدرة على التسلل عبر أي شيء. وكان، ليساعدني على بلوغ الأماكن المرتفعة، يشبك أصابعه فأدعس على راحتيه المتلاحمتين المفتوحتين، فيرفعني إلى نوافذ صغيرة، وحدها الحشرات الدقيقة تستطيع ولوجها. وما إن أصبح داخل منزل، أو كنيسة، أو مدرسة، حتى أتوجه مباشرة صوب الأشياء القيّمة. سرقت منها كلها. سمِّ واحدة أكن قد سرقتها. زحفت عبر النوافذ والثقوب، وحوّشت مجموعات فضية، وصلباناً، ونقوداً، وساعات. بل أخذت وقتي في قضم بقايا الطعام والفتات على منضدات المطبخ.

السفلي، يا صديقي، عالم قائم بذاته. الأناس الآخرون يتفرّسون بالسماء، لكنني أقول لك إن الطريق الوحيدة لعبور العالم هي في المرور عبر السفلي.

* * *

اتصلت برضا، طوال الأيام القليلة التالية، لكن بلا جدوى. طرقت كل باب في كل مكان اعتقدت أنه موجود فيه، بإيقاعات لا يستطيع هو نفسه نسخها ـ بعض «الدمدم تك» هنا وهناك. بل إنني جرّبت مرّة صوت لبووانغ! والبودوم! ـ إلا

أنني لم أتمكن من العثور عليه. أربعون دولاراً هي ما يدين لي به. تخيّل فقط الصابون الذي يمكنني أن أشتريه، والأرز، وأمتار أوراق الحمام التي يمكنني صفّها، واستخدامها لمسح المنضدة، وتعليم حدود الأقاليم وتقسيم البلدان، وتطييرها كالطائرة الورقية، ومسح الدموع، وسد الأنابيب السفلية، وجعل كل ما هو تحت الأرض يرتفع إلى سطحها. سأتشارك فيها، وأقطعها، وأقسمها بين فقراء الأمة بالعدالة والإنصاف. سمّ أي شيء وأنا أقدم عليه!

رضا، ذلك الكاذب الساحر، وأستاذ الدجل، تمكن، لسنوات، من التجوال على الأرائك في منازل النساء ساحراً مضيفاته بألحانه الغريبة، وبقصصه عن الألم والمنفى. وأفضل رواياته، والأحب إلى قلبه، هي كيف أنه كاد يفقد أصابعه كلها وهو يعزف لآية الله الخميني. يخبر هذه القصة عادة في الحانات بعد عزف ثنائي مع عازف إنكليزي على الغيتار الكهربائي، أو مع راستا كوكازي على الطبلة. يخبر النسوة المتجمعات حوله إلى الطاولة، كم أنه كان خائفاً ومضطرباً عندما طلب إليه حزب الله الإيراني ألا يعزف أمراً يسيء إلى الإمام المقدَّس، أي عدم عزف ألحان سريعة أو غير دينية. وعندما تم أخيراً الدفع به وراء الباب حيث يجلس المرشد الأعلى للثورة الإيرانية، بلغ به الاضطراب حداً نسي معه أن يقبّل يد الولي، بل نسي أن ينحني ويتمتم «السلام عليكم»، الأمر الذي أغضب الحرّاس. ويخبر كيف أنه جلس على الأرض يدوزن آلته والعَرَق يتصبَّب على عموده الفقري، لكن ما إن شرع في العزف حتى انتقل (أميناً

لفنه، وللفنان الذي هو!). نسي نفسه وعزف بأسرع وأسرع. تعوَّد رضا عند هذا الحد أن يتوقف برهة لسبر ردود فعل النساء وإبقائهن في حالة من التشويق إلى أن تسأل إحداهن: وماذ جرى عندها؟ (المرأة التي تطرح السؤال هي في العادة التي ستدعو رضا إلى أن يبيت الليل عندها).

يكمل رضا قصّته، راوياً للنسوة كيف أنه شرع في العزف السريع وغير الديني، وأخذ يهزّ رأسه يميناً ويساراً، لأنه يفقد سيطرته على الأمر عندما يشرع في العزف، إلى أن هجم عليه أحد الحراس وكسر آلته برفسة واحدة من قدمه، ورفع إصبعه إلى الأعلى وطوحه إلى الوراء، محاولاً كسره، متوّعداً بأن هذه أول عظمة من عظامه التي ستتكسّر. ولولا آية الله الخميني نفسه، الذي أشار بإيماءة خفيفة من يده وحرّر رضا من قبضة البهيمي، لكانت كل أصابع الموسيقي قد تكسّرت الآن. وعندها يُنهي موسيقي الحب قصته بسؤال: وهل حقاً تعرفن ما هي عواقب كسر أصابع موسيقي مثلي؟ ستهزّ الرؤوس السهلة الانخداع موافقة، وستتفتح الأعين المواسية، وستُفرَش الشراشف على الأرائك والأسرّة، وستتجشّأ الثلاجات بقايا الطعام. وإذا أصاب الحظ المدّعي، فسيؤدي ذلك إلى أفخاذ الدجاج أو الأجنحة المرطّبة ببعض البيرة أو النبيذ، والاستحمام بالماء الساخن تطيّبه فطائر البيتزا التي يتم تسليمها في غرفة النوم، والتهامها أمام فيلم رخيص على التلفاز.

أخذنا مرة، أنا ورضا، في الجدال، وانتقل الموضوع إلى

حياة كل منا، وطريقة كل منا، المنحطة في البقاء. واجهته بمكائده وكذبه. أحنى بوجهه المطاول صوبي، وقال: يا أخي، اعتبرني صوفياً تائهاً، أنشر الحب والموسيقا، وأقبل في المقابل الضيافة، والسلام، والحب. الحب يا صديقي. . . الأمر متعلّق دوماً بالحب. تراقص حاجباه، وهو يقول ذلك، وتمايل برأسه الموسيقي، وغمّ عينيه، وابتسم. وتابع: إنني أقدِّم شيئاً في المقابل، في حين أنك لست سوى لص حقير يفتقر إلى الموهبة. كل ما يمكنك القيام به هو جعل نور الثلاجة يضيء وينطفئ، وأنت عندما تغلق الباب، لا تتأكد أبداً هل الضوء في الداخل قد تحول إلى ظلمة شبيهة بروحك المعتمة.

لعنته في وجهه، وقلت له إنه سيأتي يوم ستطفو فيه قوتي كلها من تحت. سأجلب معي من الهوة أصداء صرخات القواضم والحشرات لتمزيق طبلتي أذنيك! ولن تحتاج عندها إلى قطع الأشجار لحفر صناديق الموسيقا، ولن يتم شدّ الأوتار، ودوزنتها أو النقر عليها، وستأتي الألحان كلّها من لب الكائنات التي آلاتها منها وفيها: أقدام الحشرات تعزف ألحاناً جيدة مثل ألحان الكمانات، وأسنان القوارض أقوى من كل آلات إيقاعك. الملايين من الكائنات التي تسير بتناغم، كالأوركسترا، مطالبة بما هو حق لها...

سخر رضا مني، ومضى وهو يدمدم: عرفت ذلك، فأنت معتوه. لطالما عرفت ذلك. . . معتوووه!

* * *

أمكنني أخيراً الاتصال من جديد بماتيلد، رفيقة سكن رضا، الجميلة التي لا تزال تعمل في المطعم الفرنسي الذي سبق أن عملتُ فيه. اكتشفت أخيراً أن نائحين فرنسيين، مثل ماتيلد، يغزون المدينة، وينشدون «المارساييز» (النشيد الوطني الفرنسي ـ المترجم) كلما سنحت لهم الفرصة. جاؤوا إلى هذا الشمال الأميركي الكيبيكي ليحتلوا كل مخبز، ويغزوا كل مطعم فرنسي، ومحل لصنع الـ «كرواسان»، بمظهرهم اللامبالي، ورائحة الجبن المتخمّر المنبعثة منهم، برغم أنه على المرء، حقّاً، أن يعجب بمعرفتهم الموروثة للنبيذ والثقافة. هذه مهارات يجب الإعجاب بها سرّاً. وتسعى حكومة كيبيك على نحو كبير، إلى الحصول على الباريسيين، وترغب بالتأكيد في إغرائهم للقدوم إلى هنا. وعلى باب كل وكيل سفريات، يتم إلصاق صور عن الريف القروي، وكيبيك شمال أميركا، حيث تظهر شتاءات مثلجة دفيئة؛ وتغمز أعين فقمات البحر من على جدران مكاتب الهجرة في انتظار أن يتم إنقاذها، ورعايتها، وتدليلها؛ وقد طُبعت ألوان الصيف الخريفي المتعدِّدة على صفحات كل مجلة سياحية؛ ويتم اكتشاف le nouveau monde français («العالم الفرنسي الجديد») في كل عرض سياحي. يعتقد الكيبيكيون، بسبب معدّل الولادات المنخفض للغاية لديهم، أن في وسعهم زيادة نسلهم من خلال اجتذاب الباريسيين، أو على الأقل، لفترة، موازنة عدد أبناء جنسهم في مواجهة أسراب من السمر والسود الوافدين من كل مستعمرة فرنسية سابقة، هرباً من ديكتاتوريين أو من مدن متهادمة. لكن، ما الفائدة في الحقيقة؟ يأتي هؤلاء الفرنسيون إلى

هنا، وعلى غرار الكيبيكيين لا يُنجبون. يمتنعون، أو يسدّون كل قناة فلوبيوس، ويحتجزون كل حيوان منوي قبل أن تستوي البويضة لتصبح canard à l'orange («البط بالبرتقال»). فهم كثيرو الانهماك في الخبز، وتذوّق النبيذ، وشرائح الجمبون والجبنة، وكثيرو الانشغال في ترهيب الزوّار الأميركيين الذين يؤدّون دور المحنّك من خلال تذوّق كل زجاجة نبيذ فرنسي ملفوفة بمنديل أبيض، ويهزّون برؤوسهم موافقين.

سمعت الفرنسيين، وأنا أغسل الصحون في المطعم الفرنسي، يضحكون وراء الأبواب المتأرجحة هازئين برعاة البقر الذين يُهنئون، مع كل قضمة، رئيس الطهاة، ويهمهمون موافقين على قطيع البقر الممزوج بالمضادات الحيوية والمحقون بالهرمون، ويجتر عظام الدجاج المطحون، وفي غضون ذلك كله، يجوعون بصمت من الحصص الصغيرة، وتضللهم الجرعات السحرية لهؤلاء العرّافين الفرنسيين. كانت ماتيلد هي التي أوجدت لي العمل. وهكذا، أخذت، على مدى عام، أرشّ الماء على الصحون والفضيات. وأمكنني أحياناً، وأنا أمسك بملعقة أو بشوكة، أن أقسم بأنني لا أزال قادراً على الإحساس بحرارة شفتي الزبونة. وأمكنني، من خلال شكل بقايا الطعام، أن أقول إذا كانت الزبونة قد زمّت شفتيها على آخر قطعة من الكعكة. كنت أخلع قفازي وأمرر إبهامي على الخطوط الخارجية لشفتي المرأة. فأي سيدة، عندما تكون سعيدة، وملتذّة بالطعام، تسحب الملعقة ببطء من فمها المزموم وتتركها معلّقة لبرهة أمام شفتيها، تلهث عليها، وتحرفها بعض الشيء لتلتقط انعكاس

ضوء الشمعة. وقد أحزنني محو السعادة بالماء. أحزنني إغراق التنهدات والتوهّج بخراطيم الماء. وأحزنتني من ثم إعادة اللمعية والبريق.

رُقّيت في أحد الأيام إلى «نويدل». أخذت أرفع الصحون من تحت أنوف الزبائن وأسكب الماء في أكوابهم، في حين أُبقي دوماً، عيني على بيار، رئيس خدم المائدة، الذي يقف في الزاوية، ويداه مشبوكتان أمام المنشعب بين رجليه أشبه بورقة التين في الصور الزيتية. وهو لا يكاد يتكلّم. تقضي وظيفته بمراقبة الموظفين، والإجابة عن أسئلة الزبائن، وقد طُرّزت على كمّيه ضفائر مذهَّبة تضفي على المكان جواً من الرفاه والأرستقراطية. ولم يكن ينحني ولا حتى إنشاً واحداً عندما يقترب من الزبائن. ظهره دائم الانتصاب وكتفاه، معتزّ ودائم الهدوء والسكينة، قليل الحديث. وكان ابن الحرام، عندما يتحدّث بالإنكليزية، يشدِّد على اللكنة الفرنسية ويبالغ فيها. يلحّن كلماته، ويمكنك أن تلاحظ ارتجاجاً بسيطاً في عنقه عندما يفرقع بأصابعه، فيقوم الموظفون القريبون منه على الفور بالكنس، والملء، والتقديم، والالتقاط، والجلب، والتبديل، والانحناء، واستدعاء التاكسي، وفتح الباب، وتمرير شعلة فوق الكعكة، وشق طريقهم أمام الطاولات الراقية، يغنوّن «سنة حلوة يا جميل»، بلغات عدّة.

تقدّمت مرّة من رئيس الخدم بيار، وقلت له إنني أرغب في أن أصبح نادلاً. تطلّع إلي بعينين جامدتين، متّقدتين، وقال: Tu

es un peu cuit pour ça (أنت محروق أكثر مما يجب لذلك!) Le soleil t'a brûlé ta face un peu trop (لقد أحرقت الشمس وجهك أكثر من اللزوم). أدركت ما يعنيه هذا البشري القذر صاحب الكمَّين ذوي الضفائر الذهبية، والوضعية المتفاخمة! رميت مئزري في وجهه واندفعت خارجاً من الباب، وكدت أصطدم بعربة امرأة داكنة البشرة تجرّ وراءها خمسة أولاد أشبه بالبط الهارب من طباخ فرنسي. صرخت ببيار «أيها العاجز العقيم، انتهت أيامك وجنسك معدود. ليس بمقدور أحدٍ الهروب من وقع الشمس على وجهه، ولا يستطيع أحد حجز المني العابر للجائع والمظلوم». تعهّدت له بأنه لن يخدم في يوم من الأيام إلا الصراصير العملاقة على كرسيه المخملي. وقلت له إن من الأفضل إزالة ثريا الكريستال الكبيرة من وسط السقف حتى لا تصطدم شوارب الضيوف الطويلة بها وتؤرجحها عرضاً فوق رأسه المتأبّه. ونصحته قائلاً: «إن من الأفضل لك أن تقدّم الفتافيت والندى اللزج في قائمة ما يؤكل عندك، يا موسيو بيار، وإلا فسيُحكم على عملك بالإغلاق والخراب». و... و...! صرخت، وتعتعت، وكرّرت، وأضفت بينما كانت سبابتاي تتحرّكان مثل زوج من الهوائيات العملاقة. وقلت: «خير لك يا صديقي، أن تألف ضجيج الخربشة وطنين الأجنحة التي تخفق بسرعة لتهوئة الساخن. ومن الأفضل لك أن تضع لافتة: لا يُسمح بوضع البيض والتكاثر في المطبخ أو في الخزائن أو الجدران». وأضفت: «ولن يمكنك بعد الآن التحقق من أسنانك في انعكاس السكاكين الفضّية، فلن تعود ثمة حاجة إلى أدوات

المطبخ في مكانك. سيُقضى عليك، سيقضى عليك وقد اجتاحك الوافدون الجدد! فشمعداناتك الفضّية، وأكوابك الكريستالية، وعيناك البلوريتان اللتان تراقباننا مثل المرايا على جدران سجن، ستصبح كلها عديمة النفع ومنتهية الاستعمال، وسيُستبدل بها ما يلائم البطون الرخوة الزاحفة وهي تتمرّغ على الصحون القليلة العمق». وصرخت «أنت تجرّ الأمر على نفسك! وسترجع الأرض والمساحات المستديرة منبسطة! التغيير آت. توبي أيتها الكائنات المنتصبة المختالة!». وتابعت، وتابعت، وصوتي يرتجف وأنا أقف على الرصيف، أرى اللافتة آتية، يا صديقي، وستقول: بإدارة جديدة! لائحة طعام خاصة يقدّمها حفار قبور مع الرفوش والأنياب! ها! ها! ها!».

ضحكت، وغادرت، من دون هدف.

* * *

اتصلت وسألت ماتيلد عن رضا، لكنها قالت من جديد إنها لم تره في المنزل منذ بضعة أيام.

أخبرتها أنني أحتاج إلى المجيء والبحث في غرفته مرة أخرى. «ربما وقع تحت السرير، وقرر أن يزحف على بطنه ويختبئ. تعرفين أنه يدين لي بالمال، والذين يدينون يختبئون في العادة».

- أنتَ تريد المجيء للقيام بتودّداتك الجنسية المعتادة فحسب». Il n'est pas sous le lit إنه ليس تحت السرير. وأقفلت ماتيلد الخط في وجهي.

شعرت بأسناني تصطك. أخذت تلك الرغبة الغامضة، المتحولة، تنتابني من جديد. وهكذا، عاودتُ الاتصال بها فوراً واعترفت. قلت لها: يا ماتيلد أنا أحلم بك كل يوم. أتعلمين بأن الأوزون سينشقّ منفتحاً وسنشوى جميعاً، وأن قلة فقط من المختارين سيُنقذهم الرب؟ سنُشوى جميعاً، وحدها الصراصير ومملكتها الأرضية ستنجو من طوفان النار الأخير ذلك. سنذوب جميعنا مثل الجبن. وإن جل ما أريده في ذلك اليوم هو أن أذوب قربك.

قالت:

أنت لست جاداً.

- صدقيني أنا جاد. ولديّ مجلة تثبت ذلك.

ـ Quel magazine¢ C'est un article, ça؟ أي مجلة؟ أهي مقالة فيها؟

ـ نعم، بالتأكيد! والمقالة موافَق عليها من القسيس الأكبر للهيكل الصاعد ذاته. حتى أنه ألصق صورته على الصفحة الأولى. دعيني آتِ إليك وأُرِك شَعره المسرَّح بعناية، ونظّارته السميكة التي تشهد على قراءته الدؤوبة للكتب المقدَّسة، وابتسامته الصادقة التي تبرهن على سعادته الداخلية، وخلاصه المضمون، وتكرّسُ عائلته، واستباقه الرحلة السماوية الطويلة على ظهر يسوع المخلّص.

ـ N'importe quoi, bof, en tout cas les religions me font

chier, moi. كلام لا أساس له. وعلى أي حال، فإن الديانات تنفّرني منها.

أردت أن أقول لها إنني لا أهتمّ بالديانات أيضاً، لكنها أقفلت الخط في أذني.

المرّة الأخيرة التي فكّرت فيها بالدِّين هي عندما اخترت الشجرة لأشنق نفسي عليها. كنت مستاءً من الآلهة، أو ممن هو مسؤول عن إنبات الأشجار حول المكان، وجعلها إما رقيقة وقصيرة، وإما عظيمة ومرتفعة. لم أفكر في الدين بقوة كبيرة، لكنني لم أتخذ القرار بخفّة. لم يكن الخداع، أو الكآبة، أو المأساة الكبرى، هي التي دفعتني إلى شراء حبل يناسب عنقي. ولم تكن أصوات. لم أسمع قط أي صوت في رأسي، باستثناء جلسات الازدحام الظرفية في شقة ماري، الجارة التي تقيم فوقي. كلا، فالأمر الذي دفعني إلى الحافة هو الضوء الباهر الذي دخل من نافذتي وحطّ على سريري ووجهي. لم يعد لأي شيء معنى بعد ذلك. ليس أنني كنت أبحث عن هدف وخُدعت، فأنا لم أشرع قط في البحث عن واحد. رأيت شعاع النور يعبر نافذتي، وأدركت مدى تفاهتي في حضوره، وكم أنه غافل عن وجودي. ليست مشكلتي أنني كنت مهملاً حيال الحياة، بل إنني شعرت، بطريقة ما، بأنها هي التي أهملتني. وأمكنني، حتى عندما هرعت إلى النافذة وأسدلت الستائر، أن أشعر بشعاع الضوء هناك ينتظرني. ينتظر أن يلعب لعبة المطاردة واللمس معي

من جديد. يومض ويكشف كل ما هناك، ويقذف صوراً في عيني، مذكّراً بأن كوميديا حياتي كلها لا تزال تُعرض.

فتحت الستائر وأرخيتها على نحو إكراهي مرّات عدة في ذلك النهار. وفكّرت في سرّي، أن الأمر أشبه تماماً بالموت؛ أشبه بالموت الموجود دوماً هناك، وسيصل إليّ في النهاية. أصبحت مهووساً بالهروب من الشمس. فكّرت: ماذا لو عشت في الليل فقط؟ يمكنني النوم طوال النهار وتكون لي حياتي الليلية. لكنني، حتى في صباح اليوم التالي وأنا في السرير، وحتى عندما كنت غافياً والستائر مسدلة، علمت بأن الشمس لا تزال هناك. ثم واتتني فكرة لامعة، مشرقة. وفكّرت: الضوء بالتحديد لا يزال هناك لأنني موجود. وماذا لو كففت عن الوجود؟

فتحت الستائر، وهرعت إلى تحت. وجدت متجراً، وبحثت عن حبل يكفي سمْكه ليتحمّل جسمي ويلتف حول عنقي. شاورت موظف المتجر في مسائل الوزن والطول. أقنعته بأنني أنتقل وبأن الحبل مخصص لإنزال الثلاجة من النافذة بواسطة بكرة. ولأجعل القصة أكثر واقعية، مضيت إلى قسم البكرات واخترت واحدة مناسبة. لكن، ما إن أدار الموظف ظهره، حتى أعدت البكرة إلى مكانها، ولم أشتر سوى الحبل.

* * *

عدت إلى سريري بعد محادثتي مع ماتيلد، وأفقت قرابة الظهر في حالة من الذهول، لا أعرف في أي يوم من أيام الأسبوع أنا. لم تعد الشمس تزعجني في تلك الأيام. بدت تلك

الأسئلة، التي استهلكتني جدّاً قبل محاولة انتحاري، بطريقة ما غير ذات صلة. ولأكون صريحاً، إنها تأتي إلى ذهني وتذهب. غير أن أكثر الأسئلة إلحاحاً في رأسي اليوم، هي التساؤل حول أي يوم من الأسبوع نحن فيه. إلا أنني، من خلال حجم السير الخفيف في الشارع، وغياب شاحنات التسليم خارج المتاجر تحتي، ظننت أنه يوم الأحد المليء بالكنائس الفارغة وبالأسرّة المزدوجة حيث يفيق الأزواج على مهل بعد ليلة طويلة من الشرب والكحول المفتوح الذي يفيض في شارع سانت لورانت، والبيرة الذهبية المتدفقة من آلات التعبئة ومن فتاحات القناني.

أخذت أتذكّر ذلك كله: لكن نعم، بالطبع! أتذكّر الآن! فقد تمشيت في الليلة الماضية عبر سانت لورانت، أقفز من حانة إلى أخرى، أملاً في لقاء من لديه من السخاء ما يكفي ليقدّم إلي البيرة. إلا أنني لم أصادف إلا مجموعات من الطلاب المزوزقين الهارعين إلى الحفلات المحمومة في الأماكن السفلية تحييها الأضواء الكاشفة وأقراص الأكستاسي. سارت الفتيات في البرد بتنانيرهن القصيرة جداً وستراتهن الخفيفة، ترتعد فرائصهن ويُخبّئن أيديهن داخل جيوبهن أو أكمامهن. صادفت محمّسين وحيدين للعبة الهوكي من متوسّطي الأعمار ينفثون الدخان من أنوفهم، وقد استحوذتهم الشاشات والعصي، يملأون كراسي البارات التي استضافت لسنوات طويلة المؤخرات المعتادة المكشوفة وقبعات كرة القاعدة. دخلت قرابة منتصف الليل حانة لوفلاي في سانت لورانت. اجتذبتني كالحشرة أشكال مصابيح الحانة والضوء الخافت المنبعث من النافذة. أحب الأماكن

المضاءة إضاءة شحيحة مع طاولات غير مرئية تقعد هناك فحسب، تصغي إلى الأنات المغلوبة للكراسي المغزوّة. أحب الممرات المظلمة التي تؤدي إلى حيث يأتي كلّ شيء (صناديق البيرة، حليب القهوة، سلال الخبز). أحب الأماكن المتسخة والزوايا القاتمة. فالأماكن المنيرة هي لمصاصي الدماء.

ناحت فرقة حيّة للموسيقا الريفية البلوغراس، بالبانجو والغيتار والهارمونيكا، حول الأحباء المفقودين بألحان شبيهة بألحان الغجر الرحّل من الفتح الإسباني. وازنت رجليّ على طرف السكة تحت دفّة الحانة، وأنا آملٌ في أن قيّم الحانة، المنشغل في تنظيف أحد الأكواب، لن يأتي صوبي ويسألني بصوت مسموع «ما طلبك، يا صديق؟». وتماماً في الوقت الذي أخذت فيه قدماي تنقران على الأرضية الخشبية، إن من العطش، أو من الجوع، أو من الضرب السريع على البانجو، وتماماً قبل أن تصبح رغبتي في الرقص قوية إلى درجة تدفعني إلى المساحة الفارغة بين المسرح والحشد الذي يعاقر الخمرة، قلت في نفسي: من الأفضل لك، يا صديقي، أن تغادر قبل أن تحوِّل نفسك حصاناً راقصاً يعدو خارج الجدران، أو صوصاً مذبوحاً مع بانجو معلق حول عنقه. من الأفضل لك الرحيل على أن تُجَرّ إلى عرض منفرد. ألم تتَّعظ من أعراس الأحد حيث دفعتك عمّاتك إلى حلقة القرية لتأدية رقصة الحصان، وحيث قمت بإرادتك، وبعد وعد من عمّك الحلاّق بإعطائك بعض النقود، بخبط قدميك الفتيتين على التراب على إيقاع الطبول البدوية المصنوعة من جلود الجمال والسنديان الملويّ؟

هززت رأسي لطرد ذكريات الليلة السابقة، ورفعت الهاتف للاتصال بشوهره. الخط مقطوع. فأنا لم أدفع الفواتير منذ بضعة شهور، ولا بد من أن شركة الهاتف قد برّت بوعدها أخيراً وقطعت خطّي. تساءلت: هل يعمدون، عندما يقطعون الخط، إلى إرسال فتيان أقوياء إلى الأمكنة السفلية لتحديد مكانه وشقه كرسغ اليد المفتوح؟ وهل يتلوّى لفترة مثل ذنب العظاية؟ وهل آخر كلمات المحادثة تفلت وترتد على طول تلك الأنفاق الطويلة وتتحوَّل إلى صدى لعنة، أم أنها تتحوَّل إلى صمت فحسب؟ لا أهمية لذلك حقاً. فأنا، في ما عدا شوهره وقلّة من القادمين الجدد إلى هذه الأرض، لا أهتم بالحديث مع الكثيرين من الناس. ثم إن هناك هاتفاً عمومياً ينتصب في كل زاوية من زوايا هذه المدينة. وهي تقف في البرد أشبه بالتوابيت العمودية الشفافة يتلو الناس حياتهم فيها.

سرت، جائعاً، إلى المطبخ وفتحت الخزانة. إنها لمعجزة بالفعل! علبة تونة منسية تطفو عند مؤخرة الرفوف. استوليت عليها، وفتحتها. شاهدتها تهتز في مواجهة سكون الزيت. انتظرت سلق الأرز، وأكلت جالساً عند النافذة وأنا أنظر إلى النوارس تنساب فوق الثلج الفرنسي الأزرق.

أردت، بعد الطعام، أن أغسل الصحون، ثم فكّرت عندها: ربما توجّب عليَّ الاستحمام أوّلاً. خشيت أن تنفد المياه الساخنة إذا أهدرتها على الصحون. وسيكون علي عندها أن أنزل وأزور ناطور العمارة، كما فعلت ذلك مراراً من قبل، أقرع بابه وليس عليّ سوى منشفة ألف بها وسطي، وأشتكي إلى زوجته الروسية

في شأن الأنابيب التي تغرغر عطشاً وفراغاً. وسألقي عليها محاضرتي عن زوجها الساهي الذي يختبئ دوماً في الطوابق السفلية، والعالق أبداً في أسلاك التمديد، والمغمغم على صوت آلات القدح المرهبة. فعندما يراني ذلك الحاضن، المدخّن الشره، يتدبّر دوماً أن ينصب سلّماً. وقبل أن يتفوّه لي بأي كلمة، يتسلّق الأدراج المعدنية ويتحدّث معي من فوق، عبر زجاجة نور كهربائية محروقة، أو خط لا ينتهي من أنابيب الفلورسانت التي، إذا نظرت إليها ما يكفي من الوقت، تؤدي بك إلى أجدادك الموتى، الذين، ما إن يعلن الطبيب عن وفاتك ويتوقّف الخط الأخضر على شاشة المراقبة مُصدراً تلك الإشارة الطويلة، حتى يظهروا برداءات طويلة لاستقبالك. وقبل أن يتنسى لك أن تسألهم عن معنى الحياة، وقبل أن يتم تقديمك إلى الآلهة المشرقة وإلى هرجة الأرواح، وقبل أن يتسنى لك تغطيس قدميك في الحوض الساكن، سيتم سحبك إلى الوراء عبر النفق الطويل وتحط في سرير المستشفى، وتسمع الممرضات يرحبن بعودتك. وهكذا الآن، في كل مرّة أرى ناطور المبنى مع سلّمه تماماً تحت مستوى السقف، أتحدث إلى حذائه، متوجّهاً إلى الزوجين باسم عائلته. أقول: أيها السيد ماركاكيس. أقول، يا صاحب الجلالة.

وبالحديث عن الأحذية، شاهدت الناطور مرّة على الرصيف ينزّه كلب إحدى الجارات، وهي سيدة عجوز تسكن مبنانا. تأتي زوجة الناطور إلى السيدة العجوز بالطعام، وتجرّها في أيام الصيف، عندما تكتظ أغصان أشجار الجيران بأوراق القيقب، إلى الرصيف في الخارج لتأخذ حمّام شمس. إنها تعتني بالسيدة

العجوز، لكنها تسرق أيضاً أوانيها الخزفية وثيابها التي كانت ترتديها في صباها. شاهدت ناطور البناية ذلك الصباح، كان ينكش الأرض بإحدى قدميه، حاكاً حذاءه على طرف الرصيف. لقد وطأ في براز جرو السيدة المدلَّل. أخذ يلعن الناس الذين لا ينظفون من وراء كلابهم. وشرع كلب السيدة العجوز ينبح، وقد أشكل عليه الأمر، وجُرحت مشاعره. وسينبح، ويقفز على قدمي الناطور، ويشمشم، ويهمهم، ويشد على رسنه احتجاجاً.

ضحكت عليهما. رآني الناطور أضحك. حدّق إلى عيني، وشتمني باللغة المقدونية، ودعاني بالتركية بالقذر، أو ربما بالكلب، أو ربما بالكلب التركي القذر. وأخذ منذ ذلك الوقت، كلما رآني في البهو أو في الطابق السفلي، يصعد ليقف على أعلى درجات سلّمه ويدلّي، كالجلاّد، سلكاً صوب عنقي. ولطالما ذكّرته بزلّة لسانه، بل إنني ذهبت مرّة إلى حد القول له أن ينتبه أين يخطو لأن العالم مليء بـ... لكنني توقفت لبرهة وأضفت: حسناً، لأنك تعرف كم تكون الارتفاعات خطرة. وضحكت تحت الضوء الساطع للزجاجة الكهربائية الجديدة.

أُحبّ زوجة الناطور. أُحب كيفية اختبائها الدائم في شقتها في الطابق السفلي، وهي تجرّب ألبسة السيدة العجوز. وقد قرعت بابها مرّة ففتحت وهي ترتدي قبّعة من قبعات القش الكبيرة الاستعمارية تلك. سألتها:

أتستعدين لتناول شاي بعد الظهر؟

ردّت بلكنتها الروسية الثقيلة:

- ماذا تريد؟ زوجي ليس هنا. دع له رسالة في الصندوق خارجاً إذا أردت إصلاح شيء ما.

سمعت الموسيقا الكلاسيكية تتصاعد من وراء الجدران الداكنة لشقتها.

قلت: إنها شعائر الربيع لسترافينسكي.

- أنت تعرف موسيقاك.

ـ وأنت تعرفين قبّعاتك.

ـ ماذا تريد؟

وشرعت في أرجحة الباب لإقفاله، إلا أنني، قبل أن تتمكن من توسيع ذراعها وتكشف عن إبطها الناعم المتعرّق، وتصفق الباب في وجهي، راوغت وقلت إنني أعرف أن القبعة تخص السيدة العجوز.

- نعم. لقد أعطتني إياها السيدة العجوز. ماذا تريد؟

قلت، غامزاً:

- وماذا أعطتك غير ذلك؟

كادت تبتسم. وقالت:

- أنت شديد الملاحظة. السيدة متقدمة كثيراً في السن، وليس لديها أحد، وهي لا تحتاج إلى شيء. مات زوجها منذ زمن بعيد، خلال الحرب في الصين، وهكذا...

قاطعتها:

- آه، نعم، نعم»، فربّما مات من جراء الطاعون، أو الإعصار، أو ربما من حمل أكثر مما يلزم من الشاي أو الأثريات.

كادت تضحك وقالت:

- لا أدري. ولا أبالي. ربما قُتل في الحرب. قرأت رسائله إليها. إنها رومانسية كثيراً. كان ضابطاً في الحكومة البريطانية، رجلاً محترماً، ووسيماً أيضاً. سألت السيدة العجوز عنه، لكنها لا تتذكر أي شيء.

سألتُها:

- بالحديث عن الرجال المحترمين، هل خرج زوجك لينزّه الكلب؟

وأصدرت قهقهة خفيفة لأنني لفظت كلمة «خرج» بنغمة صاخبة.

- لا. ذهب ليشتري الدهان. وسيعود في غضون ساعة.

- أستطيع إذاً الدخول والإصغاء إلى الموسيقا وتناول الشاي.

لم تُجب زوجة الناطور، واستدارت عوضاً عن ذلك، ودخلت تاركة الباب مفتوحاً.

دخلت الشقة. كانت في المطبخ تعبئ الإبريق ماءً وتدخّن. اصطدمت قبعتها، وهي تتحرك، بالخزائن عند جانبي المطبخ. خشخش قش قبعتها، وأخرج الإبريق الفقاقيع وغلى، ثم أنزلت

المراطبين، والفناجين، والسكر، وأطلقت الملاعقُ أصواتاً شبيهة بصوت آلة المثلّث، وأدَّت من ثم عملية السكب والتحريك داخل الأكواب الخزفية، إلى رفع معنوياتي. سأجلس على كرسي منزّه الكلب، أحادث زوجته، وأتناول شراباً ساخناً داخل بيته. يا له من نصر!

سألتني:

- أتريد شراباً أم تكتفي بالشاي؟

ـ الشاي من فضلك.

كرّرَتْ بسخرية وخيبة:

- الشاي؟

أمكنني من جديد سماع هسهسة قش قبَّعتها وهي تتقدَّم بالصينية وتضعها أمامي على المنضدة الصغيرة التي تعرّفت إليها فوراً. سبق أن رأيت هذه المنضدة على الرصيف خارج مبنانا. ففي خلال موسم التعزيل، يرمي الناس ما لا يحتاجون إليه. ترددتُ حينها في التقاط المنضدة. فهي منخفضة ومستديرة، مشحّفة عند أحد جوانبها لتظهر الطبقات من تحتها، وهي طبقات أكثر تنظيماً وإتقاناً من كل الصخور والحجارة تحت الحدائق والحقول. تتفرَّع كل رِجل من أرجلها المعدنية إلى مثلّث مثبَّت ببراغيّ إلى كعب مسطح الطاولة. حمتُ حولها لفترة، وقمتُ برقصة صغيرة، تطلّعت من حولي بحثاً عن مستأجرين أو كلاب مهرولة، ثم غيّرت رأيي. فسطحها الأبيض كثير اللمعان، ولو

وضعتها في وسط غرفتي فستضربها أشعة الشمس وترتدّ عنها، وتلصق مربّعاً مضيئاً على جداري. وسأنجذب إليه كالعثّة.

خلعت زوجة الناطور قبّعتها وانحنت فوق المنضدة. بدت عيناها كبيرتين الآن، وقد أضاءهما انعكاس المنضدة، تشعان مثل بحيرة (كنت محقاً في عدم أخذ قطعة الأثاث هذه). استدارت، سكبت، ولوّحت لي بملعقتها مثل قائد أوركسترا. ثم جاء كوب الخزف الصيني الصغير يترقرق من فوق حضني، والآثار الذهبية في الحرف الداخلي للخزف قد لفّها الشاي المذهّب، والشاي الدقيق، الشظف، والغالي الثمن، وقد أحاطت به الآن صحيفة دقيقة والمسكة المرتفعة المصنوعة بعناية للفنجان الأبيض الذي جعل إصبعي تنتصب. إنه فخر الأمة.

قلت:

- خزف لطيف.

صاحت: حسناً! السيدة عجوز وتشارف على الموت، اشرب شايك.

صبّت الشاي بفظاظة كما لو أنه مشروب قوي سيهبط في معدتك ويجعلك سعيداً بالوقوف، والرقص، والغناء، والشرب من حذاء سيّدة.

همست وفمي داخل فنجان الخزف: هذا الحذاء يبدو ضيّقاً على قدمَيك.

أجابتني جليستي وقد رفعت صوتها:

- إنه لي، وليس لها. إذا شئت الكلام على هذا النحو، فبإمكانك الخروج الآن. على أي حال، فإن زوج المرأة المسنّة قد سرق كل شيء من الهنود، أو من الصينيين. أحسبه لم يدفع شيئاً، أو أنّه دفع القليل».

- آه، نعم، أنا أوافق. وما الذي لم تسرقه الثقافة الرفيعة، أو تستعيره، وتدعي ملكيته، أو تدفع القليل لقاءه؟

- نعم، أنا أحمل إجازة تعليمية في الأنتروبولوجيا من أفضل جامعات روسيا، وبالتالي أنا أعرف. لا تتحدّث في ذلك، فأنا أعرف فيه أكثر منك.

- حسناً، نعم. أنا سعيد لأنك تتلقّين هذه الأمور كلها وتمنحينها حياة جديدة.

أضافت زوجة الناطور:

ـ حياة جديدة هنا، في القبو؟ وفاجأتني بضحكة مرتفعة جعلتها تبدو أشبه بالقرصان. وأضافت:

- تملك السيدة العجوز صندوقاً كبيراً جميلاً، يحتمل أنه من الصين أو اليابان، لكن زوجي... خائف. لا، ليس خائفاً. لكنه يؤمن بالآلهة. فهو يوناني!

ـ آه، أهو كذلك؟

ابتسمت وتابعت: لكنه يبدو أنه لا يخاف، يسير دوماً وعيناه على الأفق، لا ينظر إلى حيث تطأ قدماه.

ـ هو في الحقيقة نصف إسبرطي، وهو فخور جداً. في أي حال هو، هذا ليس شأنك، لكن الصندوق ثقيل الوزن.

ـ حسناً، يمكنني مساعدتك في نقله. لكن ألا تعتقدين أن أحداً ما سيلاحظ؟

ـ للسيدة العجوز حفيدة، غير أنها لا تأتي أبداً للزيارة.

ـ لكن، أليس من الممكن أن تطالب الحفيدة مع موت العجوز، باسترداد مقتنيات العائلة؟

ـ لا ، فهي لا تعرف أي شيء عن المنزل أو عن الأثاث، فلا تقلق. سوف أناديك عندما يكون زوجي بعيداً، لكي تساعدني في حمل الصندوق. أبلغته أنني أريد جلب الصندوق إلى هنا، ودار بيننا سجال عنيف. أراد تكسير كل الخزف... وبرغم ذلك، قلت له إنني سأجلب الصندوق إلى هنا. وهو لا يصدّقني.

- حسناً، نعم، اقرعي بابي في أي وقت تكونين فيه جاهزة.

ـ كم تريد أجرتك؟

ـ آه، لا شيء. أفعل ذلك كرمى للتاريخ.

ـ تقصد رؤية الأشياء تنتقل من ثقافة إلى أخرى؟

ـ لا ، لأرى منهوبات الحرب وقد دُفنت، والكنز المسروق يُوضَع حيث ينتمي، تحت الأرض. . . وضحكت عالياً : تحت الأرض!

- القبو!.

ضحكت زوجة الناطور معي. تابعت:

- التاريخ آت إلى القبو.

قالت ضاحكة:

- حسناً، يمكنك الذهاب الآن... وتضاحكت، ثم تذكّرت كلماتي التاريخية وضحكت على نحو هستيري.

خرجت من شقتها أجتاز الجدران الأسمنتية المتجهّمة في الطابق السفلي، وكنت أسمع زوجة الناطور تغلق الباب وتقفله، عند الحركة الأخيرة من «شعائر الربيع»، فقمت بدمدمة اللحن السيمفوني ببراعة ذات الرداء الأبيض Snow White.

جمعت، وأنا أستحمّ، قطع الصابون الصغيرة العالقة عند أطراف الحوض، ورغوت نفسي. يفتنني تدفّق الماء. وهو لم يكفّ عن إدهاشي، كيف ينجرف كله بعيداً، وكيف يلتقي كلّ شيء في مجرى واحد، على طول المسار ذاته. وما يفتنني أكثر كيف يرتخي الصابون العائم عند المصرف، ويدور في دوامة ويختفي. أمور صغيرة كهذه تدفعني إلى التفكير. فشرعت في تقويم وجودي بالاستناد إلى هذه الملاحظات.

سريعاً نظّفت نفسي وارتديت ثيابي. حتى أنني غسلت الصحون، خلافاً لإرادة الصراصير، فحرمتها ثروة من الفتافيت. حلّ عليّ شعور نادر بالإنجاز وباحترام الذات. أكّدت لنفسي أن رجلاً صالحاً مثلي، نظيفاً، يعمل بكدّ، لا يُحتمل أن يُترك

ليحترق في ذلك اليوم الأخير، أو يخضع لحكم الصراصير في العالم الذي سيأتي.

«يا له من نهار جيّد بالفعل!». هذا ما أعلنته للنوارس المنسابة مثل أوراق القيقب خارج نافذتي. وبات كل ما أحتاج إليه الآن، هو أن أحصل على علبة سجائر وفنجان رائع من القهوة الصباحية. تذكّرت كيف أنني، في يوم ليس ببعيد جداً، تناولت فنجاناً طيباً قبل أن أسير إلى المتنزَّه وأبحث عن الشجرة وبيدي الحبل. قد تعتقد طبعاً أنني استمتعت به لأنه آخر فنجان لي، وقد بذلت جهداً للتمتع به، وتذوّقه على مهل، وإحاطته بكفي، وفكّرت في شأنه بعض الشيء، وأوليته شيئاً من الانتباه. لكن لا، أنت مخطئ؛ كان بالفعل كوباً لذيذاً من القهوة. وعندما أنهيت ارتشافه وانتقيت الشجرة، حاولت أن أرمي بحبلي من فوق الغصن، إلا أنني وجدت المهمة مستحيلة، وأدركت أنني أفتقر إلى المهارات الأساسية لراعي البقر. ثم حاولت تسلّق الشجرة، غير أنه كان نهاراً بارداً، وتجمّدت أصابعي المكشوفة إلى حدّ أنني لم أتمكن من تجنُّب الانزلاق. بدّلت بين الأشجار، ووجدت غصناً أكثر انخفاضاً. أقصد أن كل شيء كان مثاراً للشفقة.

لم تنجح الخطة. انكسر الغصن. لقد حاولت، وأخفقت.


٢

مرّت بضعة أيام، قبل أن يحين من جديد موعد صعود سلالم عيادة الصحة العامة، والجلوس على كرسي التحقيق.

هذه المرّة أولت المعالِجة اهتمامها لوالدتي.

قلتُ:

- إن لأمي شعراً متعقّصاً.

- وماذا أيضاً؟

ـ لها وجه مطاول وأسنان محدّدة.

ـ وماذا تفعل غير ذلك؟

- حسناً.. عندما لا تنشر الغسيل من أكمامه أو أطرافه على الشرفة، تحرِّك ملعقة الخشب في القِدْر المعدنية بحركة معاكسة لحركة عقارب الساعة. وإذا لم تنشغل في ذلك، تطاردنا وهي تلعننا وتهدِّدنا بأنها ستحفر قبورنا.

- أيمكنك التوسُّع في ذلك؟

- هل يمكنك أن تكوني أكثر تحديداً؟

ـ نعم. هل أحببتها؟ أكانت لطيفة معك؟

ـ أجل.. كانت رائعة، حتى وأنا متعلّق بمئزرها أناشدها

ألا تتركنا... وحتى وأنا مختبئ وراء الخزانة أشاهدها تسخر من أبي في وجهه، مراهناً شقيقتي على أي من عينيها ستتلقى الكلمة الأولى (لطالما راهنت على الجهة اليسرى)... حتى وأنا أسعى وراء بضعة دولارات ورقية متطايرة، وهي تصرخ: ما الذي يُفترض بي أن أشتريه بهذا؟ سأهجرك يا جوزيف. قم أنت بإطعام الأولاد. دع والدتك تأتِ وتطبخ لهم إذا لم تكن تحب طعامي. دعها تطبخ لك ولأولادك الأغبياء، المتأخرين، الوسخين، المتخلِّفين. بل من الأفضل أن تدعو الخيّال القزم لجواد سباقك الخاسر، ليأتي ويطعمهم.

تابعتُ: وأنا هذه المرّة أقلّد والدي: «قلتُ لك ألا تأتي على ذكر الأحصنة أمام الأولاد، يا مندوزا. قلت لك»، هكذا تحدّث والدي في فورة غضب وأنا أخسر رهاني، وأراقب شعر أمي المجعّد يتطاير مثل شعر جواد صغير يعدو.

سألت المعالجة، وقد ارتدت وجهها المؤاسي العادي:

- إذاً، أنت تحب والدتك؟

- نعم، أحبها. قلت ذلك مفكّراً في أنني لو قلت لها أي أمر إضافي، فلن أغادر هذا المكان قبل ساعتين. فالمعالجون النفسيون جميعهم، في هذه الأرض، يولون الأم أهمية كبرى.

هزّت المعالجة برأسها، وأحنت ذقنها على أصابعها، وافترّت عن بسمة استغراب، وسألت: أيمكنك أن تطلعني على حادثة سعيدة مع أمك؟

ـ حسناً، لا يمكنني أن أفكر في واحدة الآن، أيتها البروفسورة. عذراً، ربما كان ينبغي أن أناديك دكتورة؟

ـ جنفييف. لا بأس بجنفييف.

- جنفييف.. حسناً. إذا منحتني ما يكفي من الوقت لأقوم بجولة طويلة، لعلّني أشعل سيجاراً صغيراً بين الأشجار في المتنزَّه، قبالة الشارع في مكان ما على مقربة من تمثال بطل الحرب، وأتشاور مع الحمائم والسناجب المتسولة، ولعلّني أستوحي وأتمكن من العودة إليك في المرة المقبلة بقصص رائعة.

- أكانت والدتك تغذّيك؟

ـ أتعنين بالطعام؟

ـ آه، حسناً، بالطعام. لنتحدّث عن الطعام.

- أحب الطعام، برغم أنني بتّ أقلق مؤخّراً في شأن النقص في الطعام.

ـ هل حصلت على ما يكفي من الطعام في صغرك؟ فأنا الآن مهتمّة بماضيك.

ـ نعم.

- الكثير من الطعام؟

ـ نعم.

ـ هممممم. لا نقص في الطعام؟

ـ لا.

ـ أكنت دوماً هزيلاً هكذا؟

ـ نعم، نعم، دوماً.

قالت، وهي تنحني باتجاهي:

- اسمع.. أنا هنا لمساعدتك. عليك أن تثق بي. أنا هنا لأنك تحتاج إلى المساعدة. عليك أن تخبرني بالمزيد عن طفولتك. مع من كنت تلعب؟ هل امتلكت كلباً؟ هل تسلّقت الأشجار؟

- نعم تسلّقت كل شيء: الأشجار، الأدراج، النوافذ والسيارات، مهما تطلّب الأمر لـ...

ـ لماذا؟

ـ للحصول على الأشياء.

ـ أشياء، مثل ماذا؟

- مثل الفضّيات، والمحافظ، وأقلام أحمر الشفاه. كل ما يمكن بيعه، تعرفين.

وغمزتُ جنفييف. لكن يبدو أنني صوّبت قليلاً إلى اليسار لأن غمزتي ارتدت عن نسخة رخيصة من رسمة لزهرية وأزهار لماتيس.

ـ كنت تسرق الأشياء؟

ـ حسناً.. نعم، لقد فعلت، على ما أعتقد. لكن هل ثمة فتى لا يسرق؟

ـ أوَلا تزال تسرق إلى الآن؟

تطلّعت من حولي. غادرت الكرسي. فتحت الباب، جلت بنظري خارج الغرفة. انتظرت أسرة أفريقية مع طفلها الباكي المحرور لتعبر البهو وتصافح طبيب الأطفال، كي أعود إلى مقعدي، وأقول نعم، أحياناً. قلتها بصوت منخفض.

افترّت عن ابتسامة كبيرة أخرى وقالت:

- لا بأس، لا بأس.. هذا كلّه سرّي.

- سرّي.. ردّدت من ورائها.

هزّت برأسها، ومدّت يدها لتأخذ يدي وتشد عليها:

- عليك أن تقول لي أي شيء... كل شيء. فأنا هنا للمساعدة.

تمسّكت بأصابعها. كانت الحرارة قد دبت في أيدينا، فسحبت يديها بهدوء، وعدَّلت نظّارتها ورتّبت تنورتها، وتنهّدت في ما أملتُ أنه الانتصار والراحة. جعلني هذا، لغير سبب ظاهر، أشعر بالفضول حيال ماضيها، وطفولتها في الثلج وباصات المدارس الصفراء، والعشب الأخضر الزاهي وأضواء عيد الميلاد، ومدرستها الكاثوليكية التي تمنع اللهب، والسجائر، والنشوة الجنسية. هل انتظرت الباص مثل أولئك الفتيات اللواتي أشاهدهن يمشين بتنانيرهن القصيرة الموشّحة في درجات حرارة تبلغ أربعين درجة تحت الصفر؟ هل تضاحكت لدى مشاهدتها صِبْية ظُرَفاء؟ وهل كانت، مثل شقيقتي، تداعب جسدها تحت أغطية سريرها؟ وهل عضت على شفتها وهي تجعل الرجال المتعرّقين يقذفون أنهراً؟

لكنني فكّرت في الحقيقة كم أن هذه المرأة ساذجة وبريئة، لو أنها تعرف فقط ما أنا قادر عليه.

* * *

مررت بعد جلسة علاجي بمقهى أرتيستا، وبحثت عن البروفسور. كان خارجاً للتو من دورة المياه، وهو يهزّ يديه الرطبتين. سحبتُ بضع مناديل ورقية من مستوعب على الدفّة ومضيت صوبه. قلت: لا يوجد أبداً أي ورق لتنشيف اليدين، وجهاز دفع الهواء الساخن ذلك أسوأ من الهواء الصحراوي المحتضر. وابتسمت في وجهه. أخذ المناديل وجفّف يديه بلا شكر بل باعتزاز. فقلت له vingt-cinq sous, mon professeur (خمسة وعشرون سنتاً، يا بروفسوري)»، وضحكت ومددت إليه يدي.

توقّف البروفسور ونظر إليّ، وهو ليس متأكداً هل أمازحه، أم أتسوَّل، أم مجرد بعبع. ثم وضعت يدي على كومة مناديله الرطبة، وسحبت إحداها بهدوء. استعدتها بلطف، لكن بقوة، ووضعت يدي الأخرى تحت أصابعه الرطبة، وقرّبت فمي من أذنه وهمست: خمسة وعشرون سنتاً، وإلا جعلت هذه المناديل تمسح الدم والدموع من تحت أقدامنا، يا بروفسور.

مدّ البروفسور يده ببطء إلى داخل جيبه، وتطلّع من حوله مدّعياً الضحك، كما لو أنه يقف على سجادة فخمة بين فصلين من فصول الأوبرا، تحت ثريات كبيرة، وقد سمع للتو نكتة تداولها اثنان من مرتدي البزّات الرسمية. وعندما سلّمني ما

طلبته، أصابني الفرح الجديد وملأني الحب، وهرعت خارجاً إلى البرد باحثاً عن هاتف عمومي ليس بعيداً كثيراً، ولا كثير الضجيج، يمكنني منه أن أتصل بمحبوبتي.

أجابت شوهره على الهاتف، ووافقت على لقائي بعد الظهر لارتشاف القهوة في أحد المقاهي.

أضحكتُ شوهره في المقهى وأنا أقلّد صوت رضا الخارج من أنفه، ومشيته المترنّحة. أخبرتها بأن مخ الكوكايين المحافظ رفض إعطائي رقم هاتفها، لأنها، بحسب قوله: «ليست ذلك النوع من الفتيات. إنها إيرانية، وهي بمثابة أخت لي».

صاحت شوهره: أخت! أخت! ذلك المنافق! لقد سعى يائساً إلى مضاجعتي، إلى حد أنه عرض علي الزواج. رفضت عرضه، بالطبع. لا، لا أريد المزيد من الرجال الإيرانيين. ضقتُ ذرعاً بهم، فهم جميعهم مدلَّلو الماما؛ يريدون من ينظّف منازلهم ويضع طعامهم على المائدة.

أشعلتْ سيجارة، ورمت علبة السجائر بشدّة على الطاولة قرب فنجانها.

أكّدتُ لها أن في وسعي العيش في القذارة والجوع، قائلاً: والدتي تعيش بعيداً جداً، وإذا ما تزوجنا في يوم من الأيام، فلن يكون على أحد أن ينظف لأنني أقبل القذارة، والصراصير، وجبال الصحون المتسخة التي سترتفع فوق رؤوسنا أشبه بالتماثيل التذكارية، مثل الميداليات التي تشهد على أننا نقدّر ممارسة الحب ولذّة الوجود، وأن كل شيء آخر يمكنه الانتظار!

ولن أمانع، حتى لو كنتِ شقيقتي، في أن أستمع إلى أكثر تخيّلاتك جموحاً.

ضحكت شوهره، ودعتني بالمجنون. قالت بنعومة: أنت وسخ للغاية.

وفجأة تساقط شعرها الأسود الطويل بعيداً عن وجهها، وضحك لي حاجباها السميكان المقوّسان واخترقا قلبي، وفرّت ضحكتها منها وصفعتني على وجهي، وركلتني في معدتي، ومسحت الأرض بصدري المشعر، وأغرقتني بالعرق وعصرت قلبي بسعادة لا تطاق. وما لبثت أن قالت:

- سأنام معك! لكن عليك أن تخبر رضا كل شيء عن ذلك. يحتاج هو وأمثاله إلى أن يفهموا، مرة أولى وأخيرة، أنني لست عذراءهم المنتظرة، ولا والدتهم الحانقة، ولا شقيقتهم الطيّعة. أنا لست بشهادة على شرفهم الذكوري الوطني.

صرختُ:

- سأفعل! سأفعل!

وقلّدت ردّ فعل رضا حين يسمع بذلك كله. وقفت وقلّدت حاجبيه المخيّبين، وإبطيه اللذين يصيبانه بالحكاك، وصوته الصارّ كفأرة في الفخ. وضحكت شوهره من جديد.

أخذتُها إلى منزلي، وأريتها مكاني الصغير. نزع كلانا حذاءه وطاردنا الصراصير السابحة والمتزحلقة في قلب المجلى. ضربناها بكعوب أحذيتنا، وأخبرتها كيف أن تلك الحشرات،

عندما يأتي يسوع ويقتلنا نحن الخطأة، وينتشل المؤمنين إلى مملكته الطاهرة، وحدها سوف تنجو. وقلت، إنها سترث الأرض. لقد أكدت السيدتان اللتان ترتديان القبّعتين لي ذلك. وأدى عدم الإنصاف في هذا كله، إلى إثارة استياء شوهره. ذكّرها الأمر كيف أن بلادها أيضاً تُركت للصراصير، وأوحى لها هذا بضرب المزيد من هذه الحيوانات الصغيرة الأبدية، وقتلها، كما لو أنها سبب حياتها الضائعة، وسجنها، وإعدام عمّها، وتعذيب أصدقائها، ومنفاها الشخصي. وصاحت وهي تضرب: هذه هي حثالة الأرض. يجب استئصالها نهائياً!

ثم تدحرجنا في الوسخ، ومارسنا الحب فيه، إلى أن أصبح الوسخ شعارنا، والعَلَم الذي نقسم الولاء له. وما لبثنا أن سكرنا وألّفنا أناشيد وطنية جديدة من تأوهاتنا وشهيقنا وزفيرنا. «نعم، يا فتاي، «نعم، اقحمه بعيداً!»، كانت تخرج من حلقنا. وأخذت شوهره، بين كل صرخة وصرخة، تذكّرني بتدوين الملاحظات، وإبلاغ رضا كيف أنها رحّبت بي في فمها، وكيف أنها أغمضت عينيها وامتلأت مني بشهيّة أشبه بشهية رجال الدين. وكنّا عاريين ونحن نرقص، وصرخَتْ: «ملابسي الداخلية! كدت أنسى. تأكَّد من وصفها للموسيقي: ألوانها، وسروالي الداخلي الذي يمطّ مثل أوتاره ويهتزّ بأصوات سامية تتردد داخل غرفتي. أخبره كيف عرّيتك، وكيف لعقت حلمتي نهديك كحبَّتَي عنب، وكيف أن القطرات الساخنة، اللزجة، انسابت نزولاً على فخذي أشبه بحمم البركان. تمدَّد، هنا، بحيث أُمسك بك وأطبع ذلك كله في عقلك، بحيث تتذكَّره لما

بقي من حياتك. لنسرع ونقم بالأمر قبل أن تطفو هذه الكائنات الزاحفة من جديد، وتمنعني من إظهار شعري، ومن الإمساك بذراع محبوبي في العلن، ومن أن أغني عن السطح تهويدة لابن أختي النائم، ومن تغطيس شبابي العاري في سواقٍ صافية، ومن أن أتذوّق بفمي شيرازَ جدتي. لا تنسَ أي شيء، أَخبره عن الأمر. ربما كان عليّ أن أترك فيك ندبة. أَعطني ذلك السكين لأجرح يدك فأتمكن من مصّ بعض من دمائك الحمراء بلون خمرة البورغندي وأمزجها مع النبيذ، بحيث يمكنني أن أخبط بقدمي قلب تلك النغمة على إيقاع القرويين الذين يخبطون أقدامهم في برك منسية من العنب والدموع.

* * *

أخيراً، عثرتُ على رضا بعد أسبوع مُضن من البحث عنه. كان يسير في الشارع، يشمشم يسرة ويمنة بحثاً عن نغمة تُشبع، أو عن وجبة طعام تُلهم. ركضت إليه وأمسكت بيده وشددت على إحدى أصابعه. وقبل أن يتسنى له إبعادها، قلت «إنني جائع أيضاً أيها الحيوان السائل اللعاب. سأقوم في أحد الأيام بقصف إصبعك، وأتركك تنقر على تلك الأوتار بأسنانك الصفراء».

صاح رضا من جراء هذا، وحذّرني من عدم لمس أصابعه مرّة أخرى. رفعها عالياً برغم البرد، ومدّ إبهامه صوب السماء، وأشار إلي وصرخ: إذا لمستها من جديد، فسأعيدك إلى كثبان ماعزك!

سرنا معاً عبر الشارع وانتهينا في منزلي. أعددتُ الشاي وطالبته بمالي. وَعَدَ وناح ونفخ السجائر، وبلغت به الوقاحة أن

سألني عن طعام. وهكذا أخبرته، وقد امتلأتُ حقداً وانتقاماً، عن موعدي مع شوهره.

ملأه الخبر غضباً وحنقاً، واتهمني باللعب من وراء ظهره. قال إنني لستُ صديقه، ثم ابتسم واتهمني بتلفيق الأكاذيب. وقال: إذا تحدّثت على هذا النحو فسوف تلوِّث سمعة الفتاة. إن امرأة إيرانية صالحة مثل شوهره، لا تقوم أبداً بمثل هذا الأمر.

هرعتُ إلى خزانتي وسحبت سروالها الداخلي. شمَّه، قلت له: شُمَّه! فهو لا يزال ساخناً، حارقاً. وأضفت: حامياً! فيه رائحتها. هاك، قرّب أنفك السميك أكثر.

صاح رضا، وهو ينتشل سروالها الداخلي من يدي: يا لك من كاذب كريه.

رميت نفسي على السرير وقلبت الوسادة. وردّدتُ صائحاً: «انظُر.. لا يمكن أن تكون هذه الشعرة الطويلة السادلة إلا لامرأة إيرانية». احمرّ رضا من الحنق، ونهض وغادر وهو ينعتني بالكاذب والمعتوه.

* * *

بقيت من دون مال، وبالتالي من دون طعام. وعلى المرء، عندما يكون جائعاً، أن يسرق. هذا ما تعوّد أبو رورو، السارق، جارنا في الديار، أن يقوله لي. علّمني الكار. وأنا لست متأكداً كيف أَصبحَ على هذا القدر من إجادته. فهو ابن صانع أحذية، ولوالده محل صغير جداً بين بنايتين قديمتين. يكفي لقالب معدني، ومطرقة، وبضع قطع من الجلد، والغراء، والمسامير

الدقيقة التي يخزّنها في فمه. كنت، وأنا صغير، أشاهد أبا رورو وهو يملأ قبضتيه بالفستق، بينما يقوم البقّال بطحن البن. راقبته يدسّ الخس داخل سترته، ويحتال على صغار الشارع بأخذ خرجياتهم و«كللهم». أُعجبت به مع أنني أعرف أنه جبان. فهو يتفادى دوماً المواجهة المباشرة. صادَقَ خلال الحرب بضعة ميليشياويين لتأمين الحماية. قدّم إليهم الخدمات: غسل سياراتهم، نظّف بندقياتهم، وجلب لهم الطعام. ولابن الحرام رأس مربع، وقدمان مفلطحتان، وعينان أصابهما الحَوَل. بدا أشبه بفرانكنشتاين صغير، بيد أنه يستطيع الاستشعار بمكمن القوة والركوع للقوي. عندما شبّت النيران في المرفأ زمن الحرب، أخذني إلى العنابر المشتعلة. عبرنا تحت رصاص القنّاصة، وبين النيران. دخلنا العنابر وبلغنا البضاعة، وهي جبال من الصناديق التي يُفترض نقلها إلى السعودية. مزّقناها بأظافرنا وبالسكاكين. عثرنا على صناديق من الصابون، والمشاعل الكهربائية، والعطور، والثياب، والقدّاحات، إلا أننا لم نأخذ سوى آلات التصوير، وركضنا عائدين عبر أزيز الرصاص. بعنا كل شيء، وكان أبو رورو يغشّني دوماً في حصتي. كان يأخذ القطعة الكبرى ويلقي إلي بالفتات.

وبالحديث عن الفتات، قلت في نفسي لا بأس بشطيرة صغيرة. لا مانع من المضيّ إلى مطعم مجاور ما، ودخوله، فأمسح قطع الخبز الصغيرة وغيرها من البقايا على الشرشف، وأتبع من ثم آثار الفتات إلى الدفّة القريبة من المطبخ، وأسمح لنفسي ببعض الدفء المتصاعد من آلة التحميص. إلا أنني أعلم

كم تصعب سرقة الطعام في المطاعم. فلأوكار الطعام هذه حواجز كثيرة عليك اجتيازها قبل الوصول إلى الثلاجة أو إلى منضدة السلَطة. يوجد المدير، ورئيس الخدم، ناهيك بالنادل والطباخ ومساعديه. وعلينا ألا ننسى تشكيلة السكاكين التي يمكن سحبها والتلويح بها لحماية الطعام من الإنسان النهّاب، وللذود عن أفخاذ الدجاج، والبط المحشو المتلظّي الريّان. ضحكت، يكفي أن تتخيَّل بطة محشوة بالبرتقال! ضحكت من جديد، ونزلت خارجاً إلى الشارع، ودخلت أقرب مصدر غذاء متوفّر.

حيَّيت البقّالة الكورية عند الدفّة، ومضيتُ مباشرة إلى ثلاجة البيرة. التقطت بضع زجاجات ووضعتها على الدفّة. ثم أشرت إلى علب السجائر من ورائها، وأربكت السيّدة بحرف إصبعي التي كنت أشير بها قائلاً لها يساراً، نزولاً، وصعوداً في الوقت ذاته. وبينما هي تبحث عن العلبة أشبه بكلب شريد، انحنيت على زجاجات البيرة ودفعتها معاً لإحداث جلبة قوية، وهاجمت في الوقت ذاته، بيدي الأخرى، ألواح الشوكولاتة تحت الدفة. وعندما وضعَتْ أخيراً علبة السجائر على المنضدة وشرعت في الضغط على آلة الحساب، سألتها إن كان في وسعي أن أدفع لها في الغد. توقّفت، وأمسكت بالزجاجات والسجائر، وصرخَتْ: عليك أن تدفع الآن! تدفع الآن! نقداً! نقداً! نقداً! الآن. لعنتها وغادرت المتجر وألواح الشوكولاتة في جيبي. وسرت من حول الزاوية إلى الزقاق الخلفي على مقربة من أحد المطاعم الهندية.

البرد جليدي، إلا أن الشوكولاتة يصبح طعمها أطيب في البرد. يعرف الخبير أن الشوكولاتة، حين تتعرّض للهواء لتتنفّس عند درجة حرارة ما، تشكِّل تجربة رفيعة. قشّرت البلاستيك بلطف من أعلى اللوح، ثم فتحته كلّياً. رميت بالورقة، أمسكت رقَّة إصبعيّ باللوح، وراقبتُ الهواء الجليدي يفعل فعله. غيّرتُ موضع إصبعيَّ للتأكُّد من أن اللوح كله يتعرّض للحرارة الباردة، وشرعت في قضمه من الوسط، ممسكاً به كالهارمونيكا. لكن على المرء أن ينتبه إلى قضم اللوح لا إلى النفخ عليه (سأترك لهواء المدينة القيام بذلك).

عندما شعرت بأن درجة الحرارة قد انخفضت أكثر مما يلزم للمكوِّنات، انتقلت صوب مخرج الهواء الآتي من خلفية مطبخ المطعم الهندي. وها هي التجربة ستتغير الآن بطريقة جذرية، ليس من دون مخاطر بالطبع. أمسكت ببطن اللوح المفتوح عالياً في اتجاه التيّار، أشبه بالتقدمة، وعددتُ للعشرة. دعوته بلوح الشوكولاتة الماسالا (تعبير جنوب آسيوي عن تجميل القصة بالأقاويل من خلال التكرار ـ المترجم). يا لها من متعة بذوق رفيع قادمة تواً من الشرق!

فكّرت وأنا أقضم: لا ينبغي لأحد أن يعاني الجوع. برغم أنني، ولأكن صريحاً، لا أحب إلا أولئك الذين يعانون. أحببت شوهره لأنها عانت. وقد جاءت لرؤيتي مرتين حتى الآن، وجلبت معها في إحدى الليالي زجاجة نبيذ. كانت سعيدة ومغازلة. تنورة قصيرة، وبلوزة أعلى من الخصر، وشعر مرفوع

إلى الوراء، وشفتان حمراوان. أرادت أن تشرب. أرادت أن ترقص قبل أن ألمسها بيدي. طلبت إلي وضع أغان فرنسية. أدرت زر الراديو بحثاً عما يُرضي شبقها. قالت آمرة: «دعْ هذه الأغنية». وسحبتني من يدي وقادتني بعيداً من النافذة. وقالت لي، ويداها حول خصري: استرخِ، سأتولّى القيادة.

لم أتعوَّد النساء السعيدات. لم أتعوَّد الرقص البطيء. فأنا عندما أرقص، أطير وأخبط. أدور في حلقات؛ يرتفع رأسي مثل رأس محارب قديم. أهزّ الأرض وما تحتها. وأنا، في حضور أغنية حزينة، بطيئة، تنتابني الأفكار المحزنة، وأدع أهداب عيني الطويلة تبلغ الأرض. عندما ألِفَت شقيقتي الرقص، كانت تربط شالاً على خصرها، وتجعلني أجلس على السرير أراقبها وهي تهز خصرها حافية. أذاع الراديو في إحدى المرات أغنية تحبّها، فاقتحمت غرفتنا في المساحة القليلة المتوفرة بين السريرين، ورقصت. أدركت حينها كم أنها كبرت، وكم أنها أصبحت جميلة وجذابة. أحزنني ذلك، إلا أنني، بتشوشي وبحضورها، شعرت بانتصاب مربك. منذ ذلك اليوم، ولا أدري لماذا، أخذنا نتقاتل على كل شيء: على الحمّام، والماء، وزر الراديو. كنا نهدأ ليلاً، وتتصادم أحلامنا الجنسية على جدار غرفة النوم.

حظيت بعشيقات كثيرات في حياتي. لكن أي رجل لم يحظَ؟ وعشيقاتي جميعهن عانين. لكن أي امرأة لم تعان؟ قلت من قبل بصراحة: إنني لا أشعر بالراحة مع نساء سعيدات، أولئك اللواتي تستحوذ عليهن ما تسميه طبيبتي النفسية: «الحميمية».

وقد قالت لي جنفييف، في أحد تقويماتها النادرة لي: أنتَ تعاني مشكلة حميمية.

- حميمية. . أي حميمية؟ لا أفهمك.

ـ مثل التعبير عن الحب.

ـ كيف؟ ولمن؟

ـ مثل أن تقول أمراً لطيفاً لامرأة، أو تأتيها بالأزهار.

وهكذا، في اليوم الذي سبق اجتماعنا التالي، سرقتُ بعض الأزهار وقدَّمتها إليها.

لم تعرف كيف تردّ. شعرت بالانزعاج. وضعت الأزهار على الطاولة دون أن تنبس بكلمة.

قلت: سرقتها.

ـ سرقتَها؟

ـ سرقتُها من أجلك.

- هذا مثير للاهتمام.

قالت ذلك وهي تنبذ فعل السرقة وتغيّر الموضوع؛ وتابعت:

- أتريد اليوم أن تخبرني المزيد عن طفولتك؟ فنحن إذا لم نحرز تقدماً، ولم نتحسن، فسيكون عليَّ أن أوصي بعودتك إلى المؤسسة. وأنتَ، بصراحة، لا تعطيني المزيد من الخيار بصمتك. لديَّ مسؤولية تجاه دافعي الضرائب.

- الذين يزيحون الضرائب؟

ـ لا ، مؤدّو الضرائب، الناس الذين يؤدّون ضرائبهم. فبعضنا يفعل ذلك.

إذاً، سأخبرها قصصاً إذا كان هذا ما تريده. هذا أفضل من العودة إلى مستشفى المجانين ومشاهدة ناس يتحركون بين الأسرّة الحديدية كالرجال الآليين، يذرعون الأرض ذهاباً وإياباً، ضائعين بين حدود الأسلاك الشائكة والممرات الخاوية. يسيل لعابهم، يضحكون، يبكون، ويتبادلون قصص حياتهم مع مستمعيهم الخاصّين. سأنظر إلى أولئك الناس وأراهم يشاهدون مسارحهم الخاصة الصغيرة. فكّرت في أن بعض الأداء أصيل، تلقائي، ولذيذ. مجرّد، بل باطني بعض الشيء، لكنه يستحق إلقاء نظرة عليه. وأنا لن أمانع، صراحة، في أن أرى من جديد تلك السيدة الجميلة ذات العينين الخضراوين التي جاءت لبضعة أيام. يا الله، كم هي جميلة، حتى عندما نزعت ثيابها وركضت عارية عبر الغرفة، وهي ترشح سائلاً حتى كواحلها وعبر أصابع قدميها الرائعة، وتصرخ بأعلى صوتها: الحرية! الحرية! لحقتُ بها، ثم أضَعْتُها. وعلى غرار ناصب الأفخاخ، تقفّيتُ أثر بقع البول الصغيرة التي تجمعت أشبه بالجُزر فوق أرض المستشفى.

سألت المعالجة النفسية:

- ما الذي تودّين سماعه؟

- لنتحدث عن والدتك.

- جرّت أمي شقيقتي من شعرها عن شرفتنا، وطلبت إليها التوقف عن عرض ساقيها أمام الرجال في الشارع من تحت.

استلقى أولئك الرجال المنحطّون على السيارات المركونة، دخّنوا، وضحكوا بصوت مرتفع. استحوذ عليهم تنظيف سياراتهم وتشميعها. وشمّوا كالكلاب المتوحشة المثارة رطوبة أختي، وأشاروا إلى نهديها من وراء أغطية محركات سياراتهم المنتصبة.

كانت شقيقتي جميلة. تعوَّدت التلصص عليها من نافذة الحمام. كنت أراقبها أمام المرآة تداعب شعرها المبتلّ، تقبّل المناشف وتمشح بها وجهها. كانت تضع يديها تحت نهديها وتفتل في مكانها. تمسك بفرشاة الشعر أمام وجهها، وتغني أمام حضور كبير جاء من مختلف أنحاء العالم ليستمع إلى صوتها الحنون، متناسين صدرها المكشوف، وكتفيها العاريتين، لأنها سحرتهم، طبعاً، بحركاتها الرشيقة، وعينيها المتوقدتين، وصوتها العاطفي العميق. بلغ سحرها حداً أن ما من رجل دين همّ بالاعتراض، وما من رجل راودته بحضورها أفكار مجونية تجاهها، وما من امرأة بين الحضور أصابتها الغيرة من نهديها المكتنزين، ومن شعر عانتها الكثيف المجعَّد، وشعرها الطويل المتموّج الذي يغطي أستها، وحلمتيها اللتين بلون الفجل. ولم يبال والدي حتى بأن ابنته عارية على المسرح. المهم في نظره أن في وسعها أن تغني، وأنها محترمة، ولن تقع فريسة لرجل عسكري يفضّ بكارتها، ويقذف منيه في بطنها لنفخ رحمها، وتوريم كاحليها، وملء صدرها بالحليب.

لكن غالباً ما كان يقف واحد من هؤلاء الرجال تحت شرفتنا، مرتدياً بزته العسكرية وجزمته. يحمل مسدساً، وقد استطعت رؤيته يتطلع ناحيتنا، مبتسماً لأختي، ويضغط على

دواسة البنزين ليجعل سيارته الرياضية تهدر وتدخّن. وفي المقابل، تلعب شقيقتي بشعرها، وتهز ردفيها، وهي في طريقها إلى الدكان، وتتوقف في وسط الشارع، تستدير لتنظر صوب شرفتنا قبل أن تسير في اتجاه الدكان من جديد. تبعها الرجل صاحب السيارة الرياضية. وفي الدكان، وقف إلى جانبها وجانب ابتسامتها الخجولة، يشمّ رائحة الصابون على يديها والمرهم على شعرها، متفحصاً خط الشفرة على ساقيها المحلوقتين. سحب بعض الفكة من جيبه ودفع ثمن كيس البضائع في يدها. تردّدَتْ أولاً ورفضَتْ، لكنه أصر وهو يدعوها، «مدام». وهكذا قبلت شقيقتي ماله، فتبعها إلى المنزل، داخل بنايتنا وعلى الدرج، وهو يحدثها عن الشواطئ والسيارات السريعة. سألها عن اسمها، وقدّم إليها سيجارة. انبلج وجهها كمصابيح السيارة الأمامية، ووافقت على ملاقاته من جديد، سرّاً، تحت الدرج، فوق السطوح. وفي نهاية المطاف، عندما نفدت منها الأعذار كالنزول إلى الشارع بحثاً عن الهواء النقي، أو ملاقاة صديقتها، أو شراء السكّر، أو مطاردة القطط في منتصف الليل، فرّت مع العسكري. أخذها في إحدى الليالي وتوجه بها بالسيارة فوراً إلى الكاهن. رفض الكاهن تزويجهما، وقال إن الفتاة تحت السن. شهر الرجل مسدسه وهدد رجل الدين، وأجبره على توقيع الأوراق، وتوجه بشقيقتي إلى منزل أمه. هناك، وبعدما أنهى شرابه، فض بكارتها، وعندما طلبت مالاً لشراء الطعام ضربها.

قاطعتني المعالجة النفسية قائلة:

- بم شعرت حيال ذلك؟

- أردت أن أقتله، إلا أنني كنت صغيراً وهو يكبرني سنّاً ويفوقني قوة. في إحدى المرات، أرسلتني والدتي إلى بيت أختي ومعي بعض الطعام. عندما شاهدتني شقيقتي انهمرت الدموع على خديها: الخدين اللذين، كما لاحظتُ، أصبحا مستديرين وسمينين مثل بطنها المنفوخ بطفل. بدت ساقاها حتى كاحليها مستقيمتين كأسطوانة، وهي تمشي ببطء ويدها على ظهرها، وشرعت تغسل الصحون وهي تقدم إلي القهوة. ثم جلسنا إلى الطاولة، وحدّقَتْ إلى عيني. داعبت شعري، وبكت. سألتني عن والدي الذي لم يأت لزيارتها، وأمي الغاضبة منها، والجيران الذين يتحدثون من وراء ظهرها. تأخرت في البقاء لأغرف من دموعها وأشاهد أصابعها تطوف صوب وجهي. أغمضتُ عيني واستمعت إلى الطفل في أحشائها. كنت على وشك المغادرة عندما سمعنا سيارة جيب تتوقف في الخارج، وأبوابها تصفق مقفلة، وجزمات تصعد الدرج.

قالت شقيقتي: هذا زوجي. وسحبت يدها بعيداً عن شعري وقلّبت عينيها. هرعَتْ لتحضير المائدة، تقذف الصحون مثلما يقذف لاعب بوكر الأوراق، ترمي الشُّوَك والسكاكين مثل ساحر في سيرك، وتوقد النار مثل بدائي في مغارة، وتمسح دموع تقشير البصل من عينيها.

رحّب الرجل بي وصاح عندما رآني: «أهلاً بابن العمّ». ربَّت على كتفي، وقدّم إلي السجائر. أكلنا على الشرفة، وصب الويسكي لكلينا، ودعا أختي لتأتينا بالمزيد من الثلج، والخيار،

واللوز الطازج. وعندما أبلغته شقيقتي أنه ليس لديها ذلك كلّه، لعنها. لعن جنس النساء، والساعة التي خطفها فيها، والكاهن الذي سمح له بأن يتزوج بها.

سألت المعالجة النفسية:

- كيف كان ردّ فعلك؟

ـ لم أقل شيئاً، احتفظت بالصمت. كان علي أن أقول شيئاً، لكنني لم أفعل.

ـ لماذا؟

ـ لأن شقيقتي نظرت إلي. أنا أعرف تلك النظرة: ترجوني ألا أتلفّظ بكلمة، وعدم التدخل. أردت المغادرة، لكن الرجل أمسك بي. أقنعني بالبقاء. أراد شخصاً يشاركه في الشراب. أصرّ، بل إنه في النهاية أمرني بالبقاء. لعن الله وشتم الملائكة. سكبنا الويسكي بينما كانت شقيقتي تطبخ في المطبخ. وبعد كؤوس عدة، شهر مسدسه وشرع يطلق النار في الهواء. لم يشتك أي من الجيران، أو يمد رأسه من نافذته، أو ينزل إلى الشارع بخفّيه وبيجامته القطنية بحثاً عن جثث أو رجال يئنون. الجميع هناك تعوَّدوا سماع طلقات الرصاص. إطلاق النار في الهواء بمثابة بيان عام، احتفال بولادة، وداع للميت، ومكالمة خاصة مع الآلهة.

قال صهري: خذ. . أطلق النار على الملائكة الملعونة المارة. بدّل مخزن المسدس وسلّمني إياه. ثم قال: تمهّل، دعني أخرطشه لك.

قلت:

- يمكنني أن أخرطشه بنفسي.

- دع الفتى يفعل!، صاح بفخر، وعانقني: قريباً ستصبح خالاً. وقبّل شقيقتي على خدّها وأمسك بردفيها. أبعدت وجهها عن نَفَسه الذي يفوح بالويسكي، ورجليه غير المتزنتين، وشاربه المشوّك، وأسنانه التي لطخها النيكوتين. وتابع:

وسنعلّم هذا الطفل كيفية استخدام المسدس، أليس كذلك؟

وداعب بطن أختي.

قالت المعالجة النفسية: انتهى وقتنا.. لكنني أريد أن أسمع كل شيء عن ذلك في موعدنا المقبل. أيناسبك يوم الخميس؟.

فكّرت في عبارة المعالجة النفسية «دافعو الضرائب»، وأنا أنهي شوكولاتتي في الزقاق. في الحقيقة نعم، نعم بالفعل، يجب أن أكون ممتناً لما تقدّمه إليّ هذه الأمة. فأنا آخذ أكثر مما أعطي. هذا صحيح بالفعل. لكن لو كان لي وصول إلى بعض الثروة لساهمت في حصتي. ربما علي أن أصبح مواطناً صالحاً، وأفكّر في وسائل لتحصيل ديوني وزيادة ثروتي. سيشكّل ذلك بداية جيدة. ومن لا يزال مديناً لي بالمال غير ناقر الأوتار الصيّاح ذلك صاحب منقاد الصوص وروح الموسيقي الخالية من الريش؟ تذكّرت عندها أن سارق الأربعين دولاراً المدعو رضا، يعزف كل يوم جمعة في مطعم إيراني في الجهة الغربية من المدينة، وهو يكره ذلك. يعتقد أن العمل في مطعم هو أسوأ

أنواع العمل بالنسبة إلى موسيقي موهوب ومحترم مثله. لكن المهم، أنني أعرف الآن كيف أتعقبه.

قصدت المطعم مساء الجمعة. إنه مكان فاخر يحتوي على كل الزينة الضرورية لنقلك إلى الشرق. يحيطك بالكثبان، والمصابيح، والسجاد المصنوع يدوياً المتناسب مع الصحون البنية التي تطير من أيدي النوادل إلى الأغطية المحاكة للطاولات.

جلست إلى البار. جاء صاحب المطعم وسأل بارتياب: هل من خدمة؟

قلت إنني أنتظر الموسيقي رضا. إلا أن صاحب المطعم بقي ينظر بريبة إلى ملابسي التي تتعارض مع المحيط الفاخر. رآني رضا أخيراً، لكنه تجاهل وجودي واستمر يعزف مع الموسيقيين الإيرانيين الآخرين. ولما توقفوا للاستراحة، جاء إلي وهمس بهدوء وبانزعاج:

- لا ينبغي لك أن تأتي إلى هنا أبداً إلا إذا أردت الجلوس وتناول الطعام.

ـ ادفع ما تدين لي به، وقد أجلس وأتناول الطعام.

ـ ما أدين لك به لا يكفي لتناول الشاي هنا. وها أنت تأتي مرتدياً ثياباً كهذه.

ـ ادفع لي، وسأغادر.

ـ حسناً. سيُدفع لي في نهاية هذه الأمسية. أتود الذهاب والعودة حوالى الحادية عشرة.

ـ لا، ليس لدي مكان أذهب إليه هنا، ولن أدفع أجرة الباص مرتين، والطقس بارد جداً في الخارج.

ـ حسناً، ابقَ هنا، أو دعني أقل لك: اجلس عند طرف البار، ولا تنظر إلى النساء بهذا الشكل. الناس هنا لا يحبّذون أن يقوم متسكّع مثلك بالتحديق إلى نسائهم وبناتهم على هذا النحو. سأبعث لك بشراب. انتظر وتخفَّ قدر الإمكان.

سار رضا نحو صاحب المطعم، وأحنى بجسمه الكبير في اتجاه أذن الرجل، وفرك يديه معاً اعتذاراً، شارحاً كل شيء بابتسامة. تحدثا بالفارسية، وكلاهما يسترق النظر صوبي من وقت إلى آخر. وفي النهاية، اقترب صاحب المطعم مني ونهرني بصوت جاف:

- إذاً، ما الذي ترغب في شربه؟

- الكوكا.

هز صاحب المطعم رأسه موافقاً على أنني قمت بخيار جيّد: الخيار الرخيص والخيار المحترم. إلا أن ما أردته فعلاً هو كأس من الويسكي مع الثلج. وما أردته فعلاً، هو الجلوس في وسط البار محرّكاً كأسي بالتناغم مع الموسيقا الهادئة، وربما أردت أيضاً وجود خاتم كبير واسع في إصبعي، وصدري يلمع تحت قميص أسود لمّاع، ومفاتيح سيارتي تتدلى من أداة يمكنها أن تفتح الأبواب، وتزمّر وتدفئ مقعد السائق برغم الثلج البارد. أردت سلسلة ذهبية حول عنقي وامرأة أنيقة الملبس تضع الكحل تحت عينيها، وعملية مداعبة بالفم في وقت متأخر من المساء تبدأ في سيارة فاخرة كبيرة، وتنتهي على سجادة مستوردة عليها

رسم ذنب طاووس يفرش ظلالاً أرجوانية على مؤخرتي العربية المشعرة.

لكن، بدلاً من ذلك، مضى صاحب المطعم إلى وراء البار وجاءني بمشروبي بنفسه، وقد استدعاني بهزّة من رأسه كما لو أنه يشير إلى واحد من نُدُلِه. وتمتم: عليك بالبقاء هنا.

جلستُ على كرسي بار في الزاوية، على مقربة من المطبخ، وحرّكت الثلج في كأسي على نحو دائري بواسطة القشة البلاستيكية. دفعتني الموسيقا الهادئة في الخلفية، والإضاءة الخافتة، وتوهّج المصابيح الحمراء، وجو الزخارف الذهبية، إلى التفكير في قصة العذارى اللواتي فقدن الحياة في قصر الملك قبل أن تُلهيه شهرزاد بقصصها عن الجن وصيادي السمك. وتساءلت لو حدث أنني عشت في تلك الحقبة (مرتدياً، طبعاً، ملابس مختلفة)، فهل كنت سأتمكن من إنقاذ أي من أولئك النسوة. ربما أمكنني أن أكون الساقي، وأدس بضع قطرات من السمّ من خاتمي في خمرة الملك. ولأمكنني، وأنا أشاهده يتلوّى منازعاً من الألم في معدته، أن أطعنه بخنجر عبر ثوبه الحريري الأرجواني، أشق أحشاءه المسمومة، وأشاهد عينيه تومضان روعة وعدم تصديق، وهو يستبق الفصل التالي والأخير. أعادتني رائحة الطعام من المطبخ إلى أرض الغابات والثلج. وعندها بات كل ما أرغب فيه هو أن أزحف تحت الباب المتأرجح وأختبئ تحت الفرن، ألحسُ السَّمْن، والعصير المتقطّر من الخروف المشوي، بل حتى اللبن المجمَّد عند حافة صندوق القمامة. وفكّرت في أنني أستطيع، بأسناني المحدّدة، أن أكشط القطرات البيضاء إلى ما تحت الأرضية.

عندما انتهى رضا من العزف، جاء وجالسني. بقينا، كلينا، صامتين. انحنى صوبي وقال إنهم سيقفلون بعد نصف ساعة أخرى، وسنغادر بعدما أقبض. شاهدنا الموظفين يطوون شراشف الطاولات، ويقلبون الكراسي رأساً على عقب على الطاولات، وينظفون السجاد بالمكانس الكهربائية، ويمسحون أرض المطبخ. كل الفتافيت، كل نتف الطعام الداشرة التي قفزت في خلال الأمسية من سكاكين الطباخ ومن الأطباق المائلة... كل ذلك انساب وحطّ على الأرض: كل ما أفلت من حفافي المقالي العملاقة؛ كل ما انتقل بالجاذبية وطاردته المكانس العملاقة وخفقته المماسح الرطبة... كل ذلك تم طرده إلى فراغ البواليع بموجات دقيقة هادئة من الشحم والماء. لقد وقعت الآن بين يدي العالم السفلي، وأراني أشهق بالبكاء.

خرج صاحب المطعم من وراء البار وأخذ بصمت الكوب من يدي. فتح آلة النقد، استدعى الموسيقيين، ودفع لهم الواحد تلو الآخر. ما إن تم ذلك، حتى قاربت صاحب المطعم بتواضع، وظهري محني، ويدي تحت ذقني وقريبة من صدري. قلت: المعذرة، يا سيدي. أيمكنني أن أطلب إليك شيئاً؟

بالكاد هزّ رأسه من دون أن ينظر إلي.

ـ سيدي، أنا أبحث عن عمل.

رفع صاحب المطعم تلقائياً رأسه لدى سماعه هذا، وحدّق إلى عيني. سألني: «أتملك أي خبرة؟»، ثم أحنى رأسه من جديد صوب ماله.

ـ نعم، لدي. يمكنني العمل كواحد من النُدُل.

- لدي نُدُل. هل تتكلّم الفارسية؟ يريد بعض زبائني أن تتم خدمته بالفارسية هنا.

- لا لكن يمكنني العمل كنويدل. أنا جيّد جداً في هذا. لدي الخبرة. اسأل صديقي رضا هنا. عملت في مطعم فرنسي راق هنا في مونتريال، اسمه «لو كافار» (الصرصار بالفرنسية)، ويقع في شارع شيربروك.

انزعج رضا مني لقولي ذلك. وقف، أدار ظهره، وسار صوب الباب حاملاً علبة آلته، وقد تخفّى بين أرجل الكراسي المقلوبة على الطاولات.

قال صاحب المطعم:

- عد يوم الثلاثاء، نتحدث.

- شكراً.

وانسحبتُ سائراً في شكل خلفي، وجهي قبالة جلالته، وعمامتي تنحني على نحو متكرر، إلى أن بلغت البوابات المَلَكية، وفتحتها من وراء ظهري بالتواءة خرقاء من معصم يدي اليسرى، وقد اصطدمت أثناء ذلك بالزجاج وملصقاته من شعارات بطاقة الفيزا، ما ذكّرني بالعالم الخارجي وبقساوة البرد.

رضا في الخارج، صامت، مهموم، يدخّن بعصبية، والدخان يُقذف منه كالأسهم المستقيمة، ينقسم في خروجه بين فتحتي أنفه وشفتيه المزمومتين. وفي النهاية لم يعد في وسعه كبت كلماته

أكثر. ما إن غادر آخر دخان صدره حتى صرخ بصوت طاحن في وجهي: كيف فعلت ذلك؟ تأتي أولاً بهذا الشكل، إلى مكانهم المحترم، مرتدياً ثياباً كالمتسكعين. يكفي أن تنظر إلى حذائك. «ثمّ، ثمّ»، تعتع في الكلام من الغضب... «ثمّ تسأل الرجل عن وظيفة، وتجعلني مرجعاً تطلب إليه أن يتحقّق منه. حسناً، إذا سألني فسأضطر إلى أن أقول له كم أنك تشكِّل حالة مربكة من سارق حقير، إلى فاشل، إلى مجنون، ومختل عقلياً».

صرخت فيه:

- أعد إلي مالي.. أنت السارق الوحيد هنا. كم هي وجبات الطعام التي حصلت عليها من أولئك النسوة الكنديات بقصصك الحزينة؟

انتزع رضا قفازيه وقد عضّهما بأسنانه، ودسّ أصابعه في سرواله الضيّق وأخرج من جيبه بضعة دولارات. عدّ ماله وأعطاني ورقة من فئة العشرين دولاراً.

قلت:

- أربعون.. وأنا على استعداد للقتل من أجلها. تدين لي بأربعين... كنت جاهزاً لأن أسحب خنجري المعكوف، وأسمم له شرابه، وأتأكد من موته، وأهرب من ثم صوب الشمس على سجادة حاكتها جِمالٌ طائرة.

قال رضا:

- آه، صحيح، أربعون. اهدأ. هذا هو مالك.. سألتقي

الآن شوهره في حانة الكريسانت. أوستأتي؟ وبالمناسبة، لا ينبغي لي أن أدفع لك بعد ما فعلته بالفتاة البريئة.

- من؟ من؟

صاح:

- تعرف من.. شوهره! لقد عمدت إلى استغلالها.

رددت له الصيحة:

يا لك من خبيث! لطالما أردتَها لنفسك. حسناً، لقد فات الأوان يا موسيقيّ النحس. إنها لي الآن.

ضحك رضا قائلاً:

بل لي. ما من أحد يستملك امرأة، أيها الرجل المختل.

- أيها الموسيقي الجبان.

- سارق البرادات: أستأتي أم لا؟ سألني ومضى.

- نعم، سآتي.. لأنني متأكد من أنها تريد رؤيتي الليلة.

* * *

دخلنا الحانة. شاهدت شوهره تجلس إلى إحدى الطاولات مع رجل، رجل أكبر سنّاً ذي شارب وشعر شائب. بحث رضا في الجوار عمّن يبيعه المخدّرات. وعندما وجده، اشترى منه بعضاً من «بودرة الأطفال»، كما يسميها، ثم عاد صوبي وقال: أتريد زيحاً؟ فقط لأريك كم أنا لطيف.

- سأعتبره فائدة على مالي.

- يا لك من سافل جاحد.

وشق طريقه مترنّحاً إلى الحمام. تبعته. أخرج بطاقة اعتماده، رش البودرة على رف السيراميك الأبيض، وقطعه إلى خطوط عمودية. أخرج بطاقة جديدة من فئة الخمسة دولارات، لفها لفّاً محكماً، وأعطاني إياها. دسستُ المال في أنفي، وهجمت مثل الكركدن ونخرت زيحاً قبل أن يتمكن الفيل الذي إلى جانبي من تغيير رأيه. وبينما انتلقت إلى رأس الزيح الثاني، أحنى رضا بجسمه الكبير على كتفي، ودفعني إلى الجدار، وغطس كالانتحاري صوب الرف الأبيض اللامع. شفط ما بقي من المادة البيضاء. فتح الباب، وقرص أنفه، وشق طريقه متمايلاً من الحمام إلى حلبة الرقص.

سرتُ نحو طاولة شوهره، وأنا صاحٍ جداً، وشفتي العليا مخدَّرة، وقد شعرت بأنها قوية وممتدة كخرطوم فيل. وبمروري بالبار، التقطت بضع حبات فستق وصفّقت بيدي، وتابعت السير عبر الحشد إلى محبوبتي. إلّا أن شوهره، نهضت قبل أن أبلغ طاولتها، ولاقتني. أخذت بيدي وشرعنا في الرقص. رقصتُ بثقة، ورفعت جبيني عالياً صوب كرة المرايا البارقة التي تشع علينا بضوئها الفرح.

سألتُ شوهره:

- من الفتى؟

- صديق.

ـ يبدو أمْيَل إلى أن يكون عمًّا!

ـ لا ، إنه مجرّد صديق.

ـ آه، إنه يكتفي بالجلوس هناك، مداوماً على التفكير عبر ضجيج البوم بوم، ويدخن كأنه على وشك إلقاء الشعر.

ـ آه، يمكنه في الواقع أن يكون شاعراً.

ـ حقاً، هو شاعر إذاً.

ـ أتريد الرقص، أم طرح الأسئلة؟

ـ أنا أرقص.

ـ جيّد.

نظرت، وأنا أرقص، إلى الرجل. التقت أعيننا. أدار رأسه، ثم سحق سيجارته، ونهض، وسار صوبنا. وضع يده على كتف شوهره، وقال لها شيئاً بالفارسية. أجابت بهزة وجيزة من رأسها، ثم قبّلته على خده، وغادر.

رقص رضا وحده. إنه سعيد ونشيط، وقد ضمن جسده الضخم، كالدب، وجود فراغ من حوله. عندما ضممت شوهره إليّ ودسست يدي الاثنتين في جذعها، دفعتني بعيداً ورقصت وحدها. وأخذت تنسحب بعيداً رويداً رويداً، واختفت وسط الحشد.

سرت إلى البار وابتعتُ لنفسي شراباً. وضع أحدهم يده على كتفي، وطبع قبلة على خدي. قلت له:

فرهود، يا قاتل الرجال، عليك أن تبتاع لي كأساً أولاً.

ضحك وقال: هل شوهره هنا؟

- نعم، هناك. وأشرت إلى حلبة الرقص. توجَّه فرهود متراقصاً صوب شوهره، وقد أخذت تقفز فرحاً لمشاهدته، وارتمت بين ذراعيه.

وأنا، برغم أنني امتلأت نشاطاً، والموسيقا أصبحت أكثر حدّة، لم أرقص. بل إنني بدلاً من ذلك، مضيت وجلست إلى طاولة شوهره، على الكرسي ذاته الذي شغله الشاعر. دخّنت وراقبت النسوة يرقصن. الكثيرات منهن شابات وجميلات. بحثت في حلبة الرقص إلى أن وقعت عيناي على امرأة ترقص حافية، وحذاؤها يتأرجح في يدها. ضحكَتْ ورقصَتْ في دائرة من صديقاتها. راقبتُها ودخّنت. وبمغادرتها الحلبة، وقفتُ وتبعتُها إلى الحمام، وانتظرت عند الباب. وما إن خرجت حتى واجهتها بابتسامة، وقطعت عليها الطريق وهي تحاول أن تحشر حذاءها بين كاحلي والجدار. نظرتْ إلى الأرض. دفعتْ بكتفها اليمين على كتفي. وأنا، في حالتي المنتشية، برأسي الأشبه برأس الفيل وشفتيَّ اللتين تزدادان تخدّراً، أنزلت يدي، وفتلتها مثل ربقة الحبل المتدلي، وأمسكت بمعصميها. توقّفتْ عن الدفع ورفعت رأسها. برز وجهها من بين شعرها، لطيفاً، حذراً، وساكناً.

قلت:

أحب الطريقة التي ترقصين بها حافية. . اعذريني، لم أقصد إخافتك، لكنني رأيتك ترقصين من دون حذائك، وذكّرني ذلك بالراقصات الغجريات.

- أتعرف أي غجريات؟

ـ نعم، شقيقتي واحدة منهن.

ـ شقيقتك، لكن ليس أنت؟

ـ لا أستطيع الرقص مثلها. وبالتالي لا أعتقد أنني مؤهل لأكون واحداً.

ـ أأَنا أرقص كالغجرية؟

ـ نعم. هل تنزعين حذاءك من جديد؟

ـ سأفعل.

- أودّ لو أنني غجري مثلك، أو مثل شقيقتي.

- أنت في الحقيقة سرقتَ ذراعي كالغجر.

قالتها وهي تسحب ذراعها ببطء وتسير صوب صديقاتها. لا بد من أنها حدثتهن عني، لأنهن تطلَّعن جميعهن إليّ. شكّلن درعاً، دائرة من الشَّعر الإنساني تتأرجح على الأعقاب. بعضهن حافيات. وفي وسط دائرة العرق والأجساد التي تظهر وتختفي عبر تواتر الضوء، شاهدت الفتيات يضحكن، وشعرت بالخجل لأنني سارق أيدٍ ومحبّ للغجر.

أشحت بنظري. رأيت عيني شوهره البنيَّتين الواسعتين تراقبانني. علمت بأنها رأت كل شيء. أشاحت برأسها. ذهبتُ وجلست قربها، فتجاهلتني. وما لبثتَ أن نهضتْ على الفور وذهبَتْ إلى الحمام.

رافقتُ شوهره في وقت لاحق من تلك الليلة سيراً في عودتها إلى منزلها. تعيش عند أسفل التلة، قبالة سكة الحديد.

أبلغتني أن لديها مشاعر متناقضة حيال القطارات. وقالت إن مرور قطار في المساء أحزنها.

عندما سألتها عن السبب، أمسكت بذقني وقالت «حسناً، توجد بعض المشاعر التي تخص الشخص وحده»، ثم ركضت إلى مكان لتجميع الثلوج ورمتني بكرات الثلج. أمسكتها من معطفها وصارعتها فوق بياضه، وكلانا يتنفس بقوّة، وعينا كل منا مسمّرتان في عيني الآخر. صلبت معصميها، وقرّبت وجهي من شفتيها، لكنها أشاحت بوجهها، وقالت «دعني. دعني»، وكرّرت مراراً هذه الكلمة وهي تهزّ بعنقها في الثلج، لائذة بوجهها بعيداً عن شفتي.

زدتُ من الضغط عليها بعض الشيء، فاستدارت وهزّت جسدها كله بعنف: اتركني، يا ابن الحرام. الآن!

بقيتُ ممسكاً بها لا أتركها. وعندما حاولتُ الإمساك بوجهها براحتيّ، حرّرَتْ إحدى يديها وخرمَشَتْ وجهي. لعنتني، ورمت بالجليد في عيني. دفعتني إلى الثلج وصرخت، «يا ابن الحرام اللعين، يا ابن الحرام اللعين، عليك أن تتركني عندما أطلب إليك ذلك!»، وركضت إلى التلة نازلة واختفت، وهي تلعنني بالفارسية في الليل البارد.

صباح يوم الخميس التالي، أشرقت الشمس من جديد، وقفَزَت عن لحافي. راقبتها معلّقة في الهواء لبرهة قبل أن تسقط من جديد وتنضم إلى ظلّها. بحثت عن خفّي، وأسرعت في غسل وجهي، وتنظيف أسناني، وغطيّت نفسي بطبقات من الألبسة التحتية، وبقميص قطني، وجوربين، وسترة. غابت الصراصير

عن النظر اليوم. ربما أبعدتها الحرارة القاسية جنوباً إلى غرفة المرجل، بحثاً عن الدفء والراحة. بحثتُ عن حذائي. لم أعثر عليه. لم يبق إلا مكان واحد له للاختباء: انسللتُ تحت السرير وزحفت على الأرض، إلا أنني لم أعثر إلا على فردة واحدة. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وحشرت نفسي تحت الخزانة لأعثر على الفردة الأخرى. وضعت الفردتين على الأرض الباردة ونظّفت نفسي من الغبار الذي تجمع على كل أنحاء جسمي... حتى على صدري وأهدابي.

بقيتُ، وأنا أسير إلى موعدي في العيادة، أنفض الغبار عن ثيابي ووجهي. وقفت خارج واجهة متجر للألبسة ونظرت إلى طيفي، وأنا أبدو الآن كالشبح في مواجهة طبقات من الملابس المعروضة والمعلّقة. استدرتُ وانتقلتُ إلى أمام واجهة المحل لأرى نفسي مرتدياً أحدث التصميمات والألوان. التقطتُ آخر كرة غبار وأمسكتُها بأصابعي بمزيج من التسلية والقساوة. تركتُها تتفتّت في مواجهة هبات الريح، ثم أطلقتها وأنا أراقبها تغادر مرتبكة، متألمة، وضائعة في الهواء الصافر الذي بدا كالقطارات المحزنة، وصفارات إنذار الحرب المولولة لظهور طائرات مقاتلة تهبط وتتقلَّب في الجو، وتحطّ وتجمد على الأرض أشبه بحشرات ذات أجنحة معدنية، مثل ألعاب طفل في حوض الحمام تعود لتطفو عبر أيدٍ خفيّة لبطل غير منظور، أو مرمية ومخبأة تحت خزانة الملابس الخشبية إلى أن يتم نسيانها، وتجتاحها كرات الغبار، وقد تم التخلي عنها بعد الدعوة إلى تناول الطعام، أو تحت تأثير تهديدات والدة عملاقة.

ابتهجَتِ المعالجة النفسية عندما أخبرتها أنني سعيت إلى وظيفة في مطعم يوم الثلاثاء. شبكت يديها على صدرها، وعيناها جاحظتان كوالدة تشاهد طفلها على المسرح في مسرحية لروضة الأطفال... طفل يرتدي ثياب نحلة ويطنّ حول إحدى الزهرات، مع وجه طفل آخر ينشد أغاني الربيع.

قالت وهي تبتسم:

- أخبرني المزيد.. هذا خبر رائع حقاً. خطوة مهمة منك لمعاودة الاندماج في المجتمع.

ـ في الحقيقة ما من شيء نهائي بعد، لكنني أشعر بأنني سأحب العمل في ذلك المكان. أعلم، في البداية، أن هناك طعاماً أتناوله. وستكون الإكرامية من تحت الطاولة أمراً جيّداً... يشكّل إضافة إلى حوالة الإعانة الخاصة بي.

- عليكَ أن تُعلمني إذا حصلت على الوظيفة.. سوف يشكّل ذلك مرحلة جيدة في عملية تقويمك. والآن، أين كنّا في جلستنا الأخيرة؟ نعم، دوّنتُ، هنا، بعض الملاحظات بعد مغادرتك. شقيقتك... كنت تخبرني عن شقيقتك وزوجها، على ما أعتقد.

ـ حسناً، لا يمكنني في الحقيقة أن أتذكر أين توقّفتُ بالضبط. أيمكنك أن تقرئي لي الأسطر القليلة الأخيرة؟

ـ نعم.. لقد شعرتَ أنك لست قادراً أن تدافع عن شقيقتك في مواجهة عدوان زوجها. ما اسمه، في المناسبة؟

ـ طوني.

- طوني.. حسناً، طوني.

- ألن تدوّنيه قبل أن تنسي؟

ـ لا، لا بأس. لاحقاً. إذاً، أَطلعني على المزيد.

ـ حسنا، دكتورة...

ـ جنفييف. نادني جنفييف.

ـ نعم، جنفييف. أشعر كما لو أنني لا أعرفك، وها أنت تسألين عن كل أشيائي. لكن من أنتِ؟ أعني أنك تصمتين معظم الوقت. تذكّرينني بالكهنة في كرسيّ الاعتراف. يهزّون برؤوسهم طوال الوقت، ثم يطلبون إلينا أن نركع ونتمتم بعض الصلوات لإحدى العذارى، وواحدة لرجل ذي لحية. تعرفين؟

ـ هل ضربك الكهنة؟

ـ حسناً، بالتأكيد... أحياناً.

ـ هل فعلوا أموراً أخرى؟

ـ مثل ماذا؟

ـ هل طلب أحدهم أمراً منك مثلاً، أو حاول ملامستك؟

ـ لا، على ما أذكر.

ـ حسناً، إذاً شقيقتك؟

ـ آه، ذهبت والدتي إلى المستشفى من أجل ولادة طفل شقيقتي، وهي المرة الأولى التي تتلاقى فيها أمي وطوني.

- نعم، طوني.

وهذه المرة دوَّنت المعالجة الاسم. قلت:

- طوني. كان في الغرفة عندما دخلت أمي، وكان يدخّن على مقربة من النافذة. وأول ما تفوَّهت به، هو أن يخرج ويدخّن في الخارج.

خبأ سيجارته وراء ظهره، ومد ذراعه لوالدتي، ولما تجاهلته ابتسم لي ليُظهر لها مدى علاقته الجيدة بي، ثم غادر الغرفة ودخّن في الرواق مع بقية الآباء.

ـ أكان والدك موجوداً؟

ـ لا.

ـ ألم يأت؟

ـ لا.

ـ حسناً، تابع.

ـ في الحقيقة، أنجبت شقيقتي بنتاً. أراد طوني صبيّاً ليُطلق النار معه. أسمتها أختي منى.

ـ ما العمل الذي يقوم به طوني؟

ـ لست متأكداً في الحقيقة. انضمَّ في فترة ما إلى الميليشيا، وكان، من حين إلى آخر، يختفي لبضعة أيام، ثم يعود. في البداية، بعد أن جنى المال، اعتقدتُ أن مردّ ذلك مسؤوليته عن شكل من أشكال الابتزاز. يخشاه الناس لأنه متحالف مع أصحاب السلطة. لطالما امتلك الأسلحة.

ـ ما شعور شقيقتك حيال ذلك: أسلحة بوجود طفلة في المنزل؟

ـ بوجود طفلة في المنزل؟ الطفلة لا تفقه شيئاً في السلاح. ولماذا ستهتم الطفلة؟

ـ نعم، لكن...

ـ ربما أرادت شقيقتي مقاتلاً. ربما أرادت أن تأتي بمقاتل إلى هذا العالم.

ـ نيتشه!

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. تابع أرجوك.

ـ نعم، الأمور مختلفة هناك. بعض الناس يحملون الأسلحة معهم طوال الوقت.

ـ هل حملت سلاحاً؟

ـ نعم، فعلتُ ذلك في وقت لاحق. وأقول لك، لو أنني امتلكت مسدساً هنا لما فتشتُ عن حبل وغصن.

ـ لماذا لم تحصل على واحد؟

قلت رافعاً صوتي:

- لا أعرف من أين أحصل على مسدس في هذه البلاد. ولا أملك أي مال!

صمتت المعالجة النفسية، وأنا اعتكفت عن الكلام. حدَّقت إلى عينيها، فبادلتني النظرة. . . لكن أياً منا لم يتحرّك.

تراجعتْ في النهاية وقالت: يجب أن تحصل على عمل. وعندها يسعك أن تشتري واحداً.

نهضتُ، فتحتُ الباب، وغادرت. لم تتبعني المعالجة النفسية. لم تطلب إلي العودة. فكّرتُ في أن هذه المرأة تعيش في بلاد الماوماو!!

نزلتُ الدرج، وانتظرت عند مدخل العيادة، وزرعت الأرض جيئة وذهاباً، وأنا أنتظر. دخّنت وراقبت الوافدين الجدد إلى هذه الأرض وهم يجرّون ذواتهم المجلَّدة إلى مصعد عيادة هذا الحي الفقير، حيث سينتظرون بالصف، يفتحون أفواههم، يمدّون ألسنتهم، ينفخون رئاتهم تحت سمّاعة الطبيب، يهمسون باسم أعمامهم ذوي الصدور المصابة بالسلّ، يقذفون سيقانهم مثل فتيات الرقص بالريش، يقولون «آآآه» بلكنة، ويكشفون عن بياضهم الذابل، وأعينهم المصابة بالمالاريا، ويطاردون أنوفهم النازلة، وزوجاتهم، ودجاجاتهم الخيالية... تحقَّقت من ساعتي. إنها حوالى الرابعة وأربعين دقيقة. وعند الخامسة، شرع بضعة موظفين في مغادرة العيادة. تخيّلتُ أشباح مآزرهم البيضاء معلّقة من ياقاتها خلف أبواب مكاتبهم. ركّزت نفسي في زاوية قريبة من المصعد، وانتظرتُ المعالجة النفسية. . . جنفييف.

لم أعرفها في البداية عندما مَرَّت. فقد غطّت نفسها بمعطف داكن. ثم تعرّفت إلى كاحليها وحذائها. تبعتها. سارت من كوت

دي نيغر صوب أوترومون. زحفتُ وراءها ونبتت لي ست أرجل أشبه بالأضلاع الخارجية، وجعلني الهيكل السميك الجديد أنسى المياه المتطايرة من السيارات المارة. لم يعد في وسع أي من عناصر الطبيعة أن يوقفني الآن.

كان زحفاً طويلاً. لاحظت أن جنفييف لم تشعر بالبرد. فكّرت وأنا أزحف وراء أصابع قدميها، في أن بعض الكائنات لا تدرك الريح الحارة والباردة. لم تتوقف لشراء العشاء، أو حتى الخبز أو الزبدة. تعيش في حي غني مع واجهات محالّ تعرض ثياباً غالية الثمن، ومطاعم تتردد فيها أصداء الأدوات المطبخية الثمينة. . . أدوات تشق طريقها بسرعة في الكبد أو الأضلاع، وتنساب بشهوانية على سطح الزبدة الصفراء بلون قمر أيلول، وحقل بارد من الحشيش اليابس، ولون الزجاج الملوَّن لمعبد، والمصابيح النحاسية والمذابح، وجِرار البيرة الرطبة والملأى تحت المقابض الخشبية التي أصابتني بعطش أشبه بعطش يدي الجلاد إلى أبواب الأقبية، والترجُّح نحو الأسفل للمراكب الغارقة، وعقد البحارة، والحبال الممتدة حول الرقاب التي تبتلع، وتأكل بنهم وتُرغي وتُزبد، وأصوات نداءات الوجبة الأخيرة، الحساب الأخير، الرشفة الأخيرة قبل عودة الشمس.

رأيت أين تعيش جنفييف، ثم زحفت عائداً إلى المنزل.

* * *

أفقتُ في اليوم التالي، الجمعة، باكراً. عدتُ إلى مكان جنفييف وشاهدتها تغادر منزلها إلى العمل. ثم انسللتُ من باب

مرأب البناية، ومضيت إلى الطابق السفلي، وزحفت على طول الأنابيب. قفزت من بالوعة المطبخ، أصلحت شعري وثيابي ونفسي، وسرت مباشرة إلى غرفة النوم. توجد على طاولة السرير حبوب تُعطَى بوصفة، وبعض الكتب والمجلات. وعُلّقت فوق السرير رسمة لسيدة عارية في وضعية حميمة، لكن غير كاشفة. لديها سرير كبير غير مرتّب. زحفت صاعداً إليه وشممتُ وسادتها واستحممت بعطر شراشفها. وجدتُ بقعة لا تزال دافئة. قستها، مخمّناً أن حجم صدرها أعطاها ذلك الشكل المتقوّس (أنا مولع بالصدور تلك، المقوّسة التي تمتد مثل أودية لا نهاية لها بين تلال خضراء ناعمة). غطيتُ نفسي بالملاءة، تنشّقت، وانتحبت بعض الشيء تحت غيوم من القطن والسماء الزرقاء. ثم رتّبتُ سرير جنفييف واستلقيتُ على ظهري ونظرت حول الغرفة. أردتُ أن أشاهد ما رأته قبل أن تنزع نظارتها، وقبل أن تقفل عينيها على النهار. وفكّرت، ماذا لو بقيتُ هنا، في سريرها؟ ماذا لو جاءت إلى المنزل ورأت هذا الغريب المراعي للغير الذي يرتب سريرها ويحتفظ لها بالجانب الآخر منه لتدس فيه أصابعها، وهي تسألني إذا كنت غافياً، وإذا كان نهاري جيداً، طابعة قبلة على جبيني، آملة أن أستيقظ وآخذها بين ذراعي، وأستمع إلى قصتها عن الرجل الذي أُمسك به، في المتنزَّه، مع حبل على شجرة باحثاً عن غصن متين في يوم بارد، يوم مشمس، وكيف أنه أفضى إليها بأنه تناول أفضل كوب من القهوة ذلك الصباح، وأصر على أنه يريد الهرب من الشمس. ولماذا الشمس، ما العلّة في الشمس يا Mon amour؟ أيمكنك أن تقول

لي قبل أن تنام؟ هل يمكنك أن تتجاهل الرغبة في مداعبة بين فخذيَّ، أيمكنك، لو سمحت، أن تستمع إليَّ بعد نهاري الطويل في المكتب أهز فيه رأسي لزوجات تعرّضن للرضوض، ولمهاجرين فقراء، ومراهقين مكتئبين. أحتاج إليك إلى أن تستمع إليّ...

نهض الغريب وسار إلى المطبخ، فتح الثلاجة؛ إنها ملأى بالطعام: جبنة فرنسية، جامبون، وبيض. صنع لنفسه بعض الخبز المحمَّص ووضع عليه بعض الجمبون وشرائح الطماطم، وأسقط فوقه بعض شرائح الجبنة، وزيّن ذلك كلّه بالخس، وانتقل إلى غرفة الجلوس وبيده صحن كبير. تفحّص، وهو يأكل، التذكارات، والدمى، والأواني الفخارية، وكتب السفر، وكتب منضدة القهوة. قلّب صفحات كتاب صُوَر، كبير وثقيل، ثم التقط كتاباً عن ويجي وصوره التي التقطها في الأربعينيات والخمسينيات. أكل شطيرة الجامبون وتفحّص أميركيين يرقصون «التشا تشا»، وفقراء يعملون، وأطفالاً ذوي أكتاف متقوسة يبتسمون تحت فوارات من أنابيب النار، وأناساً مطعونين، أطلقت عليهم النار في وجوههم، ورجالاً ممددين وهم ينزفون، ورجلاً ميتاً ممدداً تحت الحذاء اللامع لأحد مفتشي الشرطة، وفضوليين ذوي قبعات تجمَّعوا لمشاهدة الميت، والكثيرين من الرجال بقبعات مستديرة، متفرجين، حتى أن بعضهم يبتسم للكاميرا. قلّب الصفحات المرة تلو المرة، متطلّعاً إلى رجال أنيقي الملبس ممددين وقد أُطلقت عليهم النار، وأيديهم مفتوحة، كما لو أنهم لا يزالون يتنفسون بهدوء من خلال وجوههم التي غطّتها الدماء. ضحك الغريب من كلام ذيِّلت به

إحدى الصور جاء فيه: «ها هو متروك في مجرى الماء». وجاء في كلام آخر: «ميت لدى وصوله». إلا أن أكثر ما أثار استغرابه كلام يقول: «جريمة قتلهم الأولى؟». أظهرت الصورة حشداً من الأطفال والبالغين، وصورة مقرّبة لوجوههم. فكّر في أن المصوّر كان حتماً قريباً جداً من الحشد... بل إن بعض الأولاد كانوا يضحكون ويلعبون ويمدون رؤوسهم صوب العدسة، وفي الخلفية امرأة تبكي، محاطة بحشد من الأولاد.

أنهى الغريب شطيرته. التقط كل فُتاتة ووضعها في الصحن، وأقفل الكتاب. فكّر في عمليات القتل، وكيف أن كل الأمم مبنية على صورة الحروب. ثم لاحظ خفّين، وسط غرفة الطعام، ينتظران بإخلاص أصابع جنفييف لتعود وتتلوّى داخل بطنيهما، فتنصهر معهما وتنساب فوق الأرضية الخشبية في تعاقب وتوقّف رقصات فالس العذارى والأمراء، بمرافقة فرقة رباعية الأوتار (وصوانٍ تحمل شطائر الجامبون، والطماطم، وبعض شرائح الجبنة الرقيقة، مزيّنة بالخس) وثريات كبيرة مبهرجة، وطاولات رائعة، والرخام والروعة، يا عزيزتي، والفساتين البيضاء الراقصة تستدير صوب الرجال المنحنين، ضباط المستقبل، الذين سيحملون السلاح ويرقصون، ويرقصون مثلي... وتتابع الرواية أن الصرصار، بعدما رقص، استلقى على الأرض. أغمض عينيه. وأسند رأسه إلى الخفين وادّعى الموت (من دون قبعة)، مبتسماً، ومستنشقاً من ثم الرائحة الخفيفة لقدمي جنفييف، دارياً بانتصابه، مكتفياً ببطنه الممتلىء، متحسّساً السجادة الناعمة. داعب بأرجله المتعدِّدة الأرض تحته وغفا.

عندما أفاق، نهض والتقط صورة لجنفييف يوم كانت أصغر سنّاً، تُعانق شاباً وسيماً شعره أشقر وأسنانه سليمة، وكلاهما يبتسم للدخيل في غرفة الجلوس. لا يبدوان مكترثين لوجوده، ورأساهما يميلان أحدهما باتجاه الآخر. وفي الخلفية شاطئ أزرق يشعّ بمجموعات من أشعة الشمس، الأمر الذي يفسّر الحاجة إلى النظارات الشمسية التي تتوج جبين العاشقين. الدخيل، الذي اعتبر نفسه في بيته، أدار التلفاز، وضع رجليه على الطاولة، وشاهد اعترافات السيدات العازبات، والرجال الفاسدين، ومضيف البرنامج الكلامي الذي يناقش العلاقات، والجنس، والخيانات. كانت سيدة ضخمة الجثة تشير بإصبعها إلى خليلها السابق، قائلة: «لقد ضاجع صديقتي، ووالدتي، وشقيقتي». وقبل أن تبدأ الكراسي بالطيران على المسرح، وقبل أن يصيح الجمهور طالباً الدم، وقبل عمليات شد الشعر والفوضى، قرر الغريب في المنزل أن يرتدي الخفين ويغسل الصحون، ويعيد لف الجامبون، وتغطية الجبنة، ويُرجع الخس إلى الثلاجة. فتح الثلاجة من جديد، شرب بعض العصير، وأطفأ التلفاز. ترك إصبع الحمرة الذي سرقه، مفتوحاً وأحمر، على طاولة الطعام. أخذ الخفين، وغادر نزولاً عبر المصرف، وقد ضم غنيمته إلى صدره، متأكداً من عدم تبلل جائزته، ومحاذراً ألا يمسها عفن الأنابيب الراشحة.

* * *

صباح يوم الثلاثاء، وهو يوم مقابلتي في المطعم، أيقظني

من النوم صوت الصنبور الذي يقطر، وقد استمر بنغمته الرتيبة، المعذّبة، إلى أن أجبرني على أن أجرّ قدمي إلى المطبخ، وأضع قبضتي على عنق الصنبور وألويه إلى صمت دائم، هو صمت البحيرة في الصباح. وبروحية القساوة ذاتها، تناولت خفّي وطرقت الجدار فوق الصنبور مرات عدة، مسوّياً بالأرض بضعة ممن أفاقوا باكراً.

قررت أن أدخن سيجارة قبل الذهاب، بحسب الوعد، للقاء صاحب المطعم، وأن أستحمّ أيضاً، وأسير كل الطريق إلى اجتماعي. وفي الحمام، لمسَتْ إصبع رجلي الكبيرة المصرف، وشعرت بسيل الماء يجري عبرها. أحسستُ أيضاً بالارتجاج، بصوت الصرف يعبّ مثل حنجرة مرتوية في يوم صيفيّ حار. خرجت، وجفّفت بشرتي بالمنشفة. سرت عارياً حول غرفة الحمام، ناظرا إلى المرآة خلف الباب. سرّحت شعري. تمكّنت تحت زاوية ضوء منحرفة ما، من رؤية الندبة على وجهي. سألتني شوهره مرة عنها، ولمستها بإبهامها كما لو أنها تحاول محوها. قلت لها إنني وقعت.

فقالت إنه شق جرح.

أجبتها: وقعت على جسم حاد.

أرخت يدها عن وجهي وقالت: إذاً لا تريد أن تتحدث عن الأمر.

سألني الكثيرون من الناس في حياتي عنها، لكن ما من أحد

لمسها من قبل، ربما لأنها تبدو هشّة كما لو أنها على وشك أن تنفلق مفتوحة وترش ينبوعاً من الدم.

بحث عن جوربيّ. اللعنة عليهما! لا يزالان رطبين، أضعهما في العادة تحت أغطية السرير، وأنام عليهما لأجففهما، لكنني في الليلة الماضية نسيت ذلك ورميتهما على الأرض. ربما اعتقدت أن القليل من الهواء النقي سيعود عليهما بالفائدة. أخذت أنقب في ثيابي المتسخة، وجدت زوجاً جافاً أكثر قدماً: متسخاً، لكنه جاف. ارتديته، مذكّراً نفسي، مهما يكن الأمر، بألا أخلع حذائي في حضرة امرأة أو مالك المطعم. فابن الحرام المالك ذاك يشم الفقر، ويعلم تماماً التهديد الذي قد يشكله حضور البؤس على أعماله. يكره الأغنياء الفقراء، ويمقتون بصفة خاصة أولئك الذين تطفو رائحتهم مثل غيمة لتطغى على رائحة السجائر والأطباق الساخنة، أو لتطغى على الأريج العابر لعطر ثمين. فلا ينبغي أن ينبثق من الخادم أي شيء محسوس، أو أي أمر طبيعي. على الخادم أن يكون ظاهراً من دون تبيّن، وفعالاً من دون أن يُلاحَظ، مغذّياً لكن يفتقر إلى التغذية. ويجب على الخادم أن يُشاهَد دوماً بالأسود والأبيض.

سرت عبر سانت لورانت، وقاربت مقهى أرتيستا. داخله غيوم ضبابية بفعل الدخان واللهاث الحار، وزجاج الواجهة يقطر ماءً. دفعت بوجهي على مقربة من الزجاج (بحيث، لمرة، أرى الآخرين وليس شبحَ طيفي)، وحركتُ عينيَّ يمنة ويسرة باحثاً لأرى إذا وصل أحد المهاجرين الضائعين. لم يأت بعدُ أيّ ممن أعرفهم، لذا تابعت طريقي.

أخذ أحد التجار يرشّ الملح على الرصيف أشبه بمُزارع الحقول. انتظرتْ سيارات الأجرة عند الزوايا ومحركاتها تشتعل في مكانها تطلق الدخان مثل المواقد السفلية. رفع محل للفلافل عند الزاوية لافتةً مع يدين من النيون وشاربين متأرجحين، واليدان تفرمان اللحم بسرعة الضوء. وعلّق متجر برتغالي للملابس المستعمَلة في الواجهة فساتين للمتدينات... فساتين معلّقة وراء الزجاج أشبه بساحرات القرون الوسطى المدانات. وأبعد قليلاً، أخذ الشارع، وقد رقّاه الآن شريط من المطاعم الإيطالية الفخمة، يستعد لأطباق الظُّهر الخاصة.

أحب العبور أمام متاجر فخمة ومطاعم، وأراقب الناس من وراء الزجاج السميك، يأخذون أنفسهم على محمل الجد، يضعون شُوَكهم في أفواههم في ما بين المحادثات وهزات الرأس الوجيزة. وأحب أيضاً مراقبة النادلات الشابات بفساتينهن السوداء القصيرة ومآزرهن البيضاء. لكنني لم أعد أتوقف وأحدّق. المرة الأخيرة التي قمت بها بذلك، كانت في الصيف، وقد استندت إلى سيارة متوقفة، مراقباً زوجين يأكلان ببطء، وما من أحد منهما ينظر إلى الآخر. جاء من الداخل رجل بالأسود وطلب إلي الرحيل. وعندما قلت له إنها بلاد حرّة، ومساحة عامة، طلب إلي الرحيل فوراً والابتعاد عن السيارة الرياضية التي أستند إليها. ابتعدت عن السيارة، لكنني رفضت المغادرة. ولمَّا تمضِ دقيقتان على ذلك، حتى جاءت سيارة شرطة وخرجت منها ضابطتان، وطلبتا أوراقي. ولما اعترضت وسألتهما عن السبب، قالتا إن من غير القانوني التحديق إلى

الناس داخل أماكن تجارية. قلت «حسناً، فأنا أحدّق إلى طيفي في الزجاج». بدا ذلك كله مصدر تسلية للزوجين في المطعم. وبينما أمسكت إحدى الشرطيتين بأوراقي، وعادت إلى السيّارة للتدقيق في ماضيَّ، راقبتُ الزوجين يحدقان إليّ كما لو أن أمراً مثيراً يحدث أخيراً في حياتهما. تطلعا كما لو من خلف شاشة، كما لو أنه بثّ حي للأخبار. ها إنني أصبحت الآن جزءاً من عشائهما التلفزيوني. ها أنا أدور في المايكروويف، وقد نُزع عني غلافي البلاستيكي، وتم تناولي، ولفظي في صباح اليوم التالي تماماً في الوقت الذي أخذت فيه القهوة المصفَّاة تغلي في المطبخ، والراديو يتنبأ بحالة الطقس، يخبرهما بما يرتديان، وما يشتريان، وما يقولان، ومن يشاهدان، ومن يحبان أو يكرهان. استمتع الزوجان بمشاهدتي كما لو أنني أحد العروض الواقعية حول قيام الشرطة بمطاردة أناس يعانون أعراض الشهوة للطعام.

فكّرت في أن أُظهر لهذين الزوجين السعيدين ما أنا قادر عليه. عادت إحدى الشرطيات من السيارة، وردّت إلي أوراقي، وقالت «خير لك أن تذهب الآن لتجنُّب المشكلات». وهكذا شرعتُ في السير. وعندما مررت بالرجل خارج مطعمه، بصقت على الأرض من تحته ولعنتُ بزته الإيطالية، ثم عبرت الشارع. دخلت متجراً لبيع المجلات، قلّبت بعض الصفحات، وخرجت من جديد. راقبت الزوجين أنفسهما من وراء زجاج مدخل أحد مباني المكاتب. ها إن لديهما، فجأة، ما يتحدثان به، هكذا شرعا في تبادل الكلام. كنت مشغولاً في مراقبتهما، عندما

لمحتُ صاحب المطعم يأتي إلى طاولتهما ويتحدث إليهما أيضاً. لقد تم حقن الإثارة في حياتهما الدنيوية. بل أراهن على أن المطعم اعتذر وقدّم إليهما كأسين مجاناً على حسابي. قذارة بورجوازية! فكّرت: أريد حصتي!

خرج الرجل أخيراً. زرّر سترته، دس يده في جيبه، وأخرج مفاتيحه، صوّب آلة الكترونية صغيرة على سيارة «بي.أم.في.» زرقاء. استجابت السيارة، فتحت أقفالها، أومضت أنوارها، وقالت، أنا بكلّيتي في خدمتك، يا سيدي، وكل الأبواب مفتوحة لك. أشعل الرجل سيجارة في الخارج وهو ينتظر أن تخرج امرأته بأنفها الذي رشّته للتو بالبودرة. زحفتُ بأرجلي المتعددة مسرعاً إلى حافة الزفت، وبطني تماماً فوق الأرض. تسلّقت إطار السيارة، انسللتُ عبر الباب الخلفي، وانتظرتُ على الأرضية. فتح الرجل الباب لشريكته ودسّ معطفها الفرو إلى الداخل. أمكنني، من تحت، رؤيتها تسوّي شعرها في المرآة. وضع كلاهما حزام الأمان. دوّى محرِّك السيارة، ولم ينبس أي منهما بكلمة لفترة. وببلوغنا الطريق السريع، قالت المرأة شيئاً عن المكان، ثم شيئاً عن الطعام. سألت الرجل هل يتذكّر اسم صاحب المطعم. قال الرجل: ألفونسو. . أعتقد أن بطاقته معي هنا. مرَّرها إليها، رمقتْها ورمتها على لوحة أجهزة القياس، ولم يسحبها أي منهما. ثم حل الصمت من جديد. وفي النهاية، قالت المرأة شيئاً عن المكان الإيطالي الآخر، المكان الذي قصداه في المرة الأخيرة، مع هيلين وجو: المكان أكثر هدوءاً

هناك. فشارع سانت لورانت أخذ يصبح كثير الضجيج، ويضم جميع أنواع الناس.

عرفت ما عنته الساقطة بالكثير الضجيج، وجميع أنواع الناس.

لا بد من أن الرجل هز رأسه، أو لم يجب.

إنه السائق.

وهي التي يتم سَوْقها.

وأنا الحشرة تحتهما.

توقّفت السيارة أخيراً. تناول الرجل آلة إلكترونية. كبسها وفتح باب المرأب. انتظرت حتى خرجا، وحتى أطلقت السيارة الإشارة القصيرة، وأومضت أنوارها، وتجشّأت من جديد. ثم جررتُ نفسي على أرض المرأب، متفادياً بقع الزيت من السيارة، وداورتُ بين مضارب الغولف، وانسللتُ من جديد تحت الباب وإلى سجادة المنزل. وعندما مر الزوجان بي، تجمّدتُ في إحدى الزوايا، مراقباً أقدامهما الجيدة الوطء.

وازنت المرأة نفسها على قدم واحدة، وسحبت أحد جوربيها، فكشفت ساقها عن لون أبيض شديد، ونعومة. أخذ الرجل يفتل مكعبات الثلج في كأس من الويسكي. جلس على الأريكة. حلَّ ربطة عنقه، وأخذ يقلّب في قنوات التلفاز. وهي صعدت الدرج، ثم نزلته. وها هي الآن ترتدي قميص نوم، مصنوعاً من مادَّة شفافة. تمتلك فخذين ممتلئتين... فخذَيْن لم

أُلقِ عليهما، في المطعم، سوى لمحة من فوق الركبة. كنت في ذلك الوقت أكثر انصرافاً إلى مشهد صحون الطعام الكبيرة. سألت المرأةُ الرجلَ إن كان سيأتي إلى السرير، فتم إسكات مذيع الأخبار قبل أن تتسنى له الفرصة لإكمال كلمة «مجاعة». ثم صعد كل منهما إلى فوق وأحدثا ضجيجاً. فتحا صنبورين نحاسيَّين، وخربشا بفرشاتَي أسنانهما على لثتيهما. وهرعت الغرغرة واللعاب عبر الأنابيب لينضمّا إلى دفقات المرحاض. جلست، تحت، على الأريكة وأنهيت ما بقي من كأس الرجل. ثم صعدت الدرج، وزحفت إلى أعلى جدار غرفة النوم، وشاهدتهما، من فوق، نائمين، كل في جانبه. كان السرير كبيراً ومرتفعاً عن الأرض، بالتوازن مع خزانتين صغيرتين ممتلئتين بزجاجات الدواء، والكتب ذات الأغلفة السميكة، وأقراط الأذن، والمناديل الورقية. فخذا المرأة مكشوفان الآن، وهو ما أثار فيّ رغبة لا تُقاوَم في الطيران نزولاً، والهبوط على شراشف السرير وبسط ذراعيَّ مثل هوائيين، واستخراج الرحيق اللذيذ من بين فخذيها الطويلين. استمتعت في هذه الهوامات، بينما أخذ الرجل المرمي جنبها على السرير، يشخر بلطف وهو يدير لها ظهره.

مضيتُ ووقفت عند باب غرفة النوم. راقبتُهما يحلمان بسيارت الدفع الرباعي، والبيوت الصغيرة في الريف، وصفقات الأعمال، ومقارنة الأثواب والسيجار في حفلات الكوكتيل الرفيعة المستوى. وضعتُ نفسي في داخل الأحلام، وسمحت لنفسي ببعض من كوكتيل الروبيان، والتقطتُ بعض المقبّلات من

صواني النادلات اللواتي يسرن على غير هدى. طلبت كأساً أخرى من الويسكي، وحرّكت مكعبات الثلج في داخله بعكس عقارب الساعة لمعاكسة فساد الغرفة، ثم لحقت بالرجل صاحب السيارة الباهظة الثمن إلى دورة المياه في الحفلة. تجاوزته وهو ينحني ليغسل وجهه، وزرّبت في المبولة المثبتة بالجدار، وهززت عضوي وتأكدت من نزول آخر قطرة فيه قبل أن أعيده إلى داخل سروالي. عدت صوب البهو ورفعت سحّابي من دون أن أغسل يدي، وأسدلت الستارة على المشهد الدرامي.

سرقت من منزل الزوجين، محبس الزوج الذهبي، وسجائره، وإناءً رومانياً، وربطة عنقه، وحذاءه (أخذت وقتي لأنتقي بعناية الثياب التي تتناسب مع بشرتي الداكنة). وما إن أنهيت التحقق من نفسي في المرآة، حتى انسللت من تحت باب المرأب. وزحفت، ملتصقاً بالجدار، وقد أصبحت الآن أجنحتي الفضولية موازية لنافذة غرفة الجلوس في المنزل. ثم عبرت الضواحي المريعة. وشققت طريقي، على امتداد الطرق المعبدة الجميلة، عبر بعض منازل أطباء الأسنان، والحدائق العشبية لمبرمجي الحواسيب، والمراكب الشراعية للمديرين المغطاة بالبلاستيك وبأوراق القيقب. وأنا في غضون ذلك كله أخشى أن تتمكن مضارب الغولف من الهرب فتتمايل أزواجاً وتطاردني للحصول على زيادة. إلا أن ما خشيته أكثر ما يكون، هو نباح الكلاب التي تشم يديّ غير المغسولتين.

ما إن سرت مبتعداً عن الضاحية، حتى تصاعد نباح أشبه بخاتمة حفل غناء في مدرسة ثانوية. قلت وأنا أكزّ أسناني:

سأُريكِ أيتها الكلاب القذرة!. أنزلت سحاب سروالي، وزحفت على يدي ورجلي مثل الظربان الأميركي، مترنحاً من صوب إلى صوب، ومبوّلاً على إطارات السيارات، وراشاً بوفرة كل أنبوب نار لإرباك تلك السلالات المحظية، والتسبب في وباء الإمساك الكلبي. «فلتسقط الرتابة وروتينات الحياة!»، ضحكت، وأنا أعرف تمام المعرفة أن طبيب أسنان ما سينتظر قريباً أن تقضي حزمة حبه المدهوشة الصغيرة حاجتها. ضحكت وفكّرت: سيتأخّر طبيب أسنان ما على صواني الحقن المخدّرة، وبعيداً عن متناول الأضواء التي تُعمي الأبصار وتحوم فوق الأفواه مثل كائنات فضائية تدقّق في تأثير الألم في بشريين عالقين في كراسي تعمل بضغط الهواء. وابتهجت، وعويت (مسبباً مزيداً من الارتباك) للتفكير في بائع عالق في حركة سير بطيئة كالسلحفاة، وقد تأخر على عمله، يقلّب صفحات الكاتالوجات، ويتمرّن على الاعتذارات، مغمغاً بشيء عن لعنة الكلاب.

* * *

بوصولي إلى المطعم الإيراني، نقرتُ بتواضع على الزجاج. سارت فتاة مراهقة إلى الباب وقالت من وراء الزجاج: إنه مقفل. نفتح فقط للعشاء.

أبلغتها أن لدي موعداً مع صاحب المطعم. فتحت الباب وأدخلتني، قائلة إنه سيعود بعد ١٥ دقيقة.

سألتُها: أيمكنني انتظاره عند البار؟

سارت الفتاة إلى المطبخ وأبلغت الطباخ بحضوري. استرق الرجل النظر إليّ من فتحة مربعة، هزّ لها برأسه، ثم تجاهلني وعاد إلى ناره.

سألتُها: هل أنت ابنة صاحب المطعم؟

- نعم، كيف عرفت؟

قالتها وابتسمت لي.

ـ أنا أعرف الأمور ليس إلّا.

ـ وماذا تعرف غير ذلك؟

ـ أنك تفضّلين أن تكوني في مكان آخر اليوم.

ـ إيه، أين مثلاً؟

ـ في السرير، أو تتسكعين.

أطلقت ضحكة خفيفة.

سألتها:

أليس لديك دوام في المدرسة؟

- ليس الآن.. سوف تُستأنف بعد بضعة أيام.

- المدارس مقرفة.

هزّت الفتاة برأسها وضحكت من جديد.

قلت: تعوَّدت أن أهرب من المدرسة.

ـ وأين كنت تذهب؟

ـ أتسكّع.

ـ نعم، أنا أحب أيضاً أن أتسكع.

- ربما تسكّعنا معاً ذات يوم.

ابتسمَتْ ولم تُجب.

قلت: أنا أتسكع كل الوقت مع لوح تزلّجي في مونتريال القديمة. اعلمي بأنني أقفز فوق سكك الدرج تلك في المباني الحكومية.

ضحكتْ: لا، أنت لا تقدم على ذلك.

- بالتأكيد أقدم؛ أرتدي بنطلوناً فضفاضاً، وأضع قبَّعتي مقلوبة.

ـ لا، أنت لا تفعل.

ـ بالتأكيد افعل. فأنا لم أرتد ثياباً كهذه اليوم إلا لأنني أقابل والدك للحصول على عمل.

لن يستخدمك والدي إلا إذا كنت تخاف الله. يقول إنه لا يثق إلا بمن يخافون الله.

- أتحبين الله؟

ـ لا أدري.

ـ لا أحبّه، ولا أخافه.

ـ حسناً، إذا قلت ذلك لوالدي، فلن يستخدمك أبداً.

- سيكون هذا سرّنا. . . سرّنا الأول.

ـ وما سرّنا الثاني؟

ـ سأخبرك به عندما يتم توظيفي.

- حسناً. . قالتها وابتسمت ورأسها منحرف صوب الطاولة؛ وتابعت:

- من الأفضل أن أذهب الآن. سيأتي والدي قريباً. وهو لا يحب أن أتحدث مع الغرباء.

ـ آه، هل هو غيور؟

ـ لا.

ـ يخشى أن تفرّ ابنته الجميلة مع غريب على لوح تزلّج؟

ضحكت الفتاة وابتعدت. بعد دقائق، طرق صاحب المطعم على الواجهة، وهرعت الفتاة لإدخاله. ولج، ورأسه الأصلع المحني وقامته المحدودبة يجعلانه يبدو كأنه على وشك أن يشمّ الأرض أو يقع على وجهه. لم ينبس بأي كلمة. هو بالكاد انتبه إلى وجود ابنته، وتجاهلني وأنا أقف لأرحب بحضوره المهم للغاية. بادرته بالسلام بترنيمة شبه مصقولة وحيدة المقطع.

أجاب بسلام وجيز جاف، ومضى إلى المطبخ مباشرة. اختفى لبرهة، ثم عاد. وقال، من دون إضاعة أي وقت: نفتح من الأربعاء إلى الأحد. يمكنك العمل كنويدل، من الجمعة إلى الأحد. لا أحتاج إليك أكثر الآن. ستعمل لقاء جزء من الإكرامية وثلاثة دولارات في الساعة. وعليك أن تبقى حتى النهاية. وفي نهاية النوبة، تقوم بكنس الأرض والسجاد بالمكنسة الكهربائية، وتنظف المطبخ والحمام وتمسحهما. أموافق؟

- موافق. . وهززت رأسي غير مرّة.

ـ تعال الجمعة. وكن هنا عند الثالثة بعد الظهر.

- شكراً.

ـ تعال مرتدياً فقط بزة سوداء وقميصاً أبيض. وينبغي أن يكون كل شيء نظيفاً.

- لكن طبعاً نظيف مثل رداء الله.

رمقني بنظرة سريعة، وهو نصف راضٍ ونصف مشكك.

على الفور اتخذ وجهي مظهر شبه الخائف وشبه الورع. هززت رأسي مرة واحدة فقط، لأنه لم يبق إلا إله واحد فقط، بعدما ذُبح الباقون جميعهم وهم يستمتعون بما رُفع إليهم من قرابين العجول والطيور، وهم يسكرون بالنبيذ بصحبة عميان الشعراء. وها هو كل شيء على الأرض أصبح ذا لون واحد كالثلج. وكل ما بات مسموحاً به هو هزّة رأس واحدة، واحدة فقط، إلى الأعلى أو إلى الأسفل، مثل اليد الممدودة إلى جندي غيور.

رأيت، وأنا في طريقي إلى الخارج، الابنة تجلس إلى طاولة وهي ترسم ابتسامة عريضة. غمزتُها. أطلقت قهقهة خفيفة من الفرح والخوف وأنا أسير باتجاهها مثل الصقلوب. فتلتُ مقبض الباب، فتحته، وخطوت إلى الخارج إلى عالم بدا مسطحاً، مربعاً، وذا بُعد واحد.


٣

أخبرت جنفييف عن عملي الجديد، فسَعدت كثيراً، حتى أنها لمست يدي، ثم انسحبت بسرعة وهي تعرف تمام المعرفة أنني مستعد لأخذ يدها والمضي إلى سرير فسيح يظل في إمكاننا أن نجري الجلسة أفقيّاً فيه.

أردت أن أسأل، لمَ القسوة؟ لمَ هذه الرسمية؟ إن جل ما أحتاج إليه لأشفى، هو أن أُحاط بذراعين دافئتين فوق شراشف حريرية، وأتغذّى بطعام من ثلاجة ممتلئة تماماً، ويتم التفرّس بي عن الوسائد، وأشعر بالمداعبة على شعري. وربما كانت كل هذه الرسميات، وهذه الثياب السميكة، والمكتب الذي يُشعر برهاب الأماكن المغلقة، وهاتان الفخذان المقفلتان أبداً، والشعر المرفوع إلى الوراء، تجعلني كلها أُحجم عن فتح أعمق أعماق أفكاري. وأنا أفكّر: يا دكتورة، جنفييف، يا شافيتي اللذيذة الشهية، يا معرّفتي، أعترف لك بأن علينا أن نتلامس. فليس للكلمات وقع على جِلدي، وهي لن تسوّي شَعري، ولن تجعل أصابعي تمتد، رطبةً، لتسبر أغوار مثلث شعر العانة والشقوق الحمراء اللينة، وتجاويف المواقع السرّية الحساسة. الكلمات، يا حبي، تُبقي الفم منشغلاً بالشعر الجاف وبضجيج اللقلقة. الكلمات هي ما يُبقينا بعيدين عن مصادر السوائل والحياة. لا بد

من وجود فرع في العلاج يتم فيه التشجيع على الصمت، ويشكّل اللمس الجواب.

قالت جنفييف:

- أَخبرني أكثر عن العمل.. قل لي كيف حصلت عليه.

- دخلت وانتظرت. تحدّثت إلى ابنة المالك لأن صاحب المطعم لم يكن موجوداً.

- كم عمر الابنة؟

ـ يُحتمل ١٦ سنة، أنا لست متأكداً.

ـ عمَّ تحدثتما؟

ـ عن ركوب الألواح.

ـ أوكانت لطيفة؟

ـ أطلقت قهقهة خفيفة.

ـ أضحَكتْهَا؟

ـ نعم.

- دعني ألقِ نظرة على ملاحظاتي.. قالتها لتُفشِل محاولتي اللجوء إلى الفرح والضحك وتابعت: حسناً، هكذا في المرة الماضية عندما اندفعت خارجاً من المكتب. هل تذكر ذلك؟ كنت تخبرني عن شقيقتك وزوجها، طوني.

ـ نعم، كنت أخبرك بذلك.

ـ هل تريد متابعة الأمر؟

ـ لستُ متأكداً أين توقّفت.

ـ كان مع طوني مسدس.

ـ نعم، الجميع تقريباً معهم مسدسات. . . أعني الكثيرين من الناس امتلكوها.

ـ هذا مثير للاهتمام. وكيف تشعر حيال المسدسات؟

ـ يمكن أن يكون المسدس مفيداً.

ـ لماذا؟

ـ للحصول على أمور، لتحقيق غايات، للدفاع عن أهداف.

ـ أتدرك أن ذلك سيتم عن طريق اعتماد القوة؟

- ليس بأمر خاطئ في غياب أي خيار آخر.

ـ أنتَ لست مسالماً، على ما أفترض؟

- المسالمة رفاه.

ـ أيمكنك أن تتوسّع؟

ـ لا، لا أستطيع. أقصد أن على المرء أن يكون ثريّاً ليصبح مسالماً، غنياً أو مأمون الجانب مثلك. يمكنك أن تكوني مسالمة لأن لديك عملاً ومنزلاً جميلاً، شاشة تلفزيونية كبيرة، ثلاجة ملأى بالجامبون والجبنة، وخليلاً يذهب معك إلى مواقع جميلة في أماكن مشمسة.

ـ أنّى لك أن تعرف؟ كيف تعرف أن لي خليلاً؟

ـ أنا أفترض ليس إلّا. فقط لأن...

- لأن ماذا؟.

أصبح صوتها جازماً وجافياً، وتحرّكت بعض الشيء إلى الأمام، ورمشت عيناها مرّتين من وراء نظّارتها.

ـ لأنك ترعرعت هنا، ولديك وظيفة ومنزل، وتعرفين أناساً.

ـ ليس لكل من ترعرع هنا عمل أو منزل. كثير من الفقراء ترعرعوا هنا. لكن يكفيك افتراضات. كنت تقول إن شقيقتك وزوجها...

ـ حسناً، في يوم من الأيام عادت شقيقتي إلى المنزل، منزل أهلي، وهي تغطي طفلتها بلحاف زهري، وقد أحاطت بعينيها حلقتان سوداوان. ضربها ابن الحرام. أمضت شقيقتي الوقت كلّه بكاء. لقد أُذلّت. استقبلتها أمي هي وطفلتها، وكنت أتوقّع أن تلقاها بشماتة؛ وقالت لها: ما كان يجدر بك أن تتزوجي ذلك الفاشل... النساء يستأهلن ذلك.

خرجتُ بحثاً عن الغاشم. قرعت باب منزله. كان جالساً في غرفة مع شقيّين آخرين، يدخّنون ويضحكون. لما رآني عرف أنني، لو أمكنني، سأقتله بيدي العاريتين، وبحاجبيَّ المثقوبين. كان مسدسه موضوعاً على الطاولة. هدأ الجميع. حدّقت إلى المسدّس مفكّراً: ليتني أملك جناحين لطرت عالياً، وأمسكته، وأطلقت النار من فوق عليهم هم الثلاثة؛ أو ليتني حشرة،

لأزحف تحت أبوابهم ليلاً وأذبحهم جميعهم في أغطية أسرّتهم القذرة.

صاح طوني أخيراً ومن دون أن ينظر في وجهي:

إلامَ تنظر يا فتى؟ عد إلى المنزل وأحضر شقيقتك. قل لها أن تأتي قبل أن أضطر إلى جرّها من شعرها. تحرَّك.

وقفتُ هناك أنفث حقدي، وقبضتاي مشدودتان، وعيناي تقذفان الرصاص، وتطيّران السجائر، وتثقبان الأجسام. أذكر أنني أُصبت، من ثمّ، بنوع من الزهو.

قال طوني: ألا تزال هنا؟

بدوت كما لو أنني تحوّلت، بل ربما طرت بعض الشيء. وعندما تحدّثت ارتجّ صوتي مرتفعاً.

وقف طوني، أمسك بالمسدس عن الطاولة، وسار صوبي. سار أحد رَجليه إلى خلفي. شهر المسدس في وجهي وقال: تبدو أشبه بقاتل. ضحك. وقال: القاتل مقتول. سمعت طلقة رصاص. ارتعدتُ معتقداً أن هذا الأحمق أطلق النار عليّ! إلا أنني لم أشعر بذلك، ليس بعد. ثم شرع طوني ورفيقاه بالضحك. لا يزال يمكنني سماعهم يضحكون. فقد سار صديق طوني من ورائي، وأطلق النار في الهواء.

لوَّح طوني بمسدسه في وجهي، وقال: أهذا ما تريده، أيتها الدجاجة الخائفة؟ أهذا ما تريده يا فتى؟ وغرز المسدس في بطني. أصبح ذلك كلّه مصدر تسلية للرجلين الآخرين. ابتسما،

جلسا، وأحنيا كرسيّيهما على أرجلهما الخلفية. رفع طوني باطن يده وربت بلطف على عنقي العاري. أمسك بخلفية رقبتي بقبضته وكرر القول: اذهب وجئ بأختك، سريعاً، قبل أن أجرّها إلى هنا. وعندما دفعت بيده بعيداً، وأحنيت جسمي، وحرّرت رقبتي من قبضته، لكمني على كتفي بعقب مسدسه. حصرني في بهوه. أمكنني سماع الجيران وتلفازهم، ونشرات الأخبار بصوت مرتفع، وصيحات النساء اللواتي ينادين أولادهن، وطَرْق الصحون، واستنشاق رائحة الطعام الساخن. أمكنني فجأة سماع أمي تستدعيني إلى غرفتها، تطلب إلي جلب الثلج لوضعه على عينها السوداء. إذا سأل الجيران، فقل لهم إنني وقعت عن الدرج، أسمعت؟ شعرت أن في وسعي الإفلات من قبضة طوني والاختفاء تحت باب الجيران. تأكّدت من أنني أستطيع القيام بذلك، لو أنه فقط توقّف عن مطاردتي من زاوية إلى أخرى، وهو يلكزني بفوَّهة مسدسه. طوّقني بأنفاسه الكريهة، وبشاربه السميك المتهدّل، وأجبرني على الزحف عند الجدران. أصبحتُ أخف وزناً وأكثر رشاقة كما لو أنني، بشكل من الأشكال، قد رفرفت. بل إنني انسللتُ حتى من تحت قدميه وقفزت من فوق جزمته. أصبحت من الرشاقة والانزلاق بما كاد يسبّب تعثّره على الدرج. غضب وقال لي: أتريد أن تكون قاسياً، ها؟ وصفعني على وجهي.

تسلّقت الجدران. طرت من فوق الدرابزين، وهبطت، تحت، على الأرض، وفررت. في تلك اللحظة قررت أن أقتله.

سألت جنفييف:

- وهل قتلته؟

بقيتُ صامتاً.

قالت:

ليس مطلوباً منك أن تجيب عن ذلك: وحتى لو أجبت، فكل شيء سرّي هنا.

- هل انتهى وقتنا؟

- لا. هل تودّ الذهاب؟

- ...

- هل أخبرتَ شقيقتك بما حدث؟

- لِمَ؟

سكتت جنفييف لبرهة. ثم سألت: هل كانت والدتك لطيفة مع شقيقتك؟.

- شغلت الطفلة وقت والدتي. وتفرّغت شقيقتي للبكاء وهي ممدَّدة على سريري. نامت لفترات طويلة ولم تشأ مغادرة المنزل.

- اكتئاب.

- ماذا؟

- النوم والتعب شكلان من أشكال الاكتئاب؛ لكن يمكننا الحديث عن ذلك لاحقاً. أكمِلْ.

ـ توجَّهت مباشرة إلى أبي رورو، وقلت له إنني أحتاج إلى مسدس.

ـ من هو أبو رورو؟

ـ إنه مرشدي. أحد لصوص الحي.

هزّت جنفييف برأسها. بدا عليها الاستغراب، لكنها احتفظت بهدوئها. شق قلمها طريقه إلى داخل شفتيها، وتمكَّنت من رؤيتها تتنفَّس بحركة ثابتة منتظمة بالتزامن مع خفقات قلبها. فكرت في أن الطبيبة، مثل السلطان، مولعة بالحكايات.

قلت: أحسّ أن علينا التوقف الآن. فلا بد من أن لديك موعداً ثانياً.

ـ لا، لا، لا. أكمل أرجوك.

- حسناً. . أبلغني أبو رورو أن في وسعه ذلك، لكن علي أن أساعده في عملية صغيرة، إذا فهمتِ ما أعني.

- عملية؟.

ـ تعرفين. . . أمر غير قانوني.

ـ آه، نعم، مثل سرقة المتاجر.

- هو في الحقيقة شيء أكثر من ذلك بعض الشيء.

ـ مثل ماذا، إذاً؟

ـ هذا ما أحاول قوله لك.

ـ نعم، نعم، اعذرني. لقد قاطعتك. أكمل.

ـ أراني أبو رورو بعض الحوالات البيضاء. فهو لا يعرف القراءة أو الكتابة. وسألته، لمن هذه الحوالات؟ قال: للكاهن.

ثمة مبشّر عاش في الشارع قبالة منزل أبي رورو، خلف دير الفرانسيسكان. وعندما اشتدّ القصف في إحدى الليالي، أصابت قنبلة غرفة الأب إدمون. هرع أبو رورو إلى غرفة الكاهن الذي أصيب، وكان لا يزال حيّاً. فأخذ مرشدي حجراً مكسوراً وهشّم رأس الكاهن.

سألت جنفييف:

- قتل الكاهن؟

- نعم، تأكّد من موت الأب إدمون، وسرق من ثم كل ما أمكنه العثور عليه، وانتهى به الأمر ببضع حوالات بيضاء. أرادني أن أحرّرها، في تاريخ سابق، بحيث يمكنه أن يقبضها سريعاً قبل إقفال حساب الكاهن. حتى إنه امتلك نموذجاً عن توقيع الرجل من إحدى الوثائق التي جمعها.

نظرتُ إلى المعالجة النفسية، التي فغرت عيناها وقد استهولت الأمر. بات نصف القلم في فمها. أمكنني القول إنها لم تصدّق ما أقوله لها.

قلت: يمكنني سيدتي أن أتوقف إذا كان ذلك كلّه يضايقك.

سحبت جنفييف القلم من فمها. استعادت رباطة جأشها، وظهرت بوجه أكثر هدوءاً وأشد تحمّلاً، وقالت: Non, non, non, pas du tout (لا، لا، لا، أبداً).

ـ أتريدين إذاً بعض الماء؟

ـ لا، أنا بخير، تابع. يأتي الناس بمختلف أنواع الروايات. هل ساعدت الرجل؟

ـ في الحقيقة نعم، لقد تدرّبت على تقليد توقيع الأب. وحرَّرتُ من ثم حوالة ببضعة آلاف.

ـ هل نجحت الخطة؟

ـ نعم، نجحت.

ـ ألم يتم الإمساك بك؟

ـ لا.

ـ حصلت، إذاً، على مسدسك؟

ـ نعم. حصلت على مسدسي.

سكتت. عرفتُ أنها تريد أن تسألني هل قتلت طوني بعد أن حصلت على المسدس. عرفت أنها علقت، وثار فيها حبّ الاستطلاع. قلت في سرِّي إنها امرأة بسيطة، لطيفة، مثقَّفة، لكنها ساذجة، تتذرّى بالأنهار الجيلدية والمروج، وبالغابات الكثيفة، وبالمحيطات وعجول البحر الراقصة.

أخيراً، قالت: ثمة، في الحقيقة، شيء مثير جداً للاهتمام قلتَه... أمر أريد أن أسألك عنه.

ـ هيا، يا دكتورة.

ـ جنفييف.

- جنفييف.

ـ قلتَ إنك شعرت، عندما أخذ طوني يضربك، بأنك تستطيع الانسلال من تحت الباب والاختفاء، وتتسلق الجدران، وترفرف. ألا تزال لديك مشاعر بالانسلال أو الاختفاء؟

ـ نعم، دكتورة، جنفييف، أنا ماهر في الانسلال تحت أي شيء. أخبرتك أن في وسعي الدخول إلى منزل أي كان.

هزّت برأسها قائلة: هل دخلت منزل أحد ما هنا في كندا؟

ـ نعم.

ـ هل سرقتَ شيئاً؟

ـ نعم.

ـ هل قمت بأي عمليات سطو؟

ـ نعم.

سكتت جنفييف لبرهة، ثم أنهت الجلسة.

* * *

اتصلتُ بعد أيام قليلة بفرهود. سألته: هل تعلم أين تعمل شوهره؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك ذلك، ستقتلني.

ـ أهي مستاءة مني؟

- يمكنني أن أسألها.

ـ لا، لا تسألها.

ـ أنا في الحقيقة حذّرتك من الوقوع في غرام شوهره. أين أنت؟

ـ في الشارع.

ـ أين؟ في أي شارع أيها الأخرق؟

على مقربة من جامعة ماكنيل. أقف عند المدخل تحت تلك القناطر الرومانية. ويوجد في مكان ما خلفي تمثال عار.

ـ لرجل أم لامرأة؟

ـ لرجل، على ما أعتقد.

ـ هل يشبه داود العاري؟ فأنا أحب تماثيل داود العارية تلك.

كان داود راعي غنم، فتى نتناً، ملتحياً، متسخ الأظافر ويحتذي خفّين رثّين.

قال: لا بأس بذلك.. تعال، لقد حضّرت للتو بعض الحساء. تعال إليّ وأدفئ عظامك.

ـ حسناً، يا فرهود، علي أن أحذّرك الآن من أنني أحب عشّاقي من دون شعر.

- يمكن تدبير ذلك.. قال لها، وضحك، وتابع: لا تكن سخيفاً. تعال أيها الرجل السخيف، وإلا فسأشرع في الاعتقاد أن لديك رهاب المثليين.

- وربما هكذا كان داود.

ـ حسناً، ربما، لكنه ضاجع العملاق.

صحت: هي أساطير وأكاذيب.

- ربما أنت على أي حال.. شخص مرتبك يرهب المثليين، يخاف الأمر لكنه يتوق إليه سرّاً، كالباقين منكم أيها الرجال. لكن تعال، على أي حال، لأنك تلك الشخصية المجنونة. سأطعمك. تعال، يا فتاي الجميل، تعال.

وهكذا قرعت باب منزل فرهود، وجلست إلى مائدته. قدّم إليّ حساءً يطلق بخاراً كثيفاً ولطيفاً، وخبزاً يدفع إلى الثورة، والقليل من السَّلَطة الموضوعة في طبق أصفر على طاولة قديمة تصدر صريراً. قلت ضاحكاً: إن طاولتك تهتز وتصرّ. وغمزت ناحيته متابعاً: ربما كان علي أن أتناول الطعام هناك في غرفة الجلوس. فردّ فرهود: اصمت وكل، أيها الصبي الشنيع... وقد لف وشاحاً حول عنقه، واعتنى كثيراً في ترتيب أدوات السفرة والصحون، ومضى إلى المطبخ وعاد منه بلا عناء، جاعلاً كل شيء حسن المنظر، طيب الطعم، ودافئاً.

قال فرهود:

كفّ عن الابتسام، وتوقّف عن هزّ تلك الطاولة كالطفل.. دعوتك إلى تناول الطعام، وليس لتُدين وتتكهّن.

ـ لكنني لا أُدين أبداً، يا فرهود.

ـ لا، لكنك تتخيل أموراً.

ـ أستنتج!

ـ تفترض.

ـ أتخيّل.

ـ وتُدين.

ـ لا ، أرى الأمور ليس إلّا.

ـ تظنّ.

ـ أتخيّل وأبدع.

تتمنّى. . والآن اجمد وتناول طعامك، وإلا أرسلتك إلى غرفتك.

- حصلت على عمل في مطعم «ستار أوف إيران».

ـ حسناً، حسناً، أنت ستتعلم الفارسية الآن. بأي صفة تم استخدامك، كأحد النُدُل؟

- لا ، بل نويدل.

- مبروك، إذاً.

قصد فرهود المطبخ وعاد بزجاجة نبيذ، وقال:

- علينا، عند هذا الحد، أن نحتفل بحصول أحد المهاجرين على وظيفة.

- شوهره غاضبة مني.

ـ حسناً، لا تقلق في شأن شوهره. سوف تتجاوز الأمر. فهي غريبة بعض الشيء في مسائل الحب.

ـ أحتاج إلى رؤيتها.

ـ اتصل بها.

ـ إنها لا تجيب عن اتصالاتي.

ـ سبق لي أن حذَّرتك من التعلُّق بها.

ـ لستُ متعلِّقاً بها.

- نبيذ؟ بالتأكيد أنت لست متعلّقاً، يا عزيزي. سألتك إن كنت تريد نبيذاً. نبيذ؟ أجبني: نبيذ؟

ـ نعم، نعم، بالتأكيد.

ـ أنت متيَّم يا عزيزي، غارق حتى أذنيك، وحول عنقك. واجه الأمر. أنت حتى لم تعد تسمعني.

تناولنا الزجاجة بأكملها. استلقيت على الأريكة، واستلقى فرهود قبالتي على الأرض.

ـ انظر إلى الثلج، يا فرهود. يتساقط بلا استحياء. كيف انتهى الأمر بنا هنا؟

ـ لا أعرف عنك شيئاً، يا صديقي، لكنني أعرف كيف انتهى بي الأمر هنا.

ـ أخبرني، يا فرهود، كيف انتهى بك الأمر هنا.

- لنفتح زجاجة أخرى من النبيذ.

سار إلى المطبخ متراقصاً وعاد مع فتّاحة سدادات وأعطاني الزجاجة، قائلاً: خذْها أيها الرجل القوي، افتحها. وسأخبرك كل شيء عمّا انتهى الأمر بي في الثلوج. بعد أن انتصر الخميني في

ثورته، أحيَيْنا - نحن كما تعلم، الجماعة المثلية الجنس - حفلات سرّية. وأطلع شخص ما، لا بد من أنه مخبر، النظام على ما نفعله. تمَّت مداهمة واحدة من حفلاتنا، وساقونا جميعاً إلى السجن. فرّقوا بيننا، وطلبوا إلينا التوقيع على ورقة نعترف فيها بأننا مثليو الجنس، وبأننا لن نلمس بعد الآن أي رجل آخر أبداً، وأن أفعالنا مناهضة لله ورسوله، وأننا سنتوب ونصلّي خمس مرّات كلّ يوم، ونصبح صالحين، ومؤمنين محترمين. إلّا أنني لم أكن أعرف حتى كيف أصلّي. وقد تعبت وعيل صبري من الدفع بي طوال حياتي، أَوَتتخيّلني أربّي لحية، وأرتدي تلك الأثواب الرهيبة، ولا ألمس أي رجل بعد ذلك أبداً؟ لا، يا طفلي، لا مجال!

ـ رفضتَ إذاً؟

ـ رفضتُ.

ـ شجاع، أم مجنون لعين. وماذا بعد؟

ـ أميل أكثر صوب الجنون. آه، إلا أن جميع الذين وقّعوا على تلك الورقة اختفوا على أي حال. ربّما قُتلوا، من يدري؟ ولم يسمع عنهم أحد شيئاً قط. وصدّقني، يا عزيزي، أن البعض منهم من النوع الضاجّ، والضاجّ جدّاً. على أي حال، فإن كل ما أرادوه هو اعتراف منّا. أما التوبة فهي جزء من عملية غش. بعد رفضي التوقيع، وضعوني مع النسوة في سجن مكتظ. كان ذلك بمثابة بيان، كما تعرف. عندما دخلت زنزانة السجن شاهدت مساحة صغيرة تتكوّم فيها النساء. بعضهن مع أولادهن؛

حتى إن امرأة حاملاً، سُجنت هناك. كان المكان مكتظّاً إلى درجة أن أيّاً منهن لم تنتبه إليّ. بل إنني تعرّفت حتى إلى صديقتين قديمتين، شرعتا في البكاء لما رأتاني. أمضيت بضعة أيام في تلك الزنزانة إلى أن جاء أحد الموالي الملتحين، وصرخ، وطلب إلى الحارس أن يُخرجني. اعترض على الاختلاط بين الرجال والنساء، حتى وإن لم أكن رجلاً حقيقياً، على حد تعبيره. وهكذا، انتهى بي المطاف في زنزانة صغيرة، بحجم العلبة، لا وجود فيها لمن أتكلّم معه: لا سرير، لا كرسي. . مقعد حمّام قذر، مثير للقرف، آه، يا إلهي... في اليوم التالي اقتادني الحارس إلى مرذاذ حمّام، وطلب إلي تنظيف نفسي. وبينما أنا في الحمام مرّ بي الملّا الملتحي نفسه ووقف ورائي يراقبني وأنا أستحم. أدرت له ظهري، لكنني شعرت بنظراته تسقط على فخذيَّ مثل نقطة من الحمض. وفي الليل، جاءت حارسة، فتحت باب الزنزانة، واقتادتني إلى أحد المكاتب. كان ذلك الشخص الكبير في السن نفسه جالساً وراء طاولة. ابتسم، ولمعت سنه الذهبية. طلب إلي إقفال الباب، وجعلني أجلس قبالة المكتب الذي يجلس إليه؛ وكان بيننا طبق من التين الصغير المجفَّف. ابتسم لي ودفع بالطبق صوبي. لم أمدَّ يدي إليه. شعر بالإهانة. قال: «أترفض ضيافتي أيها اللوطي»، ووقف. ظهرت عصا رفيعة في يده من داخل كمّ ثوبه وشرع يضربني بها. ثم طلب إلي أن أخلع قميصي وأن أتخذ الوضعية في مواجهة الجدار. وجلد ظهري، ويداي ممدودتان وساقاي منفرجتان إلى أقصى مداهما. أحرقني ذلك كالجحيم، ثم شعرت بلحيته، وشفتيه، ولهاثه على جروحي، يلعق دمي،

ويطلب إلي السماح، ويلمسني في كل مكان. وعلى مدى الأشهر القليلة التالية، غذاني بالتين المجفف واغتصبني. سألته هل الله يوافق على أفعاله. فأجابني بأنني هبة الله له، الله يحب الجمال ويكافئ المؤمنين. وابتسم ولمسني.

شاركت المتلحي في لعبته. أصبحت خليلته. تعوَّد أن يسألني إن كان وسيماً، وأضطر إلى إجابته بأنه هدية من فوق، وأتلو بعض الآيات. لم أعرف قط هل هي قصائد أم تلاوات. لم أسأل. إلا أن الآيات تصف حديقة، وأزهاراً، وجبالاً. وعَدْتُ الملَّا إن أطلقني أن أظلّ ألتقيه في الخارج، وأن نخرج معاً ونتنزَّه في الحدائق التي فوق الجبال. عملتُ عليه بتؤدّة، وتم في النهاية إطلاقي. أخذ يأتي في كل يوم ويقلّني من زاوية قريبة من منزلي، ويقود السيارة بعيداً إلى الجبال. أبلغني أن في وسعه دوماً العثور علي، وأنه سيسلخني حيّاً إذا حاولتُ الهرب. وفي النهاية، ارتديت، بمساعدة أصدقاء قدامى، لباس امرأة، غطّيت نفسي، وتم نقلي بالسيارة إلى الحدود مع أفغانستان، ومن هناك إلى الهند. في الهند التقيت دبلوماسيّاً كنديّاً على الشاطئ. ابتسم لي، ورددتُ له الابتسامة. . . بأحسن منها. أمضينا شهراً جلنا معاً. سافرنا في كل أنحاء الهند. ركبنا القطار إلى كل مكان. نزلنا في فنادق فخمة، دخّنا الحشيش، ومارسنا الحب في أماكن كثيرة. كانت تلك أفضل أيام حياتي! فهو يمتلك المال، وعلى استعداد لإنفاقه.

يا لها من أيام جميلة، قالها فرهود، ورفع كأسه. نظر إلى

النبيذ من تحت الكأس، أدارها بلطف، ثم رفع عنقه بعض الشيء، وفُتحت شفتاه تماماً مع ميلان الكأس واندفاع السائل صوب فمه. وتابع حديثه: «أقول لك، إنني احتجت إلى كل شيء بعد الجحيم الذي عشته مع الملّا. ثم سألت عشيقي أن يصطحبني إلى مونتريال. أذكر أننا كنا في فندق قديم في منطقة أوريسا في ذلك الوقت، وكلانا عار في السرير ذاته ندخّن، منتشيين وسعيدين. وهناك في الخارج، حفيف بضع أشجار، وبضع دراجات هوائية، وبضع أرجل حافية تمرّ وتكنس قشرة الغبار تحت النافذة المفتوحة. أمكننا سماع ذلك كلّه. قال لي عشيقي: «لديَّ ما أبلغك إياه يا فرهود». وأجبت: «لا تقل لي إنك مثلي الجنس». وضحكنا لبرهة، ثم قال: «في الحقيقة لا، فأنا في الواقع أعيش حياة رجل مستقيم مع امرأة». وعدنا إلى الضحك. يا إلهي كم ضحكنا. واستحصل لي، عبر أحد معارفه في دائرة الهجرة، على تأشيرة دخول، واشترى لي تذكرة سفر إلى مونتريال. طرنا معاً إلى هناك. تركني في المطار، وشاهدته يهرع صوب إحدى النساء.

ـ هل بقيتما على اتصال؟

ـ نعم، لفترة. يدعوني «صينيتا»، لأنني أبدو كالصيني. أمضينا بضع ليال معاً في كل مرّة أمكنه أن يتخلّص فيها من امرأته. لكنه سرعان ما أخذ يتحوّل رويداً رويداً إلى وحش. حتى أنني ظننت أنه أخذ، مع الوقت، يصبح كارهاً للأجانب بعض الشيء. جاء مرّة إلى غرفتي ومارسنا الجنس. ذهب بعد

ذلك إلى الحمام، وبلّل منشفة ورماني بها. وقال: خذ نظّف نفسك. فأنت لم تعد في بلادك.

بقيتُ صامتاً. ثم سألته: كيف أنك تبدو صينياً؟

شرح لي بصبر أن إيران ليست مجتمعاً متجانساً. ففيها الأذربيجانيون، والأفغان، والأتراك، والعرب في الجنوب على الحدود مع العراق، لكنني أعتقد أنني من بقايا الغزو المغولي للمنطقة. يتجه المغول والمتحدرون منهم وأيضاً، على ما أعتقد، الكوريون، إلى أن يحملوا علامة على أعجازهم عند الولادة، تسمّى البقعة المغولية. تختفي بعد فترة، لكن، في بعض الحالات، تبقى طوال الحياة.

- أنت تكذب.

- لا، بل إن قلة من الأوروبيين الشرقيين يحملونها أحياناً. فجنكيز خان، أو أتيلا الهوني ـ لست متأكداً أيهما بالتحديد ـ قد مرّ من هناك.

ـ وأي جيش لا ينشر المني والدماء!».

ـ أوافقك الرأي.

- إذاً، أنت تحمل تلك البقعة المغولية؟».

ـ نعم.

ـ لا أصدّقك.

ضحك فرهود: حسناً. . إذا كنت لطيفاً فقد أريك إياها في يوم من الأيام. لطالما أثارت الدبلوماسي.

ـ أثارته؟

ـ هيَّجتْه، أيها الأخرق. أسماها جوهرته الشرقية الزرقاء.

ـ ما اسم الدبلوماسي؟

ـ برنار، لماذا؟

ـ أين يقيم؟

ـ لماذا؟

ـ أهناك ما تحتاج إلى الحصول عليه من منزله؟

ـ ما الذي تتحدّث عنه؟ سأقوم بزيارته. سأسطو على بيته. أَعطني عنوانه فقط.

ـ أمجنون أنت؟ ولماذا تفعل ذلك؟

ـ سأسطو على بيته، وأبلّل منشفته ببول الكلاب.

- لا. انتهى الأمر، انتهت تلك العلاقة. بول الكلاب! أنت رجل غريب الأطوار! لم أعد أعرف أين هو. وأنا في أي حال لا أهتم. أنا هنا الآن، وهذا هو المهم. أتفهم ذلك؟ أنا حيّ، وهنا، ولا أبالي. أنا هنا، وبيدي كأس من النبيذ. أنا هنا، حيّ. . وشرع فرهود في البكاء.

ـ لكن، يا فرهود، يا صديقي العزيز. .

وضعت يدي على كتفه وتابعت قائلاً:

أريد تسوية الحساب من أجلك ليس إلّا.

- أي حساب؟ هل تعلم كم من الحسابات يتوجَّب تسويتها في حياتي؟ هل تعلم؟ هل تعلم؟

صمتنا، نحن الاثنين، مستذكرين حمرة النبيذ، وبياض الثلج، وأن الليل في طريقه.

* * *

رن في تلك الليلة لاحقاً، جرس الباب. أفقتُ ورأيت شوهره تدخل الشقة وتخلع حذاءها.

قالت:

جئت للحصول على الحساء، وانظرا ماذا أرى!.. أومأت بذقنها صوبي. وتابعت: أنتما أيها الفتيان مخدَّران، وأعينكما حمراء. ابقيا في مكانكما، سأخدم نفسي ببعض الطعام.

نهض فرهود، بينما كانت شوهره تأكل، ودلك كتفيها. قالت: «قضيتُ نهاراً طويلاً». أكلت وتحدّثت عن رب عملها، قائلة: «سأقتل ذلك الرجل لو استطعت». وما إن انتهت من تناول الطعام حتى مرّرتُ لها صاروخاً. شكرتني، ودخّنت، ثم مطّت نفسها على مقعدها.

نهضت، بعد فترة، لتغادر. رافقتها إلى الخارج. نظرَتْ عن كثب، في المصعد، إلى وجهي. داعبت الآثار التي حفرتها أظافرها على وجهي، وقالت: تعال معي إلى المنزل. لقد خدشتك بقوة، أليس كذلك؟ يجب أن نضع شيئاً على هذه الجروح.

وهكذا عدت معها إلى المنزل، وأخبرتها أنني حصلت على عمل في مطعم «ستار أوف إيران».

ضحكت بصوت مرتفع. وقالت: سآتي لزيارتك في أحد الأيام. قد يحدث ذلك عندما يكون رضا يعزف. سأستمع إلى عزفه وأشاهدك تقع مع صينيتك على أحد الزبائن.

- أنا هناك من الجمعة إلى الأحد. تعالي للعشاء في أي وقت بعد الرابعة.

- سآتي مع فرهود..

ومسحت ببعض الكحول على وجهي. وتابعت: توقّف عن التمايل. كن رجلاً وتحمّل الألم. أيخيفك هذا الشيء البسيط؟

ـ لست خائفاً. إنه يحرق ليس إلّا.

- إذاً، لا تفكّر فيه. دعه يحرق...

وقبّلَتْ شفتي، ثم أمسكت وجهي بيديها ونظرت مباشرة في عيني.

ـ هل اتصلت بصديقتك؟

ـ من؟

ـ صديقتك؛ المرأة التي ترقص حاملة حذاءها بيدها.

ـ عمَّ تتحدثين؟

ـ لا عليك.

ـ أي حذاء؟

ـ تعلم أي حذاء.

ـ لا.

ـ المرأة الراقصة من دون حذاء.

- آه، الغجرية.

ـ أصبح لها اسم مستعار الآن!

ـ لا، لم أتصل بها. لم آخذ رقمها.

ـ هيا، لنذهب إلى السرير. تتصاعد من كل أرجائك رائحة الدخان. انزع ثيابك.

رمتني بقميص رجاليّ قائلةً:

خذ. . البسه فقط، وهيا إلى السرير.

لم أسأل برغم أنني أردت ذلك.

* * *

في السرير، بعد أن انتشينا، بقيت شوهره صامتة. لم تضع رأسها على كتفي. لم تغطِّ بطني بفخذها. لم تدفئ رجليها الباردتين بين ساقي. دخّنَتْ ونظرتْ إلى السقف، ثم انتابها القلق. نهضت، وتناولت الواقي الذكري عن الأرض بقرب السرير، وتحققت منه وسألتني:

- هل تدع الواقيات في جيبك؟

- في محفظة جيبي.

ليس ذلك جيّداً. فهي قد تتفسخ. شدّت بواقيَّ الذكري،

ربطته من رأسه، وعزلت السائل في مناطق مختلفة باحثة عن تسرّب. وبعد أن انتهت، رمته على مقربة من السرير. وقالت: آخر ما أريده هو المجيء بطفل إلى هذا العالم.

تناولت المنفضة، أنهت آخر مجّة من سيجارتها، وقالت: تأخر الوقت، سأطفئ النور. فعملي مبكرٌ غداً.

فتحت عيني في الظلام ونظرت إلى السقف. سلّيت نفسي بتخيّلي أنني ألوّن السطح المعتم من فوقي بأقلام المدرسة، صانعاً الغيوم والشموس الساطعة. لقد أبلغتنا المعلّمة ونحن صغار، أن من الضروري ملء كل فراغ في الرسمة: «عليكم أولاً أن تبروا الأقلام لملء الشوارب الرفيعة، ثم تستخدموا القلم العريض لتلوين الأجنحة بالبني، بدقّة ومن دون أن تدعوا القلم يخرج عن الصفحة. ويمكن رسم ست أقدام بالتتابع تحت البطن الطري». لكن المعلمة قالت لي عندما سألتها: يصعب أن نتبيَّن التنفُّس على الورق، لكن من الأسهل الشعور به في الحياة الحقيقية. حتى الحشرات تتنفَّس». وهكذا مددت أصابعي من تحت الأغطية ووضعتها على صدر شوهره. بُرمت أجنحتها نصف الملونة ورفرفت وانقلبت هي سريعاً إلى الجانب الآخر من السرير. وهكذا، بحثت عوضاً عن ذلك عن أثخن قلم متوفّر، أمسكته، وهززته إلى أن انفجر ودلق على حضني، وجاءت معلمتي وضربتني على يدي وأرسلتني إلى الزاوية المظلمة في الغرفة.

حضَّرت لي شوهره الترويقة صباحاً، وانشغلت في تسريح شعرها، متنقّلة من الحمام إلى المخدع، ومن الخزانة إلى قلم

الكحل، منقّبة في حقيبتها، ومغيرة بلوزاتها، ثم وقفت بالباب وقالت: أجاهز أنت للذهاب؟ يمكنك أخذ القهوة معك. خذ.. وصبّت القهوة في كوب بلاستيكي.

رافقتها سيراً إلى محطة المترو، ثم استدرتُ وسرت صوب منزلي. أبقت القهوة أصابعي دافئة لبعض الوقت. تراقص البخار المنبعث من الكوب على خلفية الطُّرُق الرمادية، والمباني الرمادية، والأشجار الرمادية العارية من الأوراق، والأناس الرماديين، وباصات غرايهاوند، ثم فقدت طاقتها وأصبحت باردة، كمصير كل شيء من حولي.

قررتُ أن أسير الدرب كله إلى المنزل. توقفت في طريقي عند مقهى أرتيستا للحصول على الدفء. أحاط بضعة رجال أفارقة شماليين بالبروفسور الذي جلس في كرسيه المعتاد. أمكنه دوماً أن يُبهر أولئك الوافدين الجدد برواياته ونظرياته. استطاع دوماً، لسبب لا أفهمه، أن يثير إعجاب مواطنيه. إلا أنني أعلم بأن الدجّال يؤدّي دوره للحصول على قهوة مجانية، ولاستجداء السجائر من تلك الأرواح المصابة بالحنين. وهو سيطلب فجأة، في منتصف رواية ما، من أحد الرجال، أن يأتيه بفنجان من القهوة، ويأخذ سيجارة من مخزونِ آخر. آنذاك يواصل، بعدم اكتراث، رواياته عن هروبه في الوقت ذاته من الحكومة الجزائرية ومن الأصوليين الدينيين. يزعم أن المجموعتين الجهاديتين أرادتا معاً موته لأنه فضح الديكتاتورية الجزائرية في ما هي عليه، وفضح أيضاً الملتحين بسبب دولتهم الدينية.

ويسحب مقالات في صحف جزائرية قديمة يقرأها بصوت عال على هذه النفوس الساذجة، مغمِّساً أصابعه في داخل فمه وهو يقلّب الصفحات.

يقاطعني هذا المثقف المتعجرف كل الوقت. ينبذ على الدوام ما أريد قوله. وفي يوم محدّد، عندما حاولت أن أبلغه بأن تغييراً كبيراً سوف يطرأ، تغييراً قاتلاً يتخمّر من تحت الأرض، تضاحك، ونبذني من جديد. أثار حنقي كثيراً في ذلك اليوم، فقررت أن ألاحقه وأكتشف أين يعيش. لكن تبيّن أن نزعاته الارتيابية أكثر تطوراً مما اعتقدت. ربما تمكَّن بهذه الطريقة أن ينجو من رصاصة الجلاد ومن خناجر المتعصبين. فكم من مرّة قال، إن المرتابين وحدهم ينجون؟ تطلع إلى ورائه، وأنا أتبعه. رآني، فادعيت التوقف عند جهاز قياس موقف السيارات وعدّ نقودي، إلا أن البروفسور الغريب الأطوار ركض وقطع الشارع برغم الضوء الأحمر، عابراً بشكل مخالف للقانون الأحمر والأخضر والأصفر، السماء الأرجوانية، الكلاب الزهرية، السناجب، والزفت الرطب. كادت إحدى سيارات الأجرة تدهسه. هرب كما لم يهرب من قبل للنجاة بحياته من ديكتاتوريين أو أنبياء. وأنا قد برزت كثيراً للعيان فلم أتمكن من ملاحقته أكثر. في الحقيقة أردت فقط أن أعرف المزيد عن الشحاذ الدمث. أردت أن أسرق نظّارته وهو نائم. حاولت مرة القيام بذلك في المقهى، إلا أنه علّق نظارته حول عنقه بخيط يتدلّى تحت عينيه الدائمتي التنقّل.

قلت اليوم: «سلام»، وأنا أسحب كرسياً من الطاولة المجاورة.

هز الرجال في المقهى جميعهم رؤوسهم بإيجاز، واستمروا في تقليب صفحات جرائدهم.

انتظرتُ قليلاً، ثم جاءت النادلة وسألتني هل أحتاج إلى أي شيء، فقلت لها إنني مغادر. وهو ما فعلته من دون أن أنبس بكلمة لأي كان. نظرت، وأنا خارج، إلى الوراء، ورأيت نظارة البروفسور تبرز من تحت الأخبار كما يبرز التمساح من مستنقع. ابن الحرام يراقبني طوال الوقت. يوما ما سأنال منه!

* * *

شاهدت، وأنا أغتسل في المنزل، قطعاً طويلة زرقاء داكنة من شعر شوهره تمور في المياه تحت قدمي كالأنكليس. وبينما كنت أخرج من حوض الحمام، سحبتني قوة ما إلى الوراء. بدا كما لو أن الجاذبية تزايدت. شعرت بثقل الحديد والسلاسل في كعب قدمي، وأحسست بكاحليَّ وقد رسَوَا في الماء. ثقل كبير شدّني إلى تحت، كما لو أن جزءاً مني أصبح خفيفاً وسريعاً. حاولت أن أتحرك متعلّقاً بستارة الحمام، ثم برفّ المناشف. إلا أنني، بدلاً من ذلك، أصبحت أكثر ثبوتاً في مكاني. اجتاحني إحساس عميق، عميق جداً بالخوف والحزن. شعرت بأنني آخر كائن إنساني على الكوكب. سمعت صوت المياه، أشبه بقرع متناسق للطبول، تنزل في المصرف: جيش يتحرك بعرباته وخيوله. شاهدت المرآة تنتقل وتقابل وجهي، ورأيت اغبشاشاً في فيها، ووجهاً متطاولاً لا يزال وجهي، لكن بدا كما لو أن جبيني قد أنبت شوارب. سأحلقها، فكّرت، يجب أن أحلقها.

أمسكت بالشفرة ومرّرتها على جبيني، وعندها اشتد الحزن، ما جعلني أُسقط الشفرة. أردت طلب المساعدة، لكن لن يرد أحد على ذهني، أو أي اسم. بتّ متيقناً من أن الوجود لن يعود فيه أحد بعد الآن. ربما دمَّر ضوء ساطع كل شيء، أبرق وسوّى بالأرض كل ما كان قائماً على سطحها. بلغت الباب، لكنني شعرت بالشلل كما لو أن ناباً مسمّاً قد عضّني. شعرت أيضاً بأنني خفيف وهشّ، هشّ ومنعدم الوزن إلى درجة أن في وسع أي شيء أن يجرفني ويقتلعني. يمكن لحشرة تحملني، أو شعاع نور؛ ويمكن للماء أيضاً أن يسحبني نزولاً صوب الضجيج الصادر عن جيوش من الجياد التي تعدو، وتطير من تحت السيوف، والخوذ، والرايات الزاهية التي يحملها صِبْية، وعن قرويين تحوّلوا إلى رماة سهام. هلعت، معتقداً أنني العاري الوحيد في المعركة. تمكنّت بطريقة ما من تغطية نفسي جزئياً بمنشفة، وتعلّقت بباب الحمام، إلا أن الباب شرع عندها في التزحزح قبالتي إلى الأمام وإلى الوراء. كل ما أردته هو عبوره، والوصول إلى الجانب الآخر، وأن ألقي بجيفتي على ملاءات الجرحى والموتى. شعر جزء مني بأنه هزيل، كما لو أنني على رأس رمح أرفرف كالراية في الريح. راقبت نفسي وأنا مدرك أن «أنا آخر» آخذ في الهرب.

هرعت في النهاية إلى غرفة النوم، أغلقت النافذة بعنف، وجررتُ نفسي إلى السرير. طمأنت روحي إلى أنني ربما كنت جائعاً ليس إلا. وربما كنت تعباً. بيد أن جزءاً مني لا يزال يفكّر بوضوح. أصبحت منقسماً بين طورين ومدركاً وجودين،

وكلاهما لي. فكّرت في أنني أنتمي إلى حيّزين، وأنا ألتف بملاءة واحدة. نظرت إلى السقف. شعرت به ينتقل لفترة وجيزة جانبياً، ثم إلى فوق وتحت، ثم عاد ذلك الحزن الرهيب إلى العالم مثل غيمة كلّية القدرة تصيب بالعمى، وانهمر الدمع من عيني بلا سبب، كما لو أنني أبكي عن شخص آخر.

* * *

قرع رضا بابي بعد الظهر. أدخلته بكبسة على الزر الطنان.

قال: توجد دوماً رائحة في مبناك: الطبخ، الكاري أو اللحم، أو أي شيء، يا رجل. هيئتك تبدو مزرية. ماذا كنت تفعل؟ هل جرحت جبينك؟ هل وقعت؟

عدتُ إلى الفراش وغطّيت نفسي. قلت: يوجد شاي في الخزانة فوق الفرن. اغلِ بعضه وأَحضره إلى هنا.

ـ لا أريد الشاي.

- أنا أريده.. هلّا تفضَّلت، وحضَّرت لي بعض الشاي؟

مضى إلى المطبخ. أمكنني سماعه وهو يبربس مشتكياً. عاد بإبريق الشاي. وقال لي: لا توجد فناجين نظيفة. عليك أن تغسل صحونك يا رجل. المكان متسخ هناك.

نهضت، وذهبت إلى المطبخ... غسلت فنجانين، وعدت.

قال: لا أريد أياً من ذلك.

ـ ماذا تريد؟

- مالاً.

ـ لا بد من أنك تمزح، صحيح؟

ـ لقد أسهمت في حصولك على عمل في المطعم، ألم أفعل؟

- يا لك من تافه لعين. اخرج من منزلي.

لكنه بقي ولم يتزحزح قيد أنملة. وقد علت وجهه ابتسامة اغتباط.

- ارحل.. أنا جاد. لا أشعر أنني بخير.

فتح الستائر وقال: لماذا تعيش هكذا في الظلام؟ افتح بعض النوافذ؛ تحتاج إلى النور وبعض الهواء النقي، يا أخي.

قلت بوهن:

ارحل.. ارحل الآن.

نزل رضا الدرج وهو يلعن الروائح العالقة.

ودفعت الباب خلفه وأقفلته، ورددتُ الستائر.

ذهبت في اليوم التالي إلى مكتب الإعانة لتعبئة بعض الأوراق، وهو إجراء روتيني. يريد البيروقراطيون التأكد من أنك تحرّك مؤخرتك خارج السرير من وقت إلى آخر، وتحس رجليك في الثلج لتبرهن أنك حيّ وعلى استعداد لرفع ساقيك إلى الطابق الرابع من الدير القديم الذي تحوّل إلى مبنى حكومي. عليك أن توقّع هنا، وهنا، وهناك، قبل أن تحصل على مالك.

اخترت واحداً من صفوف الناس المنتظرين الستة، متأكداً من وقوفي وراء شخص بدا أنه استحم. لماذا عليّ أن أشم رائحة الفقر؟ فأنا أعيشه! ومن سأرى في واحد من الصفوف الأخرى غير البروفسور نفسه. راقبته وابتسامة المغتبط تعلو وجهي، وانتظرت إلى أن شاهدني. دفن شحّاذ القهوة رأسه، طبعاً، في إحدى الصحف، وتظاهر بأنه لا يراني. قلت للمرأة التي اصطفت ورائي إنني سأعود حالاً، وتوجَّهت مباشرة إلى الرجل. لم أكن لأفوّت مثل هذه الفرصة مقابل أي شيء.

تظاهر البروفسور بالدهشة لمّا لم يعد في وسعه إلا رؤيتي.

قلت:

أزمنة قاسية.

ـ في الحقيقة لا، لا. أنا هنا لاجتماع عمل، لوظيفة استشارية من أجل الحكومة.

هززت رأسي. نظرت إليه بابتسامة المغتبط ذاتها، ثم سحبت دولاراً من جيبي، وسألته إن كان لديه فكّة.

سحب مجموعة من الفكّة، وشرع في العد.

قلت: إنها ليست لإجراء مكالمة هاتفية.

رفع نظره إلي وتوقف عن عد قروشه، وأوشكت يده أن تنغلق لتصبح قبضة.

قلت: أنا أحتاج إلى تذكرة باص، وينقصني دولار وعشرون

سنتاً. وسأعيد إليك المبلغ فور تسلُّمي الحوالة بالبريد. ومن دون أن أنتظر جواباً، التقطتُ القروش والأرباع من راحة يده. أردت شيئاً منه. أغضبني أن صاحب العلاقات الاجتماعية لا يريد أن يتم التعرّف إليه بوصفه فقيراً، وشخصاً هامشياً فقيراً يحصل على الإعانة مثلي. أنا على الأقل لا أتخابث في هذا الشأن. نعم أنا فقير، أنا آفة، بقّة، أنا في أسفل الدَّرْك، إلا أنني لا أزال موجوداً. أنظر إلى المجتمع وجهاً لوجه، وأقول: أنا هنا، أنا موجود. ثمة وجود وثمة عدم؛ أنت إما واحد وإما صفر. انتابني الفضول مرّة في شأن العدم. لو أنني متُّ على ذلك الغصن في المتنزّه، لعشت اختبار الخيار الآخر. برغم أن اختبار ذلك كان سيعني أن في وسعي أن أرى وأشعر، وكان هذا ليقذفني عائداً إلى الوجود، الأمر الذي سيلغي مفهوم العدم. لا يمكن اختبار العدم. على الفراغ أن يعني الهلاك المطلق من دون أي إدراك لذلك. فالأمر، يا صديقي، هو إما وجود دائم، وإما عدم.

غالباً ما يحكي ذلك البروفسور المتسوّل عن إقامته في باريس، وكيف أنه رأى كيتاً وكيتاً تجلس dans le café (في المقهى)، وكيف أنه قال لها هذا وذاك، وأخبرته هذه الحادثة وتلك. إلا أنني أراهن أن المنفي وُجد في واحدة من تلك الحفر الباريسية القذرة، يغسل إسته وينظّف صحونه في الحوض ذاته. أراهن أن هذا العديم النفع سعى وراء بضع سيدات ثريات وناقش معهن بلزاك وهو يحشو نفسه بالطعام والنبيذ. أعرف نوعه، وهو لا يخدعني.

لا بدّ الآن، وقد أخذت فكّته بمثل هذه الطريقة المباشرة والبارعة والماكرة، من أنه سيشهر الحرب بيني وبينه. وأنا متيقّن من أن الفكة القليلة التي أخذتها منه هي كل ما يملكه إلى حين وصول حوالته. أراهن أنه مثلي: نراقب تسليم البريد ونأمل وصول ذلك المغلف الكبير ذي الورق المعاد تدويره في الخارج، والفتات المتلاشي، القابل للاهتراء في الداخل. والسبب في أنه أخرج كل فتات الفكّة تلك، هو أن فكرة الحصول على قطعة نقد أكبر قد استهوته. فامبراطورية موحَّدة تؤمن بإله واحد أفضل من تلك الكسرات الدقيقة التي لا تنفك أبداً عن القهقهة والضحك في جيوبه الفارغة، تذكّره دوماً بالمفكِّر المُعدَم الذي هو عليه. وهكذا قمت بأقدم خدعة في الكتاب. أخذته على حين غرّة. لا بد من أنه ارتبك، وهو منشغل في إقناع نفسه بأنه حقيقة على موعد مع مسؤول حكومي ما. ومن المؤكد أن المسؤول سيرغب في استشارته حول توزيع الثروة، والعدل، وإقامة مجتمع متساو. إنه في حالة إنكار كاملة. إنه مثلي، حثالة الأرض في هذا المسعى الرأسمالي. سأراهن على أنه يعتقد، لكونه وافداً من الجزائر وقد عاش في باريس ودرس فيها، أن مفردات لغته الفرنسية vocabulaire français ستفتح له كل باب في هذه المدينة. آه نعم، يا حبي! سيقوم السكان المحليون بإفراغ مكاتبهم ويعطونك le plus grand bureau (أكبر مكتب) لتدخّن فيه، وسيمكنك أن تتفرّس من نافذتك الكبيرة بالثلج المتساقط، ويمكنك الوصول متأخراً إلى العمل، وتبتسم للحارس الأمني الذي سيرحّب بك بـ ,Bonjour

Monsieur (صباح الخير يا سيدي)، وتتناول غداءً خفيفاً في المطعم في الشارع حيث سيتعرّف إليك رئيس النُدُل، والجميع غيره. ومن الطبيعي، mon vieux (يا عزيزي) أن الجميع سيتشوقون ليناقشوا معك سياسات العالم والنساء، وتعود من ثم إلى مكتبك المصنوع من خشب المهاغوني، وتجري بضعة اتصالات هاتفية، وتتناول un apéritif (مشروباً فاتحاً للشهية) بين الـ séances (الجلسات). وفي المساء، ستجعل أولئك الكاثوليكيات السابقات يمتصصن عضوك المطهّر، وتدخن السيجارة الأخيرة في السرير. وفي الصباح ستحوم قطعة كراوسان مثل الهلال المقدس عند انبلاج الفجر، معلنة عن يوم آخر من الغبطة والنعيم. Et voilà! La belle vie! La belle province (هذه الحياة الحلوة! المقاطعة الجميلة!).

إنني مصمم أكثر من أي وقت مضى، على إيجاد طريقة للوصول إلى تلك الحفرة القذرة التي هي مقر إقامة ذلك المستشار الحكومي الزائف، وأستشير أدراجه، وثلاجته، ونظّارته، وأدمج أحذيته في شركة واحدة، وربما سرَّحت بعضاً من فائض العاملين لديه. بلغ البروفسور نافذة الإعانة قبلي، إلا أنه أخذ يجادل ويسحب أوراقاً من مغلّف ما. أنجزت معاملتي بسهولة. سلّمت الرجل إيصالاتي، وقعّت هنا، وهنا، وهناك، وانتظرت صوت الخاتم الخشبي، وغادرت. رأيت، في طريق مغادرتي، البروفسور وهو لا يزال منتظراً، يسير جيئة وذهاباً، مدعّياً أنه منشغل، محاولاً أن يكون موجوداً في مكان ما بين

صف الإعانة وموعده الخيالي. ولأنني عرفت ما تخبِّئه نفسه، قررت عبور الشارع، وإيجاد زاوية أحشر نفسي فيها، وأنتظر.

وقف البروفسور، في نهاية المطاف، عند باب مكتب الإعانة. تطلّع يسرة ويمنة، ثم سار شرقاً. تقوقعتُ ووضعتُ رجلي وراحتي يدي على الأرض، وتركته يمر. مرّ بي على استعجال، وقد أضفى عليه معطفه الطويل وقبعته مظهر الجاسوس الأوروبي الشرقي. تركت مسافة بضع كتل من البنايات، ثم تبعته. دببتُ عبر الشوارع ومن تحت كل حاجز سيارة، ووثبت فوق كتل متسخة من الثلج وتحت إطارات السيارات. توقَّف البروفسور عند حد ما واستدار إلى الوراء، فاندسستُ في الثلج، واختبأت وراء جهاز تلفاز مطروح عند الرصيف. امتد هوائياه من فوق رأسي كالشاربين. اعتقدت أن المرء يمتلك مزية كونه على زاوية منخفضة كتلك، قريباً من الأرض وغير مرئي. تخيّل نفسك تعِشْ عمرك كله قريباً من قشرة الأرض. وشعرت، عندما سحب البروفسور سلسلته الطويلة من المفاتيح، بأنني أستطيع الطيران من الفرح. تماماً كما اعتقدت! أنه يعيش في قبو نصفي ذي مدخل جانبي يؤدي إلى مطبخ سيدة برتغالية كبيرة السن. إنه يعيش في حفرة أرضية مظلمة. سأتولى أمره لاحقاً.

* * *

ليلة الجمعة، وهي أول ليلة عمل لي في مطعم «ستار أوف إيران»، تم تعريفي بحكيم، رئيس النُدُل. إنه رجل هادئ، لطيف

التصرّف. أراني الصينية البلاستيكية، والصحون، وأدوات السفرة، والملابس، وكيفية إضاءة شمعة في مصابيح الطاولة. أراني ذلك كله. ثم عرفني بالطباخ، ممنون، الذي بالكاد تبسم؛ وعرَّفني بسيدو، غاسل الصحون الذي ابتسم لي ووفّر ماءه كبادرة ترحيب. ثم سحبني صاحب المطعم نحو المكنسة الكهربائية، ودفعني صوب الممسحة. ملأ يدي بدلوَيْ ماء، وكلّفني هذه المهمة كلها. قادني إلى الحمامات في الطابق السفلي، وقال، عليك بتنظيف هذه مرتين كل يوم، قبل مجيء الزبائن وبعد رحيلهم. ثم أراني خزانة معدنية صغيرة تحتوي على سوائل التنظيف، وشراشف الطاولات، والشموع، والصابون السائل، والفوط.

ظهر زوجان قرابة الساعة السادسة. هرعت لفتح المصباح على طاولتهما وإضاءة الشمعة الصغيرة في داخله. وأسرعت إلى غسالة الأطباق وكوّمت بعض الصحون، وفرقت السكاكين عن الشوك وعن الملاعق. وبحلول الثامنة امتلأت ست طاولات في المطعم. كان صاحب المطعم هادئاً وساكناً. بقي خلف البار، راقب كل شيء، وأصدر الأوامر لحكيم، الذي مرَّر بدوره أوامره إليّ. صففت أدوات السفرة، ورفعتُ الصحون الوسخة ووضعتها على الدفة على مقربة من سيدو، الذي طلب إلي إفراغ بقايا الطعام في مستوعب المهملات قبل وضع الصحون على الدفة. وسألني من ثم عن أسماء بعض الأغاني العربية. حاول أن يغنّي اللحن لي، لكنه غير قابل للتمييز. بدا الأمر أشبه بشخص يئن في مزيد من الألم الشرجي واللذة. سألته إن كانت أغنية حديثة، فأجاب: نعم.

قلت له إنني لم أسمع أي أغنية حديثة منذ زمن. فأنا أتسكع مع الإيرانيين أكثر من اللازم. ضحكنا. وابتسم سيدو من جديد، وغسل المزيد من الأطباق، وغنى بضع أغان أفريقية.

جاء رضا وفرقته بعد ذلك بدقائق وبدأت الموسيقا. عزف وزملاءه على آلاتهم بتوافق: موسيقا هادئة. حدث ذلك كله، ولم نتبادل، أنا ورضا، ولو نظرة واحدة.

أبقيت نفسي منشغلاً، منتبهاً إلى الخبز الذي يجب تشريحه، ومكوّماً الصحون، ورافعاً الأطباق الفارغة من تحت ذقون الزبائن.

طلب إلي صاحب المطعم بضع مرات النزول إلى الثلاجة الكبيرة في السفلي وجلب الليمون إلى البار والمزيد من المشروبات الغازية. المرة الوحيدة التي توقفت فيها هي عندما نزلت إلى الحمام السفلي وقضيت حاجتي. غسلت يدي بعدها: ثمة لافتة تقول إن «على الموظفين أن يغسلوا أيديهم». ثم صعدت إلى فوق وعملت.

أخذ رضا في وقت متأخر من المساء سيارة أجرة إلى المنزل مع بقية الموسيقيين. دعاني إلى المجيء، لكنني رفضت. لم يتملَّكني شعور بالجلوس على أريكة مستعملة في أحد منازل الوافدين الجدد المحبطة تلك، التي تعج بالدخان وأجهزة الإنذار المعطّلة. وفضلاً عن ذلك، عندما يجتمع رضا وأصدقاؤه، فهم يتحدثون الفارسية ولا يمكنني فهم أي شيء لعين.

بُعَيد ذهاب رضا، جاءت زوجة صاحب المطعم وابنته

لتقلّاه. كان قبل ظهورهما يعدّ ماله خلف البار، ثم انتظرهما عند داخل باب المطعم تماماً، خلف الزجاج المغلق. وعندما ظهرتا، طلب إلى الجميع المغادرة أولاً، ثم هرع إلى السيارة وأقفل الأبواب الآلية. راقبتُ ابنته تستند إلى زجاج نافذة السيارة، تنظر إلي. ابتسمتُ. بالكاد هزّت رأسها، ثم سحبت وجهها واختفت.

سرت إلى المنزل. الثلج في وقت متأخر من ليل هذه المدينة، يلتصق تماماً فوق الشوارع أشبه بقشرة بيضاء جرشة تتكسّر وتتفسَّخ تحت قدميك. للبرد صوت: سكون دائم، طنين مستمر خفيف. إنه ليس ارتجاج أضواء المدينة الفلوريسانتية الطويلة الظل تتعقب مسار الثلج المتساقط، وليس الريح، ولا الناس. هو شيء يصدر من العالم السفلي ويبقى من ثم على السطح. وبعد فترة من السير عبر الثلج وبخطى ثقيلة، استطعت سماع إيقاع خطواتي الخاصة. أخذ تنفسي يدخّن مثل أحد قطارات بوليوود، وقدماي تسيران بثبات. بدأ الدفء يدبّ في كياني كله. تخلّصت أولاً من الوشاح، ثم فككتُ سحاب طبقة أخرى. ترجَّحت يداي إلى الأمام وإلى الوراء مثل يدي جندي. وكانت المدينة، في هذه الأثناء، فارغة، تصفر فيها الريح.

ذهبت إلى المطعم يومَي السبت والأحد، وكان الإثنين يوم عطلة. موعدي مع المعالجة عند الثالثة، وليس لديَّ ما أفعله حتى ذاك الوقت. دخلت المطبخ وادعيت أنني منشغل في غسل الأطباق. وفجأة، خلعت خفّي، فتحت الخزائن، وشرعت

أضرب بهما يمنة ويسرة. وسواء أكانت هذه الحشرات هنا أم لا، فسأبقيها في حالة دائمة من الحذر! أمذنبة أم غير مذنبة، أغائبة أم غير غائبة. هذا هو تكتيكي الجديد. وهذه في الحقيقة ليست من بنات أفكاري. لقد استوحيتها من قصة شاب عرفته بعد أن اختبر النظام الشمولي.

التقيت الشاب في الباص، هناك في المكان الذي جئتُ منه. كان الباص متكتظّاً فحشر نفسه إلى جانبي. سألني عن كيفية الاهتداء إلى مقصده، ثم أخبرني قصته. أبلغني أنه أُفرج عنه منذ بضعة أيام من المعتقل. فجهاز الاستخبارات في المدينة الصغيرة التي جاء منها يقوم باعتقالات اعتباطية لإبقاء السكان في الخوف. وهو، بلا سبب، يطرق أبواب الناس ليلاً. يصفّ الشبان، يختار منهم عشوائياً، يحشرهم في سيارة جيب ويأخذهم إلى السجن. يتعرض الشبان على مدى أسبوع أو ما شابه للضرب، والإذلال، أو حتى للتعذيب، وذلك كله بلا سبب. ثم يُطلق الشبان، بحيث يرى الجميع في المدينة ماذا يُخبَّأ لهم إذا حاولوا القيام بأي عمل تخريبي. قال الشاب في الباص إنه غادر قريته وهو يبحث الآن عن عمل في المدينة. فكّرت في أنه يبدو أكثر نزاهة من أن يستخدمه أبو رورو. وهو إما مصدوم فلا يمكنه الامتناع عن الكلام، وإما أنه، طبعاً، كثير الثقة بالناس. وفكّرت في أنني، في الحالتين، لا أستطيع مساعدته، فهو متضرر ولا يطابق مواصفات اللص الحقير.

نزلنا من الباص. قال لي الشاب إنه جائع، فطلبت إليه أن

يتبعني. مضينا مباشرة إلى متجر للبقالة، وطلبت إليه انتظاري في الخارج. دخلت المتجر وخرجت بكيس من الخبز، وعلبة من الجبنة، وبعض الفاكهة، واللبن. أعطيتها له واستدرت لأسير ما بقي من الطريق إلى المنزل. لكن الفتى تبعني. سألني عن اسمي، وتحدّث المزيد والمزيد. وهكذا سألته في النهاية عن نوع العمل الذي هو على استعداد للقيام به. نظرت إلى يديه فرأيت كم هما خشنتان ومتعبتان وقويتان. سألته: هل سبق لك أن سرقت، أو قتلت؟

توقَّف عن الأكل، وقد التبس عليه الأمر، وقال لا.

سألت مجدَّداً: إلى أي مدى أنت مستعد للاستمرار؟

ـ سأسرق، لكنني لن أقتل. أنا جائع، لكنني لن أقتل.

- هل تخطف؟

- أنا جائع.

- لاقني هنا، بعد يومين.. في المكان ذاته بعد يومين.

عرفت أن اسمه نعيم. راقبته يتناول الطعام، ورأيت أنه جائع جداً.

* * *

سألتني المعالجة في وقت لاحق بعد الظهر:

كيف كان أسبوعك؟

ـ جيد، أشكرك. كيف كان أسبوعك أنتِ؟ ماذا فعلت؟ هل

تفرّجت على التلفاز، هل تناولت شطائر طيبة، أم فتحت كتاباً مثيراً للاهتمام، تمددتِ على الأرض، سرتِ حافية، رقصتِ بعض الشيء؟

ابتسمت لي جنفييف قائلةً: كيف تشعر؟

ـ بخير.

ـ هل من دوار؟ هل تحسّ أيّ انكسار؟

ـ مذا تعنين؟

ـ كما لو أن الأمور من حولك تنحرف أو تنزلق؟

ـ لا.

ـ لقد تردّدتَ. فكّرت في الأمر.

ـ في الحقيقة، نعم. إلا أن كل شيء ينحرف، كل شيء ينزلق.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل كل شيء من حولنا.

ـ الجدران؟

ـ نعم، الجدران بالتأكيد.

ـ الأسرّة؟

ـ بلا.

ـ هل ينحرف سريرك؟

ـ المرآة تفعل.

ـ لدينا الآن أدوية في وسعها مساعدتك.

- أنا بخير، أعرف أنني بخير. وعلى أي حال، فإن المرآة لا تعكس أبداً الصورة ذاتها مرتين.

ـ حسناً، قد يكون علينا أن نصف لك شيئاً في نهاية الأمر. إلا أن الفضول يمتلكني الآن في شأن أمر قلتَه في المرة الأخيرة التي التقينا فيها. . . أمر عن السرقة.

بقيت ساكتاً.

ـ أقُمتَ بأي سطو أخيراً؟

ـ لا. حسناً، تقريباً.

ـ تقريباً؟

ـ تطوّعت للقيام بأمر، إلا أنني في النهاية لم أفعله.

ـ لحساب من تطوّعت؟

ـ لحساب فرهود، صديقي المثلي الجنس.

ـ لماذا؟

تصفية لحساب مع شخص أساء معاملته.

ـ لكن، هل هو الذي طلبَ إليك القيام بذلك، أم أنك تطوَّعت من دون طلب منه؟

ـ لا . . . نعم.

ـ أتحبّه؟ ألهذا السبب تطوّعت؟

ـ أحبه.

صمتت جنفييف.

وأضفتُ: لا، ليس بتلك الطريقة.

- هل سبق لك أن شعرت بانجذاب إلى رجل؟

ـ ليس جنسياً، لا أعتقد. لكن مرشدي شعر بالانجذاب إلى رجل.

قلّبت جنفييف عبر ملاحظاتها، قائلة: أبو رورو، مرشدك في السرقة والجريمة؟

ـ نعم، وقد قتله ذلك.

ـ ماذا تعني بقتله ذلك؟ أتعني أنه لم يستطع تقبّل واقع أن يشعر بانجذاب إلى الرجال؟

ـ لا، بل لأنه قُتل بسبب هذا الانجذاب. قُتل بالرصاص.

ـ ألا يتقبَّل الناسُ الآن مثليي الجنس في المكان الذي جئت منه؟

ـ في الواقع نعم. لكن لا. إنها قصة طويلة.

ـ أنا أستمع.

ـ قاربه في الحقيقة، كما ترين، شقيّ محلّي، وهو رجل سيئ الشهرة، قوي، اسمه جرداق، من أجل القيام بعملية ما.

- عملية. مثل إجراء طبّي. .

أغاظتني جنفييف.

قلت: لا، بل عملية اختطاف.

عند هذا الحد رفعت جنفييف رأسها. استطعتُ رؤية أذنيها تصبحان حادتين وتمتدان عبر شعرها الطويل المالس. وكافحت لإيقاف عينيها عن الطرْف تحت ثقل أهدابها الكثيفة.

تابعت: أعطاه الشقي اسم ابن أحد الأثرياء، وعنوانه وصورته. كان على أبي رورو أن يخطف الابن، فيطلب جرداق فدية ويتعاطى في المفاوضات، والحصول على المال، وكل اللوجستيّات. عملية سهلة إلى حد بعيد. وهكذا، وفي ليلة من الليالي، انتظر أبو رورو الصبي في مرأب للسيارات إلى جوار أحد النوادي الليلية. ركن سيارته إلى جانب سيارة الصبي. وعندما ظهر الولد، وأخرج مفاتيحه لفتح باب السيارة، وضع أبو رورو مسدساً عند أضلاعه من الوراء. طلب إلى الصبي عدم الاستدارة، ودحسه على المقعد الخلفي. وغطّى نعيم، وهو فتى جائع التقيت به منذ وقت قريب في الباص وعرّفته إلى أبي رورو، وجه الفتى بقناع. عصب عيني الصبي وأوثق يديه، وانطلقوا جميعاً بالسيارة إلى منزل على الشاطئ خارج المدينة.

قاد أبو رورو ونعيم الصبي إلى داخل المنزل، وأقفلا عليه في إحدى الغرف، وانتظرا اتصالاً هاتفياً من جرداق. احتوى المنزل على الطعام والكحول. وكان عليهما، إذا حاول الصبي الفرار، إطلاق النار عليه ورميه في البحر. إلا أن أبا رورو

ونعيم، برؤيتهما الصبي، علما بأنهما لن يفعلا ذلك أبداً. فالصبي يتمتع ببشرة بيضاء ناعمة (أمه اسكندينافية)، وله عينان زرقاوان وشعر أشقر، وهو جميل المنظر: ضعيف البنية نوعاً ما، وناعم الصوت. وهو لم يُبد أي مقاومة، ولم يشتكِ قط، ولم يتفوّه بشيء حتى عندما اصطدم رأسه بنافذة السيارة، ومن ثم بباب المنزل. أمسك أبو رورو بيديه وقاده في كل مكان. كان يدفع بالصبي برفق ويدعوه «أيها الجميل». «أخفض رأسك يا جميل؛ ارفع رأسك يا جميل؛ كل، يا جميل». وكان يطلب إلى نعيم أن يذهب ويتحقق من الجميل.

عندما مضى نعيم في إحدى الليالي لاستخدام المرحاض، شاهد أبا رورو جالساً على كرسي في مواجهة الصبي، يدخّن، وبيده زجاجة ويسكي، وعيناه مسمّرتان على عصبة عيني الولد. أُغرم أبو رورو بالصبي. يشرب الويسكي ويطيل التحديق إليه لساعات. فكّ أخيراً عصبة عيني الفتى، وأخذ، والمسدس في يده، والسيجارة بين شفتيه، والويسكي في راحة يده، والبحر من خلفه، يتطلّع طوال الليل إلى الصبي وينتحب، غير عارف ماذا يفعل، أو ماذا يقول له، أو كيفية مقاربته. ثم إن أبا رورو شرع، في يوم من الأيام، في السعال. وقال الصبي بصوته الناعم: يجب أن تتناول بعض الشاي. يمكنني أن أعدّه لك.

انتحب أبو رورو من جديد. بسماعه كلمات الصبي، اقترب من السرير، وقبّله على خدّه، وحلّ وثاقه. حرّر يدي الولد، وحلّ سحاب سرواله.

أغلق أبو رورو باب غرفة النوم، ومارس الجنس مع الصبي على ملاءات سرير غريبة من خلال سحاب من الدخان. وبعد ذلك، فإن الأمر التالي الذي حدث، هو أن الولد يجلس في السيارة إلى جانب أبي رورو وهما يجولان عبر شوارع القرية. يشتريان الطعام معاً، ويتنزهان على الشاطئ.

سأل أبو رورو الفتى في إحدى الليالي: «ماذا لو أصدر إليّ جرداق أمراً بقتلك؟ ماذا سأفعل؟ لا يمكنني القيام بذلك. وإذا لم أفعل فسيجدنا جرداق ويقتلنا معاً».

فاوض والد الصبي في نهاية الأمر مع جرداق، ودفع بعضاً من الفدية.

رن جرس الهاتف في اليوم التالي، ورفع أبو رورو السماعة. قال «نعم» بضع مرّات، و«حسناً»، ثم نظر إلى نعيم. هزّ رأسه للهاتف، وأقفل السماعة. سار صوب نعيم وأبلغه أن الرئيس، جرداق، يريد منه المغادرة لأن ثمة من سيأتي ليحل محلّه.

سأل نعيم: لكن لماذا؟

ـ سبق أن قلت لك إن الرئيس أمر بذلك.

- متى قال ذلك؟

- أخبرني بذلك للتو، عبر الهاتف.

- حسناً، لكنني سأنتظر إلى أن يصل البديل.

ـ لا ، عليك المغادرة الآن. إنها أوامر الرئيس. يريد أن يبقى واحد من رجاله هنا.

متى عليّ أن أعود؟.

ـ أبداً.

ـ ماذا؟

- أنت لن تعود.

أخذ بعض المال وأعطاه لنعيم. وقال له: ستحصل على بقية حصتك لاحقاً. لقد انتهى دورك في هذا.

سأل نعيم الجوعان:

أحقّاً سوف أحصل على كامل حصتي.

ـ نعم، سوف تحصل عليها كلها حين تنتهي العملية. قرر الوالد دفع الفدية. انطلق الآن.

غادر نعيم في ذلك اليوم.

وهنا توقفتُ عن متابعة روايتي.

قالت جنفييف:

- أهذا كل شيء؟

ـ لا ، لكن هل بقي لنا الوقت؟

ـ نعم، نعم، تابع.

ـ حسناً، غادر نعيم، لكنه تسلق تلّة مجاورة وراقب المكان.

وسرعان ما جاءت سيّارة، وركنت أمام المنزل. كانت ملأى برجال جرداق الذين جاؤوا لتسلُّم الصبي. أطلق أبو رورو النار على الرجل الأول الذي دقّ الباب، ثم أوصده، وركض عائداً إلى غرفة النوم، ودفع بالصبي تحت السرير. أغلق جميع الستائر، ثم عاد وفتح الباب، وطأ خارجاً وهو يُفرغ مسدسه، يطلق النار والدموع في عينيه. ردّ رجال جرداق على النار، وقتلوا أبا رورو، وتم تحرير الصبي. قُتل أبو رورو لأنه وقع في غرام عيني الصبي الزرقاوين... لأنه أراد الاحتفاظ بالولد، ولم يرد تسليمه إلى جرداق ورجاله.

- ونعيم، ألم يعرف أحد في شأنه؟

- لم يعرف أحد بتورطه سوى الصبي وأبي رورو. والصبي لم يخبر قط. رأيت نعيم قبل أن أغادر بلادي. وأخبرني قصة موت أبي رورو.

تنهّدت جنفييف. ثم سألت: ما اسم أمك؟

سألتُ متفاجئاً: اسم أمي؟.. لكنه لديك... مدوَّن في ملفّك.

- هو في الحقيقة كذلك، لكنني أريد أن أسمع كيفية لفظه.

- مندوزا.

- هل تتصل بمندوزا من حين إلى آخر.

- إنها متوفاة.

صمتت جنفييف لدقيقة. ثم سألت: كيف؟

ـ مرضت.

ـ متى؟

ـ أخيراً.

ـ كنتَ هنا في كندا؟

ـ نعم.

ـ أخبرني بالمزيد.

ـ تلقيتُ اتصالاً هاتفياً.

ـ ممن؟

ـ من شقيقتي.

ـ تلك التي لديها الطفلة.

ـ نعم.

ـ أكانت تبكي؟

ـ بالتأكيد.

ـ ماذا قلتَ؟

ـ لا شيء.

ـ هل بكيتَ؟

ـ لا، لم أفعل.

ـ ألا تبكي أبداً؟

ـ لا يمكنني أن أتذكّر أنني بكيت. لكن لا بد من أنني فعلت عندما وُلدت وتم سحبي من بين فخذي مندوزا.

ـ هل تشعر بالحزن من أجل أناس آخرين؟

لم أجب عن هذا. لم أعرف ماذا أقول. فكّرت في أننا قد تجاوزنا بالفعل هذا المستوى من الحميمية. لاحظت أن الأزهار التي جلبتها لجنفييف قد ماتت بالفعل، ذبلت في الإناء الأزرق وراءها.

أخيراً سألتْ جنفييف: ما الذي تفعله شقيقتك الآن؟

ـ تعمل في متجر.

ـ أين؟

ـ هناك، في الديار.

ـ أي نوع من المتاجر؟

ـ متجر ألبسة. إنها تبيع الثياب.

ـ وأين طوني؟

ـ غادر إلى البرازيل.

ـ لم تتمكن، إذاً، من قتله؟

ـ لا.

ـ كيف حصلت شقيقتك على الوظيفة؟

ـ قصة طويلة.

ـ أخبرني. فأنا أحب القصص الطويلة.

ـ إذا أصررتِ، يا دكتورة.

ـ جنفييف.

ـ نعم، جنفييف. كما ترين، يا جنفييف، مرّ طوني بمنزل أهلي يوم أحد، وكان والدي غائباً. كان صيفاً، وجميع الجيران على شرفاتهم. رأيته من شرفتنا يركن سيارته في الشارع. وقفنا جميعنا، وهرعت شقيقتي لتبديل ملابسها. كان طوني في كامل أناقته، صاحياً، وحليق الذقن. هرعت إلى غرفتي وأخذت مسدسي. ثم سرت عبر غرفة الجلوس ووافيته عند الدرج. نكّصت مسدسي بعض الشيء. سألته إلى أين يعتقد أنه ذاهب، لكنه لم يجب واستمر في صعود الدرج. عند هذا الحد كانت شقيقتي ووالدتي قد تبعتاني إلى الباب. وقبل أن يتمكن من اجتياز العتبة، مددتُ يدي التي تحمل المسدس ووضعته في وجهه.

قال: تنحَّ عنِ الطريق يا ولد.

لمجرد رؤية المرأتين المسدس، شرعتا في الصراخ، وجلجل صوتاهما عبر الجدران والأبواب الخشبية القديمة، وأخرجتا الجيران من فوقنا وتحتنا. راقبوني ألعن ابن الحرام، وأقول له إنه لا يستطيع أن يأتي وينتهك حرمة منزلنا. تجاهلني وطلب إلى شقيقتي أن تأتي بالطفلة وبالحقيبة وتعود إلى المنزل. أصبحت شقيقتي هستيرية.

خرطشتُ المسدس، وأطلقت رصاصة من فوق رأس طوني. زعقت جميع نساء المبنى وأمسكن بأولادهن وهربن. ارتدّ صدى الرصاص بصوت عال، لكن طوني لم يهتز له جفن. طلب إلي رجال المبنى أن أهدأ، وأضع المسدس جانباً. وتراجع هو وقال إنني سأندم على ما فعلته، ثم غادر.

نزل جوزف خوري، وهو رجل متقدّم في السن لم يتزوج قط ويقيم في الطابق العلوي، وتحدّث إلي. قال: إن هذه ليست الطريقة الصحيحة للتعاطي مع الأمور. انظر ما تفعله بأمك وشقيقتك، انظر إلى الأطفال والنساء من حولك. جميعهم مرعوبون. عليك أن تتمتع باللياقة ولو أنك في حرب. أنتم يا فتيان هذه الأيام تعتقدون أن في وسعكم القيام بما يحلو لكم.

ولما رأت والدتي، آنذاك، تأثُّر جوزف خوري من أجلي، دعته إلى فنجان قهوة. وبينما كان الرجل يدخل منزلنا، خرجت أختي من غرفتها باكية. ناحت وصاحت: أطلق النار عليّ! أَطلق النار على الجميع! أَطلق النار على طفلتي أيضاً!

وصفعتني على وجهي.

دفعتها لأعيدها إلى غرفتها، ورددتُ لها الصفعة، وأخذت الطفلةُ بالعويل.

فرّق جوزف خوري بيننا، وحاول تهدئة الجميع، بينما اكتفت أمي بالوقوف والمراقبة، في حين أن الرجل الكبير السن طلب مسدّسي. قال: أَعطني المسدّس، يا بني.

أعطيته إياه. وأنا لست متأكداً لماذا. وضع المسدس على الطاولة وبسط ذراعه من حول كتفيّ. أخذني إلى الشرفة، وقال: اسمع، أنت رجل الآن. أعرف أنك تشعر أن من واجبك أن تحمي عائلتك، لكن العنف ليس السبيل الوحيد لذلك.

سألتني جنفييف: هل كان الرجل يعرف والدك؟

ـ كان يعرف عن والدي.

ـ ماذا عن والدك؟ ما الذي عرفه؟ لا أنتظر، انسَ الأمر الآن. سنتحدّث فيه في وقت آخر. أخبرني بما حدث.

ـ بقيت شقيقتي في المنزل. ولم يظهر طوني مرّة أخرى، لفترة.

ـ هل أرهبته؟

ـ لا، لقد اختفى. لم يعرف أحد أين أو لماذا. تعوَّد، حتى عندما كانت شقيقتي لا تزال تعيش معه في منزله، أن يختفي مرّة كل فترة.

في إحدى الليالي، وأنا عائد في وقت متأخر، وأصعد الدرج، شاهدت شقيقتي تنزل من الطابق الذي يعلو طابقنا.

سألتُها: أين كنتِ؟

قالت: فوق. تعرّفت في وجهها إلى نظرة ملأى بأحلام من الرجال العراة وخطط يائسة للتحرُّر، للهرب إلى شيء أكثر هدوءاً، وغنى.

مضيت مباشرة إلى الطابق العلوي، وقرعت باب جوزف. فتحه بابتسامة عريضة متوقعاً شخصاً آخر. وعندها عرفت، عرفت ما يجري، لأنه ارتاع لمّا رآني. بدا سعيداً، أصغر عمراً ومحبوباً ويتنزّى نشاطاً، لأن هذا ما تفعله المداعبة بالعجَّز. نظرتُ في عينيه وقلت: إذا لم تُرد أن تكون وحيداً، أيها العجوز، فعليك الاهتمام بمن يوفّرون لك الصحبة.

هزّ برأسه. فهم.

بعد مرور أيام قليلة على هذه الحادثة، شرعت شقيقتي في العمل لحساب جوزف في متجر الملابس العائد إليه.

سألت جنفييف:

ناما معاً، إذاً؟

ـ ماذا تعتقدين؟

ـ صحيح. وماذا كان شعورك حيال ذلك؟

ـ لا شيء. لم أشعر بشيء.

ـ لا شيء؟

ـ كيف يُفترض بالأشقاء أن يشعروا؟

ـ نعم، كيف؟

ـ أنا أسألك، يا دكتورة... جنفييف، كيف يفترض بنا أن نشعر؟

ـ هذا يتوقّف...

- علامَ؟

ـ حسناً، ماذا تعتقد؟

- أظن أن الأمر متوقف على الطبقة.

ـ الطبقة؟ نعم، يضطر الفقراء إلى المساومة.

ـ إننا نعرِّض أحباءنا للخطر.

بقيت جنفييف صامتة لبرهة، ثم قالت: عليك أن تطلعني على عمليات سطو مستقبلية تخطِّط لها، أليس كذلك؟

ـ لماذا؟

ـ في الحقيقة، هذا أمر علينا أن نتحدّث في شأنه.

ـ لكن، هل سيبقى هذا الحديث طي الكتمان؟

ـ نعم، لكنه أيضاً أمر يجدر تقويمه.

ـ لماذا؟

ـ لأن الحديث هو جزء من علاجك.

- ألأنه مثير؟.

ـ لمن؟

ـ لجنفييف.

- يمكنك المغادرة الآن. أعتقد أننا انتهينا اليوم.

* * *

ظلّت شقتي باردة طوال الأسبوع. نزلت يوم الأربعاء وقرعت باب جيراننا الهنود. فتح رجل الباب، وسألته إذا كانت لديه أي تدفئة، فقال:

- ضئيلة جداً، ضئيلة جداً. هذا المالك بخيل جداً، بخيل جداً.

- أليس من الأفضل للمرء أن يكون في الهند؟

احتجَّ وقال: من الباكستان. الباكستان.

عدت إلى شقتي. بُعيد ذلك، شعرت بحكاك في ظهري. انحنيت وحاولت بلوغ الحكة بذراع طويلة. خمشتها، لكنها بقيت تحكّ. مضيت إلى المطبخ، التقطت ملعقة خشبية، ودفعتها من تحت قميصي، في شكل متواز مع عمودي الفقري. إلا أن الملعقة كانت مستديرة، جديدة، وناعمة جداً. لذا، وضعتها على حافة المجلى وضغطت عليها. انكسرت، وبات لها الآن طرف أكثر خشونة. حرّكت الملعقة المكسورة صعوداً ونزولاً على ظهري إلى أن تأذّيت.

نظرت عبر النافذة. كان الخارج لا يزال أبيض. غطّت بقع من الثلوج المتقطّعة الجبال البعيدة. فكّرت في أن الجو بارد جداً في هذه المزبلة. وإذا سرت في الخارج وحرّكت ساقيّ، فربّما تمكّنت من تدفئة عظامي.

إلا أن ما أجهدني أكثر من البرد هو الجوع. عدت مرّة

أخرى إلى الطابق السفلي، وقرعت من جديد باب جاري الباكستاني. فتح، وقال: بمَ أساعدك؟

- أحب رائحة طعامكم. هل بإمكانك إعطائي بعض وصفاتك، وربما بعضاً من طعامك لأتذوّقه؟

قال الرجل: «طبعاً»، وابتسم. أطلَّت زوجته خفية من الوراء وقد غطّت رأسها بوشاح حريري. ونشب أولاده عن الأرض وحدّقوا إلي من وراء ثوب أمهم الطويل.

قال الرجل: عليك أن تشتري التوابل، الكثير من التوابل.. لكن ألست تحبّه معتدلاً؟. ضحكت امرأته ضحكة خفيفة من الخلف. وكافح أولاده للهروب من خلال الباب المفتوح ونزولاً على الدرج، لكن المرأة أمسكت بهم وجرّتهم إلى الداخل.

قلت: التوابل جيدة، فهي تبقيك دافئاً.

ضحك جاري.

قلت: لم أذق نوعية طعامكم بعد، لكن الرائحة زكية جداً.

غطّت المرأة أسنانها بيدها، وضحكت من جديد.

قال الرجل: «انتظر». وتحدّث مع زوجته بلغة أخرى. اختفت، وعادت بقِدْر كبيرة من الطعام.

قلت: آه.. هذا كلّه لي؟ إنه لسخاء ما بعد سخاء، أنا ممتن جدّاً فليضئ القمر لياليك.

- نعم، تذوّقه، وإذا أعجبك، عد لأزوّدك بأسماء التوابل وكيفية إعداد الطعام.

صعدت إلى طابقي، أعددت السفرة، وشرعت في الأكل. ثم هرعت لملء كوب من الماء من الصنبور لإطفاء حريق لساني. الطعام حار جدّاً. احتَرَقَ داخل فتحتي أنفي وأبكاني. شعرت وكأن علي الحصول على جرّة صغيرة، أجمع فيها دموعي، وأذهب إلى مكتب جنفييف، أفتح الباب، وأريها الزجاجة، وأقول: انظري أهذا ما تريدينه؟ انظري. هذه دموعي. أيجعل مني ذلك سليماً، طبيعياً، معافًى؟

فجأة بدا الثلج خارج نافذتي جذّاباً. فكّرت في أنني أستطيع الذهاب إلى الجبل، ولعق الثلج الأبيض لتهدئة لساني المحترق. وأستطيع، وأنا أفعل ذلك، أن أشم على الثلج الأبيض الآثار الصفراء للكلاب المطيعة التي تُعلَف دائماً بشكل جيد.

الطعام شديد الحرارة عليّ، لكنه طعام لا أستطيع رميه. تركته على المجلى، فلم تقترب منه الصراصير حتى بشهيتها السوائية الهائلة. وفكّرت في نهاية الأمر: ماذا لو حللته في الماء وحوّلته إلى حساء؟ يا للفكرة. ملأت قدراً بالماء، تركته يغلي، ورميت الطعام فيه. غلى المزيج لفترة. تركته يبرد ثم حاولت تناوله. الأمر أفضل ما دمت لا أشرب السائل.

اللعنة! إنني أنسى من جديد وضع الجوربَيْن في السرير. ثم فكّرت: ماذا لو غليتهما وصنعت منهما حساءً؟ فرائحتهما، في النهاية، أشبه برائحة الجبن الأزرق. ها ها ها! شرعت في

الضحك، ولم يمكنني التوقّف. حلّ بي شيء وتفجّرت الدموع في عيني من جديد، من الضحك هذه المرّة. فكّرت في ضرورة أن أجمع دموعي في قوارير توابل صغيرة، ثمّ ألصق عليها بطاقات: دموع الضحك، دموع الطعام ذي التوابل، دموع الألم، دموع ذكريات الحنين، دموع القلوب المتكسّرة، دموع الفقر. لقد فعل الفينيقيون القدامى ذلك. جمعوا دموعهم ودفنوها تحت الأرض. عامت مملكتهم كلّها فوق قوارير صغيرة من الدموع قبل أن تمخر سفنهم عباب البحار. أتساءل لماذا تطلب جميع الثقافات الدموع. صناعة الدموع! تجب رؤية الدموع ودفنها من ثم. فحتى جنفييف أرادت دموعي! في دياري، عندما يموت شاب عازب، يرقص الناس حول نعشه وهم يغنون أغاني الأعراس، ويبدو أن هذا يستدرّ دوماً الكثير من الدموع. ورشا، المرأة الأولى التي عرفتها، أغرقتني بالدموع في المرة الأولى التي نمنا فيها معاً. يومها لم أعرف أي نوع من الدموع هي. لم أسأل. التقينا في ملجأ بنايتي، قبّلتها، وحركّت ردفيّ بإيقاع مشحون. تعلّقت بشعري وشهقت بالبكاء. وأنا أعرف الآن أنها دموع الحب. أعرف الآن أن شقيقتي عندما عاد طوني وجرَّها من شعرها إلى الشارع، وتركت وراءها أثراً من الدموع، كانت دموعها تلك دموع ألم.

أخذت القِدْر، في وقت لاحق من النهار، لأعيدها إلى جاري في الطابق السفلي. كان الرجل قد ذهب، لكن زوجته فتحت الباب. ضحكت، وتفادت النظر إلى عيني. أعطيتها القدر، شكرتها وأنا أنحني، وأنظر إليها طوال الوقت، ثم

عاودت الضحك، وسحبت ابنها إلى وراء الباب، قائلة: آمل أن تكون قد أحببته؟

- نعم، نعم.. لقد سرى في داخلي لطيفاً كالحساء.

* * *

سرتُ يوم الجمعة إلى العمل. توقّفت كالعادة عند مقهى أريستا، لأشتمّ في الجوار، وأرى أيّاً من اللاجئين الوافدين قد ترك أثراً أصفر على حافة مقعد، أو رجل طاولة، أو على الدفة، إلا أن أياً من كلاب تلقّي المساعدة لم يكن موجوداً. يُحتمل أنهم، عندما يشمّون رائحتي، يختفون. وأنا لا أزال أشكّك في سبب ظهوري هناك، برغم أنني لست من المرحَّب بهم، فإن اختياري الأماكن غير المرحّبة، بات عادة لديّ. أجد الأمر ساحراً: تشوُّشات اللاجئين وشكاويهم. وما يسلّيني هو كبرياؤهم المعلن برغم عوزهم. أجد الأمر محبّباً. يا للكلاب الضائعة! لا يعرفون ما هو لونهم. لا يمكنهم أن يقرِّروا إلى أي نسل ينتمون. يجلسون في وساختهم الخاصة، ويشعرون بالتقزّز من بولهم. يرشون آثاراً من حياتهم هنا وهناك، لا لسبب إلا للحصول على الوهم بتحديد منطقتهم والتمسُّك بأماكن زائلة. الكلاب التعيسة! جل ما يمكنهم فعله هو النباح على الماضي، ويضيع نباحهم بين دخان التاكسي وسجائرهم الضامرة. وهو ما يذكّرني: عليَّ أن أزور البروفسور في وقت ما من هذا الأسبوع.

تابعت السير عبر سانت لورانت. تجاوزت موقف التاكسي عند زاوية برانس أرثور وسانت لورانت، إلى جانب المصرف

الأخضر تماماً. هناك تعرّفت الرجل الذي جلس إلى طاولة شوهره ليلة زرت النادي الليلي. إنه يدخّن في البرد مع بضعة سائقي تاكسي، بينما تدور محركات سياراتهم في مكانها، وتُخرج سيولاً صغيرة من دخان العادم من أنابيبها الخلفية. لم يعرفني الرجل، ولا عجب، فها أنا مرة أخرى، كالسارق، ألفّ شالي حول فمي. توجَّهت مباشرة إلى الرجال، وسألت عن الوقت. سحب أحدهم، ببطء، رسغه من كمّه، وقال إنها الثانية والنصف. لا يزال أمامي بعض الوقت قبل موعد ظهوري في العمل. لذلك عبرت الشارع لأراقب رجل شوهره. عاد كل سائق، بعد إنهائه سيجارته، إلى سيارته. وكانت سيارة الرجل هي الثالثة في صف التاكسيات. دققت على نافذته، ففتحها ببطء. كشفت عن وجهي وقلت: أعرفك.

لم ينبس الرجل بكلمة. تطلّع بقوة في عيني، هزّ برأسه نافياً، وقال: أنا لا أعرفك. أإيراني أنت؟

ـ لا، أنا صديق لشوهره.

أي شوهره؟ أنا أعرف اثنتين.

ـ شوهره شيرازي.

هزّ برأسه موافقاً.

قلت له:

رأيتُك في الملهى الليلي الأسبوع الماضي.

ـ نعم كنت هناك، وبرغم ذلك لا أذكرك.

- ثمة عتمة وضجيج كانا يخيّمان.

ضحك وقال:

نعم، نعم، الكثير من الضجيج.

- هل أنت قريب لشوهره؟

سألته وأنا أنفخ اللهاث على أصابعي أشبه بإله بارد يخلق العالم، وأفرك بيدي أشبه بسارق سعيد، وأُدخل رأسي بين كتفي مثل سلحفاة، مشمشماً مثل مدمن، مرتجفاً كشبح، مستعلماً مثل محقّق في محاكم التفتيش الإسبانية، حالماً براقصة فلامينغو تدفئ قلبي.

قال الرجل:

تعال إلى داخل السيارة إذا كنت تشعر بالبرد..

قفزت إلى المقعد الأمامي، وعرّفت بنفسي.

هزّ الرجل برأسه، لكنه لم يخبرني باسمه.

قلت:

في الحقيقة أردت ألتقيك ليس إلّا، لأن فرصة تعارفنا لم تكن متاحة تلك الليلة.

ابتسم وقال: أنت إذاً صديق لشوهره. أي نوع من الأصدقاء؟

ـ صديق حميم.

ابتسم وقال: نعم، فلشوهره أصدقاء كثيرون.

سألته إن كان يعرفها منذ زمن طويل.

- نعم، منذ كانت بهذا الطول..

وأنزل يده إلى أرضية السيارة.

ـ في إيران؟

ـ نعم. كنت صديقاً لعائلتها. عرفت خالها. سُجنّا معاً.

ـ الموالي؟

- لا، لا، قبل ذلك. الموالي سجنونا بعد ذلك..

ضحك وتابع: تعرّضنا للتعذيب على أيدي الطرفين. أنا نجوت و... توقّف.

ـ خالها؟

- خالها.. هزّ برأسه، وقال: اختفى..

سألني: ماذا تفعل؟

- أعمل في مطعم الآن، تعرف كيف هي الأمور.

- آه نعم، أنا نفسي كنت صحافيّاً، وأصبحت الآن سائق تاكسي.. وضحك من جديد.

ـ لا يزال في إمكانك أن تكون صحافياً.

ـ لا، لم أعد أريد إتعاب نفسي. أنا الآن سائق تاكسي.

هذا ما أنا عليه. اسمع، دعني أخبرك حكاية الشاعر الفارسي العظيم فريد العطار. اعتقله المغول. وفي أحد الأيام جاء شخص ما وعرض على آسريه ألفاً من الفضة في مقابل العطار. احتجّ الرجل وطلب إلى المغولي ألا يبيعه بذلك السعر، لأنه سعر غير مناسب. اقتنع المغولي، ولم يبعه. جاء شار آخر، في وقت لاحق، وعرض شراء العطار لقاء كيس من التبن. نصح العطار المغولي ببيعه لأن هذا ما يساويه فعلاً. فقطع المغولي رأس العطار. . . ماذا تعمل في المطعم؟

- نويدل، وهو ما يذكّرني بأنني سأتأخّر. . وأنت ما اسمك؟

- مجيد.

مددت له يدي للمصافحة، ثم تابعت سيري إلى عملي. تشكّلت الأرض من نتوءات جليدية. زجاج زلق، سميك وشفاف. إلا أن كعب حذائي اللعين كان مسطّحاً كلّياً. لم يبق لنعلته أي قدرة على التمسّك. والنعلة، من أساسها، ناعمة، ما جعلها أكثر انزلاقاً. بسطت يدي، وأنا أسير فوق النتوءات الجليدية أشبه بطائرة تمر فوق بهلوان سيرك يسير على حبل بحذاء للرقص بينما عملت الفيلة من تحته لقاء الفستق، وأخذت السعادين بالتصفيق.

مررت بامرأة ملتفّة كلها حتى مقلتيها. بدت عيناها فقط. أمسكتُ بيدها. توقّفتْ. قلت: عرفتك، يا صاحبة العينين الخضراوين المراوغتين!

نظرت المرأة إليّ. كانت باردة، وترتجف، والبخار يخرج كالدخان من حلقها.

قلت لها: التقينا منذ فترة مضت، في ظروف تعيسة.

أنزلت المرأة وشاحها. وعندما رأيت شفتيها تيقنّت من أنها امرأة من المصحّ. كم أنه من غير المألوف رؤيتها ملتفّة طوعاً. فلطالما كانت توّاقة إلى خلع ملابسها. يطاردها الممرضون عبر الممرات، وينتهي بها المطاف دوماً في غرفتي، جالسة على سريري، عارية كلّياً، وعيناها تراوغان بتحديقة فارغة.

نظرت إلي بقوة الآن، لكنها لم تعرفني.

قلت: كنت في ذلك المكان معك.

- نعم..

وحَدَسْتُ بأنها عرفت ما الذي أتحدّث عنه.

قلت:

جلستِ على سريري. كنت تهربين دوماً، وينتهي بك الأمر في سريري..

وشددت بيدي على يدها.

نظرَتْ في عيني، ولم تقل شيئاً لبرهة، ثم ابتسمت وقالت: ربما لأنك صاحب هاتين العينين المكايدتين الجميلتين.

- ربّما لأنني كنت الأكثر هدوءاً.

- أو ألطفهم.. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى العمل، وأنتِ؟

- إلى العمل؟

- هل أنتِ أفضل حالاً؟

- نعم، مع ست حبات دواء في اليوم، وثلاث استشارات في الشهر...

ضحكت وتابعت: «عليَّ أن أذهب. تعال في وقت من الأوقات، فأنا أعمل في متجر الألبسة عند زاوية سانت لورانت ودولوث. تعال والتقيني إذا شئت..

وأمسكت بيدي وقبَّلتْ وجنتي.

* * *

عملتُ طوال فترة المساء كالعادة، ومررت صباح اليوم التالي من جديد بمقهى أرتيستا واسترقت النظر من خلال النافذة الأمامية الكبيرة. البروفسور هناك يقرأ الصحيفة. تجاوزت المقهى وأنا أتراقص سعادة واستباقاً، وهرعت نحو منزله. بلغت بي الإثارة حدّاً أنني تجاوزت الضوء الأحمر، وتعرّضت لشتائم سائقي التاكسي، وركبت بقعَ الثلج الزلقة مثل متزلّج خالي الذرع على أحد الشواطئ.

يعيش البروفسور في مكان أصغر من مكاني. والسطو على منازل الطبقات السفلى سهل، وهو في الحقيقة نزهة. طريدة سهلة. كان مدخل شقة البروفسور نصف السفلية مغتماً وتفوح منه الروائح. وفي الداخل، تهدر ثلاجة قديمة كبيرة الحجم مثل آلة

عبور الزمن. لم أحتج حتى إلى فتحها، فأنا أعرف أمثاله. بل إن البقرة ستتوقف، وتغطي أثداءها لو عرفت أنه سيتم نسيان أكثر عصائرها قيمة ليفسد ويتحوَّل إلى كائنات مختلفة. إلا أن كل شيء يشغل مكانه تماماً خارج الثلاجة. حتى أن الصحف، التي يسرقها البروفسور من المقهى، مكوّمة بالترتيب الزمني. إنه مكان بسيط، مع غلاية للشاي على فرن المطبخ الكاذب للبروفسور، وخزانة صغيرة، وقد تم وضع فردتي حذائه الصيفي بترتيب، جنباً إلى جنب، أشبه بشخصين مفقودين أُطلقا عبر سفينة فضائية.

شرعت في الضحك، وسرعان ما أخذت أضحك على نحو هستيري. وجدتُ أن من الممتع أن مكان البروفسور يبدو أشبه بغرفة مرتبة لتلميذ في أكسفورد. أقلامه، على تلك الطاولة الصغيرة، مبريّة ومرتّبة. لا يوجد تلفاز. بحثت عن راديو، وعندما وجدته، غيّرت، مكايدةً، قُرصَ المحطات. من شأن هذا أن يُخرجه عن روتينه وطوره. تخيّلته عائداً إلى المنزل، معلّقاً معطفه في مكانه المعتاد، مديراً الراديو ليسمع الأخبار بالفرنسية، متمتماً من ثم لنفسه ومشتكياً في شأن العالم. لكن، ها ها! إن عالمه سيتغيّر. نظام منزلي جديد، يا صديقي! اخترت محطة هارد روك، وأدرت الراديو ورفعت الصوت إلى الآخر. ضمّت أدراجه مجموعة من التحف الرخيصة، أشياء لا بد من أنه احتفظ بها من إقامته في العاصمة الفرنسية: خريطة لمترو باريس، بضع بطاقات بريدية أرسلتها إليه امرأة من معارفه القدامى، اسمها ليديا، لا بد من أنها زارت البروفانس وتجولّت سيراً عبر شوارعها الرومانسية مع متاجرها القديمة ونوافذها

الملونة والأبواب الخشبية للمقاهي الفرنسية. لا بد من أنها الـ Grand amour للبروفسور. ثم عثرت على فيض من المراسلات. إنها كنز! سرقت بعضاً من رسائله وأنا أفكّر في أني سأتمدد على سريري وأدخن صاروخاً من الحشيشة وأقرأ حياته الغرامية، بل إنني سأصبح حتى أكثر نشوة من رائحة الحبر ومن الرائحة الخفيفة لآثار أصابعها في كل سطر. وجدت في خزانة البروفسور حقيبة قديمة خضراء أثارت فيّ صور القطارات المغادرة، ومعاطف المطر، وامرأة جميلة بوشاح للرأس وحذاء مروّس تنتظر على رصيف المحطة. فتحتها سريعاً. قفزت الأقفال، شبه الصدئة، إلى فوق أشبه بعينين تُفتحان من حلم مزعج. رُتّبت، في داخلها، الأوراق والمغلّفات في حُزَم، وقد جمعت معاً بإحكام بواسطة أسلاك انضمت بعضها إلى بعض في عقدة من فوق. وُضعت تحت كل عقدة قطعة من الورق تحمل تصنيفاً. اخترت تلك التي على الرأس: يقول التصنيف: «الهجرة». حللتُ الرزمة. احتوى أول مغلّف أصفر كبير على جواز سفر للبروفسور، سميك وأخضر. بدا في صورته أشبه بثوري مثقّف، برغم أن سالفيه جعلاه يبدو أشبه بمطارد للسائحات في حقبة الستينيات، في العالم الثالث.

كُتبت على المغلّف الثاني عبارة: «التعذيب». تضمّنت بضع صور شعاعية، رسالة رسمية من منظمة العفو الدولية موجهة إلى البروفسور، وغير ذلك من الوثائق بالعربية. احتوت الرزمة الأخرى على صور فوتوغرافية ووثائق مصرفية، بينما ضمت الأخيرة قصاصات صحف.

أقفلت الحقيبة، وأعدتُها إلى الرفّ، وسرت إلى غرفة النوم. دسست يدي تحت فراشه، وعثرت على عددين من مجلة «بلايبوي». فتحتهما، ووجدت أن صفحات عدة متلاصقة كالغراء. «يا للمستمني!»، صرخت ونترت رأسي بصخب على موسيقا فرقة الروك على الراديو. أعدت المجلتين إلى مكانهما، وتوجّهت مباشرة إلى حمام البروفسور. غسلت يدي، ونظرت في خزانته. عاينت ماكينات حلاقة ذات شفرة واحدة، بعض الأسبرين، وبضع وصفات طبية. ثم عدت إلى غرفة النوم، ودسست يدي تحت السرير من جديد، سحبت المجلتين، مزّقت منهما بضع صفحات نظيفة لنساء عاريات، طويتها في جيبي، وانسللت خارجاً. سرت مبتعداً، ويدي تبحث عن الدفء وتحرّك وتتلمّس ما قد حدث وانتهى إلى جيبي.

* * *

نمت تلك الليلة، بعد العمل، مع صور لنساء عاريات، صور سحبتها من جيبي كما يسحب الساحر الطيور من قبعته ليسلّمها إلى مساعدته الجميلة، التي لا يهم عدد المرات التي يحاول الساحر تقطيعها بالمنشار داخل علبته السحرية، فهي تخرج دوماً سليمة، قطعة واحدة، تبتسم بسعادة على المسرح، تحت الضوء. تصفيق، تصفيق، تصفيق! إلا أنني، على عكس ذلك البروفسور المهمل، تأكدت من عدم مسّ أي من المني، الذي قُذف تحت لحافي، الصفحات المصقولة لهذه الأجساد المصنّفة للراشدين فقط.

فكّرت: كم كان الأمر جنونياً، حتى عندما تمددت السيدة الجميلة في سريري في المستشفى، بأن جل ما أردته هو تغطيتها بلحافي وتجفيف شعرها الرطب بالملاءات القطنية التي تنعّم قساوة الأسرّة المعدنية. لا بد من أن نور الفلوريسانت الخفيف هو الذي جعل كل شيء مفلطحاً، لا ظلّ له في بيت المجانين ذلك. ولا بد من أنها الأضواء القاسية والظلال الدرامية في تلك الصور هي التي أثارت اضطرابي، وجعلتني أهتز وأرتج مع صور ليدي ممسكة بأفاع لزجة، وجعلتني من ثم أنفر مما تطاير وأحدث بقعاً داخل سريري.

نهضتُ وسرتُ مباشرة إلى الحمام، واغتسلت. ثم لففت نفسي بمنشفة أرجوانية وواجهت النهار. فتحت الستائر على مصاريعها، وانتظرت مسرح الضوء القاسي أن يُعميني على الخشبة بينما أنا ألوّح بيدي وأنحني لهتافات أشباح الحضور وتصفيقهم. لكن، لمفاجأتي، فإن ضوءاً ناعماً ومستوياً مهّد الجبال في البعيد، وسوّاها بالشوارع الرمادية تحت نافذتي. فما من ظلّ يُرى في العالم اليوم. فكّرت في أنه اليوم المثالي للذهاب ورؤية امرأة المستشفى من جديد. سأطلب إليها الخروج والجلوس على مقعد، وأن تُهمهم إذا لم تشعر بأنها تريد الكلام، وتتمايل إلى الأمام وإلى الوراء إذا شعرت بالبرد، وتدع شعرها يبتلّ من الثلج.

ابتسمت المرأة عندما شاهدتني أدخل المتجر. وقالت: علمت بأنك ستأتي اليوم.

ـ كيف عرفت؟

ـ رأيتك.

ـ أين؟

أشارت إلى جبينها: لقد تذكّرتُ نوعاً ما سريرك في المستشفى العقلي. أنت من اعتقدت أنك طائر.

قلت محتجّاً: لا، ليس طائراً. أنا لم أطر قط. أسير دوماً على الأرض. ما من وهم بالطيران. أنا ألتصق بالأرض.

سرتُ حول المتجر. كانت المرأة وحدها، وأنيقة الملبس. تبعتني. احتوى المتجر على القليل القليل من البضاعة، وكلها غالية الثمن. كل شيء معلّق على رفوف قليلة، ويعطي المتجر شعوراً بالفراغ.

قلت ضاحكاً: أنت محاطة بالألبسة.

أجابت: نعم... وضحكتْ بدورها.

ـ اعتقدتُ أنك تكرهين الثياب.

قالت: أكرهها.. وضحكنا كلانا من جديد.

ـ أليس الأمر ثقيلاً وساحقاً؟ أقمشة وخرق؟

هزّت المرأة برأسها موافقة، ونظرت مباشرة في عيني، وهي تبتسم.

قلت: مثل الجاذبية، مثل الشمس.

هزّت برأسها. ثم أمسكت بيدي وقالت: لا تبتلعها، لا تأخذها.

سألت: الشمس؟

ـ لا، تلك الأشياء الصغيرة الملوّنة التي يقدمّونها إليك عندما يأتون إلى قربك مرتدين المآزر البيضاء.

ـ الحبوب؟

- نعم، لا تأخذها أبداً. ستحولّك إلى ما لستَ عليه. ستجعلك سميناً، ومريضاً، وأخضر كالخُضَر، وأصفر كالشمس. وإذا اشتكيتَ فسيسحبون شيئاً عن الرف، يحمل اسم مصمّمه، ويعطونك قياساً آخر ولوناً آخر تجرّبه، وسيجعلونك سعيداً وبطيئاً، وستعتقد أنك غير موجود ما لم تنظر إلى نفسك في المرآة. ستختفي، والشيء الوحيد الذي تستطيع رؤيته هو ملابسك.

- عليّ أن أذهب؛ فالطابق السفليّ في انتظاري.

قالت، وأنا أعبر الباب وأعود إلى المدينة الزرقاء: عد في وقتٍ من الأوقات، بأي طريقة وتحت شكل أي كائن من الكائنات.

طلب رب عملي إليّ تلك الليلة أن أنظف سيارته. قال لي: أَخرج جميع الأوراق الموجودة في الداخل، وخذ قطعة من القماش وامسح لوحة أجهزة القياس.

فهو يكره أن يرى موظفاً يتسكع في المكان لا يفعل شيئاً. إنه مصدر حقيقي للإزعاج. وهكذا فإنني، عندما لا يكون

المطعم مشغولاً، مثل الآن أقوم بتجفيف الأطباق ثلاث مرات، أرتِّبها وأعيد ترتيبها، أمسح الأرض النظيفة، أدلق الماء في المرحاض وأنظف حوضه، أو أمسك بالمكنسة وأفتلها على الأرض، وأنا أغنّي ألحاناً إيطالية في رأسي. وفي إحدى الليالي هبَّت عاصفة ثلجية في الخارج، فجاء إلي بصوته الخافت المهدّد وطلب إليّ تنظيف النوافذ من الخارج. لم أر في الحقيقة ما الفائدة من ذلك، في وسط العاصفة، لكنني قمت بالأمر. ثم ظهر زبونان، فتركني وشأني.

تأتي ابنته المراهقة في العادة وتبقى في المكان حتى حوالى السادسة، ثم تأتي والدتها بسيارة العائلة الفان وتقلّها. وكنت، عندما يكون الوضع مأموناً، وما من أحد ينظر، أقلّب لها عيني، أو حتى أغمزها. وفي إحدى المرات حرّكت لها خلفيتي هنا وهنا. أحبّت ذلك. أحبّت الالتفات. وكنت هذه الليلة في الطابق السفلي، أرتِّب فوط المائدة وأملأ زجاجات الصلصة، عندما رأيتها تأتي نازلة الدرج. ذهبت إلى المرحاض مباشرة، وبقيت هناك لفترة. وبخروجها من الحمام، أضاءت لمبةُ الممشى وجهَها وأعطتها ظلاً درامياً، جعلها تبدو أكبر سناً. كنت في الجانب المعتم من الممشى حيث تقطع الثلاجة المعدنية الأشعة الخافتة لضوء الفلوريسانت المتراقص. لم تلاحظني. رأيتها ترتب سروالها، ثم دسَّت يدها بسرعة تحت البلوزة إلى ثدييها ورتبت صدريتها. تجمّدتُ في الزاوية، تكومتُ على نفسي، واحدودبتُ، وراقبت. توقّفتْ، ورجعَتْ إلى الوراء، بعيداً عن الدرج. ثم استدارت سريعاً وعادت إلى المرحاض، وأقفلت الباب.

صعدتُ إلى فوق حاملاً أحد الصناديق. تأكدت من أن صاحب المطعم رآني، ثم عدت سريعاً وانسللتُ نزولاً إلى السفلي. قرعت باب المرحاض. لم ألقَ جواباً. قرعت من جديد وسألت: هل من أحد هنا؟ وما من جواب أيضاً.

وهكذا انتظرت. وعندما خرجت ابنة صاحب المطعم. وقفت حيث تكون رؤيتي ممكنة، عند طرف الدرج. وبينما هي تمر وتتجاهلني، همستُ: الجميع يفعلون ذلك.

توقفت، استدارَتْ فجأة، نظرت إلي، وقالت: يفعلون ماذا؟

ـ تعرفين. الحصول على فكرة سعيدة بين وقت وآخر. ليس ثمة ما ينبغي الخجل منه أو إخفاؤه، إنها الطبيعة.

ـ الطبيعة؟

ـ نعم، لا ينبغي لأحد أبداً أن يخجل من ذلك. الجميع يقولون لنا إنه سيئ، لكنه أمر كلّه جيّد.

همست لي: «أهو جيّد؟»، وشرعت في صعود الدرج. وعند الدرجة الثالثة استدارت وأحنت الجزء الأعلى من جسمها صوبي. ثم نزلت فجأة ووقفت أمامي مباشرة وقالت: لو أخبرتُ أبي بأنك تراقبني فسيقتلك.

تشابكت أعيننا.

قلت: أريد أن أرى. أرى ليس إلّا.. ثم يمكنك أن تخبريه كل ما تريدينه. فأنا على استعداد للقتل وعلى استعداد للموت.

قالت: «ليس هنا»، وركضت صاعدة الدرج.

عند نهاية الليلة، أخرجتُ المكنسة الكهربائية، أرخيتُ حبلها، وأطلقت الآلة لتطارد جميع الفتافيت والأرز التي سقطت على السجادة الحمراء، وتلتهمها. بدّلت الأغطية، وملأت المصابيح على الطاولات بالشموع. ثم ذهبت إلى المطبخ ومسحت الأرض. البلاط في المطبخ من القرميد الحقيقي، السميك والمربّع، وليس ذلك النوع البلاستيكي الذي يُعثَر عليه في المنازل الأميركية الشمالية. هذه القرميدات هي من النوع القديم الموجود في القصور الرخامية، وردهات الرقص الكبرى. ويوجد مصرف، في وسط المطبخ، تحت طاولة الطباخ. دفعت بالماء صوب المصرف واختفى مستأصلاً كل ما هو تحت السطح. عامت شحف من الخُضَر المنبوذة، وحبوب الأرز، وقشر البيض، والبازلاء، وتدحرجت على الأمواج أشبه بمراكب صغيرة. طاردتُ الماء، طوَّقته، هاجمته أحياناً من الوراء، وجابهته أحياناً أخرى من الأمام، وأنا أقوده مثل قطيع من الثور الوحشي عن جرف. ابتلع المصرف كل شيء، ولم تتم تصفية أي شيء، أو إعادة تدويره، أو طرحه بعيداً. فكل شيء جيد، وكل شيء طبيعي، وكل شيء مقبول من العالم السفلي.

انتظرت، بعدما انتهيت، أن يفرغ صاحب المطعم من عد ماله. دفن رأسه وراء البار ولحس إبهامه وهو يفلش الأوراق المالية، ويصلصل النقود ويقذفها. ثم قال: «تعال معي». قادني إلى الباب. هل تعرف كيف تشغِّل السيارة؟

ـ نعم.

- خذ هذا مفتاح باب السيارة، وهذا مفتاح المحرِّك. ابقَ فيها، حمِّها، وسأوافيك على الفور. .

وأقفل باب المتجر ورائي.

أزلت الثلج عن سطح السيارة وعن نوافذها الأمامية والخلفية، وجلست في داخلها، وأنا من جديد أفرك يدي مثل لص سعيد، مُنزلاً عنقي بين كتفي كالسلحفاة، ومشمشماً كالمدمن، ومرتجفاً كالشبح.

شرعَتْ موسيقا فارسية هادئة في العزف. دسستُ يدي في «تابلو» السيارة وقمت ببحث سريع فيها. لا شيء. تحسستُ الفجوة بين المقعدين الأماميين وسحبت علبة أسطوانة مدمجة، وهي تظهر مجموعة من الشبان يُدعون الصِّبْية بالأسود. حفظت الاسم وأعدت العلبة إلى مكانها.

طرق صاحب المطعم على النافذة، ففتحت له الباب وخرجت من السيارة. انسلّ إليها من دون أي كلمة، ودس سريعاً كيساً من البلاستيك تحت المقعد.

فكرت: يا له من هاوٍ. المال تحت المقعد.

انتظرت حتى ابتعد عن المنعطف، ورأسه الأقرع بالكاد يرتفع فوق يديه الممسكتين برأس المقود. قاد السيارة مبتعداً. وقفت هناك منتظراً اختفاء أضوائه الخلفية. ثم أصبحت وحدي. ما من شيء يتحرّك من حولي، وبدا كأنه لا وجود لأحد غيري.

فمع البرد يأتي الصمت. أقفلت سحّاب سترتي. وضعت يدي في جيبي، ورفعت ياقتي، وسرت. امتلكت قدماي إيقاعاً مختلفاً عن العادة، ولست متأكداً هل هذا لأن الثلج مختلف، والجليد أقل صريراً، أم أنني أنا من لست متناغماً. مرّ جسمي عبر ظلال مختلفة من النور. واستطعت وأنا أعبر تحت ضوء الشارع المحدودب، رؤية لهاثي يغادر جسمي. وبدا، في ما بين ضوءَي شارع، في الأماكن الأكثر ظلمة، كما لو أن نَفَسي توقّف. وشرعت، آخر الأمر، في السير بإيقاع آخر. لا بد من أن المباعدة بين أضواء الشارع قد تمّت بشكل جيّد، على مسافات متساوية، لأن نَفَسي ظهر واختفى بطريقة منتظمة، عبر الظلمة والضوء. نسيت مسألة إيقاع حذائي. وأعطاني شيء أقل ضجيجاً، شيء صامت ومُبين، نوعاً آخر من الإيقاع. حاولت تحديد مقدار سرعتي، حتى وأنا أسير بسرعة، حتى عندما وجدت صعوبة في التزام إيقاع منتظم، لأن كل شيء مرتبط بالعوائق المنتصبة على الأرض. تراكمت الثلوج الأكثر ارتفاعاً. تتطلب المزيد من الجهد وتبطئني، إلا أنني كنت أمرّ أحياناً أمام منازل جيّدة الصيانة حيث يتم جرف كل الثلوج عن الرصيف وتنظيفه. وعندها آخذ بالتحرّك بسرعة أكبر. وبرغم ذلك، وجدت أن الممرات النظيفة مُشتِّتة، تعيقني عن خلق الإيقاع المثالي المتناغم المؤلَّف من نَفَسي ومن أضواء المدينة الهابطة.

لم أعرف ما هي درجة البرودة. فأنا لست متأكداً أبداً من الحرارة، ولا أشاهد التوقُّعات الجوية أبداً. لست متأكداً أبداً من سبب بدء أهالي هذا المكان أحاديثهم دوماً بملاحظات حول

الطقس. الأحاديث المتفرقة تُفزعني. لا أرى الفائدة من التواصل لمجرّد قول شيء ما. نعم، الطقس بارد. سأعترف بذلك إذا شئتم، إلا أنني تغذّيت جيداً اليوم على الأقل. فقد حضّر لي الطباخ الليلة طبقاً قبل أن يغادر. ومن دون أن يناديني أو يقول لي أي شيء، دفع بالطبق بشدّة أمامي، وجاء صاحب المطعم من ثم وأشار إليه ونظر إليّ. جلست إلى الطاولة الصغيرة بجوار المطبخ وأكلت، محاولاً حقيقة ألا أُظهر مدى استمتاعي بالطعام. أعرف نوعية التاجر الذي يشكّله صاحب المطعم. كل شيء خاضع للمساومة. فإذا شعر رب عملي بتعويلي على وجبات طعامه، فقد يقتطع المال من مرتبي، ويطلب إلي القيام بالمزيد من العمل ويُصدر إلي المزيد من الأوامر، ومن يدري أين يمكن هذا كله أن ينتهي. . . ربما بتنظيف سيارته، أو تحمئتها، أو جرف ثلوجه، أو قيادة السيارة لحَمَوَيْه، وجز العشب من تحت كراسيه البلاستيكية الغثّة، أو فرك شوايته. لا يزال بعض هؤلاء المهاجرين توّاقاً إلى إعادة إحياء تلك الأيام الخوالي للمنازل ذات الأعمدة، والخدم، والسيجار الغليظ. قذارة! إنهم الأسوأ نخبة العالم الثالث هم قذارة الأرض، ولا أشعر بأي ألفة مع زوجاتهم المجلجلات بالجواهر، وغطرستهم، وشاشاتهم التلفزيونية العريضة. قذارة! يعتبرون أنفسهم من الأُسر الملكية، في حين أنهم ليسوا سوى من بقايا قوة الاستعمار. يمشون كما لو أنهم من الأرستقراطيين، أو كأنهم مالكو أرض التوابل والعسل، وهم ليسوا سوى متحدرين من حمّالين، وخدم الاستعمار، والبساتنة، وجنود باعوا أنفسهم للامبراطوريات الغازية.

كان نَفَسي، تحت أضواء الشارع، يدخّن كالموقد. وددتُ الحصول على سيجارة، لكن ما الفائدة من التدخين في البرد؟ فلا يمكن المرء حتى أن يشم الدخان، ناهيك بأن السيجارة ستتحوّل، بعد ثوان من إشعالها، إلى لفّة مجمّدة من الورق الرقيق والتبغ المبلَّل. ومن الذي يجرؤ على سحب أصابعه من جيبه لإشعال عود ثقاب في الريح الباردة؟ يفضَّل على أي حال، في هذه الساعة من الليل، ألا يجلب المرء الكثير من الانتباه إلى نفسه. لا أحتاج إلى إحراق وجهي. جلّ ما أردته هو أن أدفن رأسي بين فخذي امرأة، وأمسح جبيني على صوفتها الناعمة السوداء، وأدفئ شفتي من سيلانها الأول. قد تقبل شوهره بأنفي البارد. قد تشعر بما يكفي من السخاء لاحتضاني بين فخذيها الليلة، واحتباس أذني بلحمها الناعم، الليّن، تمحو صوت الثلج المتكسّر تحت حذائي. نكشت أعمق ما في جيبي، إلا أنني لم أمتلك الفكّة لإجراء اتصال هاتفي. بل إنني غامرت في إخراج أصابعي من جيب معطفي والتفتيش في جيب سروالي. لا شيء! بلغت مفترق طرق. إذا توجّهت جنوباً، أستطيع أن أقرع بابها، برغم أنها لن تحب الأمر في هذه الساعة المتأخرة. وإذا ذهبت شمالاً، أستطيع السير في شارع سانت لورانت وأمرّ بالحانات. ومن يدري فربما تمكَّنت أن أجعل ذراعين ما منغلقتين تحتضنانني. بيد أنني لم أختر أياً من هذين الاتجاهين، وانتهى بي الأمر في الميناء القديم. لم يكن لما أقدمْتُ عليه سبب إلا أنني كنت متردّداً: متردداً في الذهاب إلى المنزل،

ومتردداً في قرع باب الدفء. ثم إنني شككت في أن تكون شوهره في المنزل. فهي تحب الخروج في نهاية الأسبوع. إنها لا تحب عملها، وتجد سلواها في انتظار نهاية الأسبوع لترقص. . . وترقص.

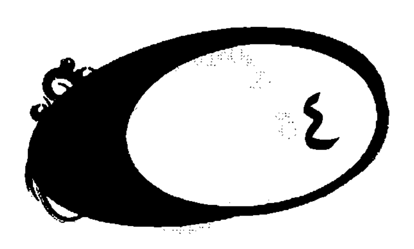
الريح المنطلقة من الماء أشد برودة عند ضفة النهر. أدرتُ لها ظهري ونظرت إلى المدينة القديمة، مع جميع الكنائس والبيوت العتيقة، التي تمهد الطريق للبنايات الشاهقة. تساءلت كيف انتهى بي المطاف هنا. كم إنه منافٍ للمعقول. والسؤال هو: أين أنتهي؟ جميع الذين يهاجرون يفعلون ذلك لتحسين معيشتهم، إلا أنني أريد تحسين مماتي. فكّرت في أن النهاية هي المهمة، وليست الحياة. قد نكون أشبه بالفيلة، نسير بعيداً نحو أماكن دفننا المختارة.

قفلت عائداً إلى المنزل.

مررتُ في طريقي بالكوبا، وهو حانة عاتمة في سانت لورانت. نظرت عبر النافذة ورأيت شوهره هناك مع عدد من صديقاتها. إنها ليلة الفتيات، كما تسمّيها. ولا يحق لأي رجل أن يقاطعها. وقد اشتريت مرّة كوكايين رخيصاً لرضا من هناك، من المروّج ديريك، وهو غاشم بالكاد يتفوّه بأي شيء. اشتكى له رضا من نوعية منتجه، فاستعاد الفتى مغلّف المخدرات وطلب إليه عدم إظهار وجهه من جديد هناك. واضطر رضا إلى البحث عن مروِّج آخر. رجاني أن أذهب وأسأل عن ديريك. وقال، عندما يسألون، أي ديريك؟ تجيب: ديريك الضخم.

ظهر ديريك الضخم عندما سألت. وقال لي: «اذهب إلى المرحاض، سأكون هناك خلال دقيقة». عثر عليّ بين المرآة وجدار التبويل. لم تثر العشرون دولاراً إعجابه. وتساءلت: من أين جاء هذا الفتى؟ فأنت لا تراه أبداً عند طاولة البليار أو البار. بدا كما لو أنه يمتلك نوعاً من الغرفة السرية مع رفوف من البودرة البيضاء وميزان كبير. تعلّمت مع الوقت ألا أقول شكراً لابن الحرام، لأنه سيعتقد أنك تلميذ، وربما تجاهلك إذا كان ينتظر مكاملة مهمّة ما. لقد اتصل به ابن البغي الكبير رضا.

بلغت المنزل أخيراً. خلعت جوربيّ وملابسي الداخلية، وغسلتها في الحوض، ثم غطيّت نفسي، ونمت.


٤

جلست قبالة جنفييف. ابتسمت لي. وهي صاحبة ابتسامة مراعية، تكاد تكون ابتسامة ورعة، كما لو أنها على شفا نشوة روحية، مثل نشوة راهبة متزوجة بيسوع. وهي في الواقع تذكّرني براهبات طفولتي... أولئك اللواتي تزوجن بالثائر ابن الناصرة. وقد كانت واحدة منهن بالتخصيص، هي الأخت ماري ـ جوزي، تمضي كل يوم جمعة تجمع المال للفقراء في مدرستي. وفي كل مرّة تتلفظّ فيها باسم يسوع، تتنهد وتبدو الابتسامة ذاتها بالتحديد على شفتيها. ولا أزال أستطيع سماع رنين علبتها المعدنية الملأى بالنقود. ولا أذكر أنني أعطيت المال أبداً. فقد تعوَّدت أمي القول: لماذا على الفقير أن يعطي الفقير؟

سألتني جنفييف: ألا تزال تدخِّن؟

ـ نعم، عندما أتمكَّن من الحصول على سيجارة، أدخنها بالتأكيد.

ـ أتحدّث عن المخدرات. أظهر فحص دمك أنك تتعاطى المخدّر. هذه معلومة سرّية، لكنني أسأل لإمكانية وجود علاقة بين المخدّر والفصول التي تختبرها أحياناً. هل تتعاطى المخدّر؟

ـ أفعل، عندما أملك المال، أو عندما يقدّمه إليَّ أحد.

ـ أي نوع؟

ـ الحشيشة وإذا ابتسم لي الحظ، فزيح الكوكايين الظرفي.

دفنت جنفييف دفتر ملاحظاتها في حضنها، وكتبت شيئاً. قالت: عليك أن تحترس من المخدرات القوية. فهي قد تشكّل بواعث. . .

ـ لماذا؟

ـ لفصول من الأوهام أو الهذيان. هل اختبرتها؟

بقيتُ ساكناً.

ـ يجب أن تقول لي إذا كنت تفعل.

- لا، لم يحدث ذلك قط.

ـ أمتأكّد أنت؟

ـ نعم.

ـ كيف عملك؟

ـ جيّد.

ـ منشغل؟

ـ نعم.

ـ تحبّه.

ـ الطعام جيّد. يتم إطعامي.

ـ هل اتخذتَ أي أصدقاء؟

ـ أنا مشغول جداً. لا أستطيع في الحقيقة الكلام. صاحب المطعم حاضر دائماً، وهو متطلّب كثيراً.

ـ هل رأيت ابنته من جديد؟

ـ نعم.

ـ هل هي بخير؟

ـ كثيراً.

ـ تقول ذلك بطريقة غريبة.

ـ ضبطتُها تداعب نفسها.

ـ ماذا؟! أين؟

ـ في الطابق السفلي.

ـ وهل رأتك؟

ـ لا، لكنني جعلتها تعرف أنني رأيتها.

ـ يبدو كأنك تحب أن يعرف الناس أنك تراقبهم. هل هذا صحيح؟ أم أن ذلك يحدث فقط عندما يتعلّق الأمر بامرأة؟

ـ لست متأكداً من سبب سؤالك.

ـ أتريد من النساء أن يُحببنك؟

ـ أتحبينني؟

ـ نعم، أنت محبوب.

ـ لماذا؟

ـ أعتقد أنك لامع.

ـ تحبين إذاً الأناس اللامعين؟

ـ نعم، يعجبونني دوماً.

- لماذا تحيطين نفسك إذاً بالمرضى؟ هل المرضى لامعون؟ أم أنك تحاولين جعل كل واحد أكثر لمعاناً؟

ـ أهتم بجميع الناس، سواء أكانوا لامعين أم لا. ثم إن هناك من أحبهم.

ـ تحبينني إذاً؟

ـ نعم، أحبك.

ـ لماذا لا تُظهرين ذلك؟ جلبت لك الأزهار. أظهرتُ لك حميمية، كما أردتني أن أفعل. والآن قد حان دورك.

ـ نحن في علاقة احترافية هنا. اهتمامي بك مهني بحت، ولن أتجاوز ذلك قط. اسمع، أنا أحاول مساعدتك، وأقوم بكل ما في وسعي لمساعدتك. ألا يُعدّ ذلك شيئاً؟

ـ هذا عملك.

ـ نعم، لكنني ما كنت لأصبر عليك بهذا القدر لو لم أر فيك أملاً. أتدرك حجم ما تقوم به، السطو على منازل الناس؟

أخذني الصمت.

غيّرت جنفييف الموضوع: أخبرني المزيد عن عائلة والدتك. ماذا عن والد أمك؟.

ـ كان مهرّباً.

ـ للكحول؟

ـ لا، التبغ.

ـ طوال حياته؟

ـ لا، فقد عمل أيضاً في معمل.

ـ أي نوع.

ـ معمل إسمنت. يدفع بالإسمنت في فرن صناعي كبير، كثير الحماوة.

ـ كم أنجب من الأولاد؟

ـ الكثيرين.

ـ كيف كانت علاقة والدتك به؟

ـ كانت تعبده.

ـ ووالدتها، جدّتك؟

ـ لستُ متأكداً. فأمي لم تتحدث الكثير عن أهلها.

ـ هل من عنف داخل العائلة؟

ـ العنف كان موجوداً في كل مكان.

ـ صحيح. حسناً، أنا لست مهتمة بالحرب في الوقت الحاضر. أنا مهتمة بشجرة عائلتك.

ـ نعم.

ـ نعم، ماذا؟

ـ نعم لسؤالك عن العنف.

ـ من هو العنيف؟

ـ كان جدي يضرب جدتي عندما يسكر.

ـ رأيتَ ذلك؟

ـ نعم، مرّة.

ـ وماذا فعلتَ؟

ـ لا شيء، جمدت في أرضي. كنت ولداً. ماذا في وسعي أن أفعل؟

ـ صحيح. حسناً، دعنا نتحدّث أيضاً عن طوني. ما الذي حدث أخيراً بينك وبينه؟

ـ تمكّن من إعادة شقيقتي وطفلتها إلى منزله.

ـ ألم تتمكن من إيقافه؟

ـ لا ، جاء وأنا بعيد على الشاطئ. تعوّدت الذهاب مع أصدقاء إلى الشاطئ. تعوَّدنا القفز عن صخرة عالية.

ـ أكان ذلك خطراً؟

ـ نعم.

ـ ألأن الصخرة مرتفعة جداً؟

ـ على المرء، في الحقيقة، أن يتوخّى الحذر. فيجب السقوط في الماء بين صخرتين أخريين.

ـ وكنتَ في كل مرّةٍ تسقط في الماء؟

ـ لا.

ـ وبالتالي... أهذا هو سبب الندبة في وجهك؟

ـ نعم.

ـ وبماذا جعلك ذلك كله تشعر؟

ـ القفز؟

ـ لا، واقع أن شقيقتك عادت مع طوني.

ـ لستُ متأكداً، في الحقيقة. أعتقد أنها أرادت الذهاب. إلا أنني عندما سمعت أنه سحبها من شعرها، صمّمتُ على قتله.

ـ كنت طوال الوقت تحتفظ بمسدّس؟

ـ نعم.

ـ هل امتلكتَ رخصة فيه؟

ـ رخصة، يا دكتورة؟ أنت تضحكينني أحياناً.

ـ أفعل ذلك؟ أنا سعيدة لأنني أفعل.

ـ في الحقيقة، الأمور كانت مختلفة عندها. لم يكن هناك الكثير من القوانين.

ـ أخبرني المزيد.

ـ في شأن من؟

ـ في شأن طوني.

ـ حسناً، ذهبت إلى أبي رورو.

ـ أبو رورو؟

ـ السارق.

ـ آه، نعم. هنا، إنه مكتوب لدي هنا.

ـ قلتُ له إنني أريد قتل ابن الحرام ذلك، وسألته عن أفضل طريقة للقيام بالأمر. لم يجبني، وقال لي عوضاً عن ذلك: تعمل أختك إذاً لدى جوزف خوري، هذا ما تناهى إلى سمعي.

- نعم.

اعتقدتُ أن لديه بائعتين بالفعل في المتجر.

سألته:

ما الذي تحاول قوله؟

ـ اسمع، لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، فأنا أحاول المساعدة ليس إلَّا.

ـ المساعدة؟

ـ نعم، إذا فكّرت قليلاً فستدرك أن العجوز يملك المال.

- صحيح؟ الانتقام والشرف جيّدان، لكن أليس من الأفضل جني بعض المال من ذلك؟

ـ ما الذي يجول في ذهنك؟

ـ يمكنني أن أقول لك، لكنك قد تشعر بالإهانة.

- هات ما عندك، ولن أشعر بالإهانة.

ـ حسناً، ما هي حصتي؟

- أربعون في المئة.

استدار أبو رورو وغادر.

قلت: خمسون.

وافق على هذا، وابتسم، عاد ووضع يده على كتفي، وسرنا معاً وهو يشرح خطته. قال: «الأمر سهل»، وهو يتحدّث بيديه. تجعل طوني يشك في وجود أمر ما بين شقيقتك وجوزف خوري. أنا لا أقول بوجود أمر بينهما، أرجوك لا تسئ فهمي. فشرف أختك بأمان معي. غير أنك إذا قلت هذا، فسوف تنتاب طوني رغبة قتل العجوز. لكن عليك أولاً أن تذهب إلى جوزف خوري وتقول له: إن طوني مقتنعٌ بأنك تنام مع شقيقتي؛ وإنه قد تعهّد بوضع رصاصة بين عينيك. ثم تخبره عن مدى كرهك للفتى، وكم أنه يسيء معاملة شقيقتك، إلى آخره، وتقنعه بأن لديكما مصلحة مشتركة في التخلّص منه. لن تقول له إنك ستفعل ذلك. بل قل إنك تعرف شخصاً يمكنه فعل ذلك لقاء، لنقل، خمسة عشر ألف ليرة.

ـ لن يدفع ذلك.

ـ سيخشى على حياته. بل إنه سيضعك في وصيته. اسمع. لقد بدّلت الخطة. لن تتفوّه بكلمة لطوني عن شقيقتك وجوزف خوري. سأقوم بذلك. دعني أسرّب الشائعة. سيشكّل ذلك نصف حصتي من العمل.

قلت: لكن ما إن يعرف طوني حتى يأتي ويقتل العجوز. هذا الفتى اللعين لن يعطي إنذاراً للعجوز، بل سيمضي ويفعل الأمر.

ـ التوقيت، يا صديقي، التوقيت. كل شيء رهن بالتوقيت. تحذّر العجوز أولاً. سيعطيه ذلك فرصة للمغادرة. يختبئ، ثم نخبر طوني. سيذهب طوني إلى المتجر بحثاً عن العجوز، وسيتأكد كل شيء عندما يرى أن جوزف قد رحل. أرى أنني لا أزال مضطراً أن أعلّمك بعض الأمور.

ـ ثم يترتَّب علينا معرفة مكان اختباء جوزف خوري لنجني منه المال قبل أن نقتل طوني.

ـ لا ، بل ستقوده أنت إلى مخبئه.

ـ وماذا عن شقيقتي؟ أتعتقد أن طوني سيوفّرها إذا سمع شيئاً كهذا؟

ـ عندما تأخذ العجوز إلى مخبئه، تأخذ معك شقيقتك أيضاً. وهي ستكون تعمل في المتجر في ذلك اليوم.

ـ لن تأتي.

ـ ستجبرها على المجيء.

ـ ماذا لو أراد العجوز مغادرة البلاد بدلاً من دفع المال؟

ـ لن يفعل. فقد كبر كثيراً على ذلك.

- لست متأكداً من أن هذا سينجح.

ـ سيفعل. كم مضى على معرفتك لي؟ لطالما نجحت الأمور، صحيح؟

استمعت جنفييف إلى قصتي دون أن تقول شيئاً. وها هي تسأل أخيراً: هل علمت شقيقتك بخديعتكما؟

ـ بالطبع لا.

ـ ألم تدرك أي شيء قط؟

ـ لا، لم تفعل.

قرع أحدهم باب المكتب واعتذر عن المقاطعة. عادت وقالت: عذراً، لكن علي الذهاب، توجد حالة طارئة في المستشفى.

- المستشفى؟.

ـ نعم. تعرف عن أي مستشفى أتحدّث؟

ـ ذلك المستشفى؟

ـ نعم.

ـ بلّغي تحياتي للجميع هناك.

ـ أنا واثقة بأن الموظفين يتذكرونك.

ـ عنيتُ، بلّغي تحياتي للمرضى، مهما كانوا، وأياً كانوا، وأينما كانوا.

- خذ موعداً من المكتب وسأراك الأسبوع المقبل... وركضت خارجة من الغرفة وصفقت الباب.

* * *

عندما دخلت الفتاة مطعم والدها في الليلة التالية، تبادلنا النظرات، سريعة ووجيزة. سارعتُ إلى دفن رأسي في العمل من جديد. أبقيت عينيَّ على الأرض، وهي تمر بي، والتقطت نظرة خاطفة إلى تنورتها وقدميها. سمعت والدها يناديها باسمها: سحر. تبادلا بضع كلمات بالفارسية. حاولت أن أفكّر في ما يمكنني أن أجلبه من السفلي، ما الذي يحتاج إلى إصلاح، أو ترتيب، أو تعبئة. ثم توجهت إلى صاحب المطعم وقلت: توجد علب من المؤن تحت يجب ترتيبها. أتريدني أن أفرغها؟

هزّ برأسه موافقاً. فالرجل بالكاد يتحدّث معي. بالكاد يعترف بوجودي. وإذا اتفق معي على أمر فإنه يُرضيني بكلمة «نعم!»، أو بـ «يا لها من فكرة لامعة!». وإذا اعترض على أمر أقوم به، يوجهّني إلى القيام بأمر آخر.

انتظرت خروج ابنته من المطبخ مع طبقها اليومي من الطعام. قاطعتُ طريقي مع طريقها، مبيّناً لها أنني في طريقي إلى السفلي. وقمت، تحت، بفتح العلب بواسطة آلة قطع، وأخذت وقتي في

ترتيبها على الرفوف، ثم طويت كل كرتونة فارغة ودسستها في الزاوية. كدت أنتهي، ولم تظهر سحر. فكّرت: لا بدّ من أنها لا تزال تتناول الطعام، فأخذت المكنسة وشرعت في تنظيف الأرض.

نزل رب العمل نصف المسافة إلى تحت بحيث لم يظهر إلا النصف السفلي من جسمه. استدعاني حذاؤه الناطق للعودة إلى فوق. أرادني أن أساعد النادل في جمع طاولتين معاً من أجل حفلة كبيرة محجوزة تلك الليلة. وفوق، كادت سحر تنتهي من تناول طعامها، وأمكنني سماعها تصرخ بشيء لوالدها. أجاب بجملة تامة واضحة، أطول من المعتاد. بدا صوته هادئاً. ضحكَتْ، وواصلَتْ قول شيء ما له. تجاهلها كما لو أنها تأخذ الكثير من وقته، وعاد إلى المطبخ، مشمشماً ببطء وهو يسير.

انتظرت. ما إن أصبح داخل المطبخ، حتى ذهب النادل الآخر للإتيان بمزيد من المصابيح، قبل أن أحاول لفت انتباه سحر. لاحظتني، إلا أنها لم تبتسم. استدعتني إلى طاولتها وقالت بصوت مرتفع: آمر، اذهب واجلب لي بعض الحلوى والشاي من المطبخ.

سألتها: أتريدين السكّر؟

ـ نعم، عليك دوماً أن تجلب سكّراً مع الشاي الإيراني.

قلت مغمغماً: «قصدت مع الحلوى»، وابتسمت لها ابتسامة عريضة.

ضحكت وقالت: «اجلب لي مكعبين من السكر الأسمر. السكّر الأسمر، هل تسمع، أسمر مثل عينَيّ»، وابتسمت بخبث.

قلت في نفسي: لم يكن ينبغي أن تقول ذلك. فأي تلميح بالمغازلة، وأصبح خارج الباب. سيتطلب الأمر واقعة واحدة كتلك لتجعل والدها يدرك أن ضحكة ابنته مصحوبة بجرّة شعر أطول قليلاً من العادة، ورقّة أهداب عين، وانحناءة عنق، وبأنها تتخيّل قصصاً تجعلها تداعب نفسها في الممرات المظلمة، تحت الدرج، وتحت اللحافات الأشبه بالأهرامات. لكن الحظ حالفني. فصاحب المطعم لا يزال في المطبخ، ومياه غسالة الصحون تجري وتطغى على صوت سائل الجسد الشاب الريّان ينزل رذاذاً من فوق الأطباق الحريرية والملاعق الفضية.

بعد تناولها شاي بعض الظهر والبسكوت، أنزلت جلالتها أصابع قدميها على الدرج المعتم. لم أُضع الوقت، وتبعتُها على الفور. جمعتُ، وهي تحت في المرحاض، جميع الصناديق الفارغة، وكدّستها في الزاوية. قصصتُ قطعة حبل، وعقدت طرفها، ومرّرتها من حول الصناديق، وصنعت عقدة أخرى حول العقدة الأولى في الطرف الآخر، وشددت على الحبل إلى أن رصّ الصناديق معاً.

أُجيد التعامل مع الحبال. كنت أبحث عن بنية تتحمّل الحبل ووزني الخاص الذي خذلني ذلك اليوم في المتنزَّه. لكن، ماذا لو نجح مخططي، وطقَّتْ قصبةُ رئتي بصوت الصناديق المهروسة معاً؟ لقدّمتُ مشهداً لطيفاً على خلفية المنظر الطبيعي الأبيض.

ارتديت ذلك اليوم سترتي الحمراء. تصوّروا ثمرة حمراء كبيرة تترجَّح عالياً على الشجرة. تخيّلوا كيف ستبدو من بعيد. لم تكن لتغيب عن أحد. ولن يظهر الحبل للأنظار من بعيد أبداً. كل ما سيراه أي شخص هو نقطة حمراء معلّقة فوق الأرض على خلفية أفق أبيض. ربما كان هذا كل ما يجب أن يبقى من حياتنا: لمحة جمال، تقدمة إلى أولئك الذين لا يزالون عالقين، تقدمة أخيرة لتعزيتهم في وجودهم الدنيوي.

فُتح باب المرحاض. جاءت سحر صوبي وسألت: ما الذي تفعله هنا؟

ـ أعمل وأغنّي.

ـ لا أسمع أي غناء.

ـ إنه في رأسي.

ـ ما الذي تغنّيه؟

ـ أغنية من القرص المدمج الجديد للصّبية باللباس الأسود.

ـ آه، يا إلهي، أأنتَ تستمع إليهم؟

ـ نعم.

ـ أحبّهم. أي أغنية هي؟

ـ لا أستطيع تذكّر اسمها، لكن لدي القرص المدمج بأكلمه في المنزل.

ـ ألبومهم الأخير؟

ـ نعم، الألبوم بكامله. الغلاف الرائع وكلمات الأغاني.

ـ جئ به في المرة المقبلة. . أريد أن أراه.

ـ لماذا لا تأتين إلى عندي ونستمع إليه؟

وضعت سحر يديها على خصرها وقالت بسخرية: «واو، النويدل يدعوني إلى قصره! يا للإثارة»، وكان جسمها يتمايل تحت شعرها الأزرق ـ الأسود اللماع. تابعت قائلة: وماذا سنفعل هناك؟ أمن شيء مثير، مثل غسل الصحون؟ ربما؟ يا للمتعة.

ـ اعتقدت أن في إمكاننا الاستماع إلى القرص المدمج، ونرى ما يحدث.

ـ أعتقد أنك رأيت بما فيه الكفاية.

- لا ليس الكفاية، أبداً ليس الكفاية. قلت ذلك وابتسمت ونظرت مباشرة في عينيها، وأنا نصف أرجوها، ونصف أوحي لها، وأنتظر كلّياً هزّة رأس موافقة من تحت الدرج برغم مخاطر تعرُّضي للطرد من الجنة. . . وجروح سكاكين المطبخ.

بقيت صامتة، وتطلعت بدورها مباشرة فيّ. أهدابها طويلة، وعيناها تعكسان بقعة مستطيلة صغيرة من ضوء الفلوريسانت ورائي، اجتازت بؤبؤ عينها البني أشبه بضوء شارع في واجهة متجر، أو عيني كائن غريب من وراء قناع. ضيّقت عينيها وقالت: أين تعيش في هذه الأرض؟

قلت: في شارع بيناكل.

ـ إنه على مقربة من مدرستي.

ـ تعالي، إذاً، بعد المدرسة.

ـ حسناً، ربما. اترك لي العنوان لاحقاً.

ـ الثلاثاء؟

لم تجب سحر. ركضت صاعدة الدرج، وأنا فتحتُ باب المستودع، جررت الكراتين بالحبل على الدرج وعبر الزقاق الخلفي، ووضعت الرزمة كلها إلى جانب مستوعب النفايات المعدني الكبير.

* * *

قصدت يوم الإثنين متجر الموسيقا في شارع سانت كاترين. سألت أحد الموظفين عن آخر قرص مدمج للصبية بالأسود. فتحت العلبة، ودسست كتاب الغلاف في حقيبتي، وفي طريق خروجي رميت بالقرص وعلبته في حقيبة سيدة تغادر المتجر. تبعتها إلى الخارج، واستمررتُ في تعقبها كلَّ الطريق حتى وسط المدينة. تبضّعتْ وهي تسير من واجهة إلى أخرى. وعندما جلستْ في أحد المطاعم، جلستُ قربها. طلبتُ قهوة، وأنا أتصرف بقدر ما يمكنني من الدماثة والتهذيب، متحدّثاً الفرنسية وألدغ بالراء. حتى أن المرأة نظرت صوبي ووجهت إلي ابتسامة. رددت لها ابتسامتها. خلعت سترتي، وبينما يدي لا تزال في كمّي دسست تلك اليد في حقيبتها وسحبت علبة القرص المدمج. أمسكت به في الواقع بيدي متأكداً من أنها ترى ما قد سحبت

من جيبي، ثم أخرجت كتيّب القرص المدمج وقرأته. ادعيت بعد بضع دقائق أنني ذاهب إلى المرحاض، وسرت بدلاً من ذلك خارجاً من المطعم.

أفقت يوم الثلاثاء ودخلت مطبخي. اختبأت الصراصير للنجاة بحياتها. خرجتُ إلى الحمام، بوّلت، وعدت إلى المطبخ وبيدي صحيفة. هاجمت الغزاة على رؤوسها بالأخبار والعناوين. تبيّنتُ واحداً معيّناً ذا خطوط زاهية الألوان، أشبه بصرصار أمهق. وهو كبير إلى حد ما، وأسرع من بقية السرب. انزلق، حتى أنه كاد ينساب، أكثر مما هو يركض، فوق السطح. برع في مناوراته، وهو واثق من نفسه. وعند حد ما واجهني، ووقف هناك، محرّكاً هوائياته في اتجاهي أشبه بلاقط تلفزيوني على سطح في يوم عاصف. وعندما رفعت الصحيفة لأضربه، اختفى. نظرت تحت المجلى وشاهدت نهاية خطّه الأبيض الأخير يروغ في قلب المصرف. فتحت الصنبور على الفور، وراقبت المياه تجري إلى تحت، أتخيّلها تطارد الأمهق في موجة دفّاقة عملاقة، تهرع صوب الكائن المخطط البرّاق عبر الهوّة المولوِلة السحيقة. ثم غسلت الأطباق ودفنت الجثث. رتّبت سريري، وطويت أطراف الشراشف مثلما يُطوى العَلَم في احتفال للجنود الموتى. فتحت النافذة لتجديد الهواء وإنعاش الجو. نظفت المرحاض والمجلى. أقفلت النافذة، ثم استحممت، وارتديت ملابسي، وفتحت النافذة من جديد. اخترت موضعاً لأسطوانة الصبية بالأسود المدمجة على الأرض تحت النافذة، مديراً الأوجه الظاهرة على الغلاف صوب النور. عكس اللمعان الخفيف للبلاستيك الضوء،

وخشيت أن يمحو الوهج وجوه المغنين. لذا تلاعبتُ بالزوايا إلى أن تفاديت الشمس وأصبح الصبية المبتسمون ذوو الآذان والأنوف المثقوبة، مرئيين من جديد. ثم انتظرت.

بعيد الثالثة بعد الظهر تماماً، رن جرس بابي. خرجت إلى الممشى ورأيت حقيبة ظهر مدرسية تصعد الدرج.

قلت: أنا هنا.

قالت سحر: ضللت طريقي.. هذا المبنى مُربك.

دخلتْ شقتي. انتظرتُها أن تلتقط القرص المدمج، إلا أنها كانت أكثر اهتماماً بالجدران، وفي تقويم الحطام القليل الذي يشكّل أثاثي. نظرتْ إلى السرير وإلى المكتب، ثم استرقت النظر عبر النافذة. وقالت بتهكُّم: يا للمنظر.

- حسناً، هذا قرص الصبية.. وسلّمتها القرص المدمج.

- رائع.. أيمكننا تشغيله؟.

- جهاز الأقراص في التصليح. أعتقد أنني سأحصل على واحد آخر قريباً.

ضحكتْ ورمت بالقرص على السرير.

- إذاً، ما الذي نفعله هنا؟

- ارتشاف الشاي.

- الشاي.. ردَّدتها وبالكاد ابتسمت.

طلبت إليها الجلوس. نظرَت من النافذة، بينما جمعتُ

الشاي من درج المطبخ. لم يكن لدي سكّر، فاعتذرت، ونزلت الدرج، وقرعت باب العائلة الباكستانية. فتحت الزوجة، وهي نصف متوارية وراء الباب، تسترق النظر إلى الخارج أشبه ببطلة بوليوودية من وراء نافذة أحد القصور.

سألتها: ألديك سكّر، رجاءً؟

هزّت برأسها إيجاباً. أقفلت الباب، ومن دون أن تتفوّه ببنت شفة فتحته بعد لحظة وفي يدها وعاء صغير من السكّر.

صعدتُ الدرج راقصاً. كان الماء في مطبخي قد شرع يغلي. فكّرت في أنه توقيت جيّد. التوقيت مهم. قدمّت الشاي إلى سحر.

قالت: ليس لدي الكثير من الوقت.. ولفّت أصابعها حول الكوب.

- حسناً، إذاً. هل سبق لك أن مارست الجنس؟

- لا. لكنني قبّلت صبياناً.

- هل لامسوك؟

- بعض الشيء.

- لا أريد أن ألمسك. أريد فقط أن أشاهدك تداعبين نفسك.

- لست متأكدة من أن في إمكاني فعل ذلك... بوجودك أنت هنا، تنظر إلي...

- لن أنظر إليك. يمكننا أن نواجه الجدار وندعي أن أياً منا لا يعرف ما يفعله الآخر.

وقفت سحر، ذهبت إلى غرفة النوم، ونزلت تحت غطاء السرير. أقفلتُ الستائر. غشت صحيفة رقيقة من الضوء الخافت الجدار الأبيض. جلستُ على الكرسي إلى جوار السرير. واجه كلانا الجدار، إلا أنني رأيت أوّلاً يدها تختفي ببطء تحت ملاءة السرير. حل صمت. أدرت رأسي ورأيت أن عينيها مغمضتان. رفعتْ ركبتاها الملاءة كالخيمة. تخيّلت أصابعها تدور بثبات وذهنها يعرض على الجدار صور صبيان ومغنين شبان من دون شعر.

قالت بعد مرور دقيقة: «لا يمكنني فعل ذلك». نظرت إلي وقالت: أأَنت تبكي؟ يا إلهي، عيناك... هذا غريب! لا يمكنني فعل ذلك، يجب أن أذهب.

رفعت سروالها، خرجت من السرير، رتبت تنورتها، فتحت ونزلت الدرج راكضة.

* * *

بعد مغادرة سحر، أعدت وعاء السكّر إلى العائلة الباكستانية تحت. فتحت المرأة الباب. لم يمدّ هذه المرة أي من الأولاد رأسه إلى الممشى. وعندما سألت المرأة عن مكان زوجها، أجابت: في المصنع. شرع طفل في البكاء من الداخل. أقفلت الباب بهدوء واعتذار. ركضتُ إلى أعلى. فتحت الستائر في غرفة نومي، وشعرت، لسبب من الأسباب، برغبة ساحقة في سحب

رسائل البروفسور. امتلكت كلها النوعية ذاتها من المغلفات، صفراء وذات ملمس متقادم في العمر. الورق في الداخل خشن ورقيق، الخط لا عيب فيه، كبير وواضح. تبدأ كل رسالة بعبارة Mon cher (يا عزيزي). لا اسم، بل Mon cher فحسب. احتوت الأولى على وصف مسهب لنزهة الكاتبة الطويلة على الشاطئ، وتفاصيل عن السماء، والمياه الزرقاء. وصفت (قرّرت أن كاتبة الرسالة امرأة عندما اتهمت النسيم برفع تنورتها وتطييرها) زوجين أكبر سنّاً يسيران يداً بيد، وكيف أن رؤيتهما جعلتها تشعر بالسعادة؛ ذكّرها le sable qui se lève avec le vent (الرمل الذي يتطاير مع الهواء) بشيء، بطفولتها، بجدتها، بنزهة بين الأزهار. بدا كل شيء متعلّقاً بالماضي، ماضي الكاتبة. تتقطّر من الرسائل ذكريات على طريقة بروست: Le visage mélancolique, les textures, l'innocence, les pas, le vieux monsieur avec un chapeau (الوجه الكئيب، الأديم، البراءة، الخطوات، العجوز صاحب القبعة). يتعلّق الموضوع بشعورها، أو بنوع من المغامرة الرومانسية. لم يؤت قط على ذكر البروفسور، أو حتى مخاطبته. الرسالة مونولوج حول مشاعر الكاتبة الخاصة، حالة كينونتها التصاعدية، فلا يشكل البروفسور إلا مستوعباً لوقتها الضائع .(temps perdu). قلت في نفسي: يا للبروفسور المسكين، كم شعرت بالحرمان والإغفال، مُستَبعَداً عن كل تلك الـ préoccupations avec la nature, le vent, les hirondelles (الانشغالات بالطبيعة، بالهواء، بأسراب السنونو). لا بد من أنه كان مضاجعاً سيّئاً، وقد تخيّلته شخصاً مختلفاً

عندما يكون من فوق، وشيئاً مختلفاً من جديد عندما يكون من تحت.

بدت الكاتبة، في الرسالة الثانية، أنها ترد على أمر ألمح إليه البروفسور في شأن المال، والفقر، وعلاقتهما. لكن جرى صرفه بجملة رومانسية لطيفة مرتضية: Ah, les artistes et l'argent, toujours la souffrance pour l'art et l'amour, (آه، يا للفنانين والمال، العذاب دوماً من أجل الفن والحب). وشرعت الرسالة في الحديث عن الطعام الشهي الذي قدّمه إلى الكاتبة le chef René lui-même, sur une terrasse sublime avec une vue très agréable. Le poisson frais et la dame au visage ridé (الطاهي رينيه نفسه، على شرفة رائعة تطل على منظر يشرح الصدر. السمك الطازج، والسيدة ذات الوجه المتجعّد). لا بد من أن البروفسور أكل حذاءه حسداً وجوعاً. وقّعت الكاتبة فقط في النهاية بحرف ل، دون أن تذكر عنوانها حتى. ذكّرتني بسيلفي، وهي مدرّسة بيانو، التقيتها في متجر أطايب الطعام حيث عملت قبل حادثتي مع الحبل. تعوَّدت أن أوصل البقالة إلى سيلفي. قدّمت إلي في إحدى المرات النبيذ والباتيه ـ أو ربما كان كبد الوزّ - وأفقت في اليوم التالي بين شراشفها الحريرية الشهوانية.

سيلفي لا تمشي. إنها تطفو، تجرّ وراءها ثوب نومها الحريري الغالي، كما لو أنه يتحرّك بفعل نسيمها الخاص. على كل شيء، أن يكون جميلاً في نظرها. عليها أن تعيش حياة

جمال مستمر، وعلى كل ما يحيط بها أن يمتلك في نظرها معنى حنينياً أو شاعرياً. ويخفي صوتها الناعم، وأثوابها التي على آخر طراز، وحسن آدابها، عنفاً مخفيّاً عميقاً، ونقمة على لامبالاة الطبيعة بوجودها السريع الزوال. التقينا دوماً في أماكن متكلّفة. دائماً هناك عشاوات، كوكتيلات، مسرح. لكن، سرعان ما عيل صبري من حياتها المتظاهرة. شعرت بالسأم. تسكعت في الجوار لفترة بسبب الطعام والنبيذ والجبن. إلا أن أي تلميح مني إلى البؤس، أو المشكلات، أو العنف، يُصرف تلقائياً ويُستبدل به شيء فرح، خفيف، أو جميل. وُصف كل شيء بأنه charmant, intéressant, d'une certaine sensibilité, la texture (فاتن، مثير للاهتمام، يتمتع برقّة ما، الأديم). عاشت جميع صديقاتها أيضاً في حالة إنكار دائم للروائح الكريهة المنبعثة من المجارير، والأحياء الحقيرة المتفشّية، والشقق غير المدفّأة، والأمهات العازبات اللواتي يعشن على الإعانة الحكومية، والثياب الرثّة. لا، ينبغي أن يكون كل شيء مثالياً، وأن تقدَّم كل لقمة طعام جيّداً: التقديم، دائماً التقديم، القناع الأخير.

نمت مع جميع صديقات سيلفي. كان الأمر سهلاً. كل ما كان علي فعله هو الاتصال بهن وسؤالهن شيئاً عن un regard que j'ai senti de votre part et je voulais savoir si je m'imaginais des choses (نظرة أحسست بها من جانبك وأردت أن أعرف إذا كنت أتخيّل أموراً). نجح ذلك معهن جميعاً. لا بأس بطعن الواحدة للأخرى بالظهر ما دام الأمر يتعلق بالرومانسية، بالقصة... باختصار، بشيء لائق. وفي إحدى

الليالي التي ذهبنا فيها جميعنا للعشاء في مطعم فرنسي، سرقت محافظهن، سرت عبر مطبخ المطعم، وخرجت من الباب الخلفي. أخذت النقود، ورميت المحافظ الفارغة في مجرى الماء، وتوجهت إلى الكوبا، وجلست إلى البار وشربت.

عرفت سيلفي وصديقاتها بالتأكيد أنني من قام بالأمر. عرفن تماماً أنني من دس يده في حقائبهن الجلدية. لم تتفوه أي منهن بكلمة. لم يجرؤ أصحابهن حتى على مواجهتي. علموا بأنني سأمزق إطارات سياراتهم، أدخل منازلهم، أسمِّم كلابهم، وأحطم أجهزتهم الستيريو. عرفوا لأنني أريتهم ندبتي. اخترعت قصصاً حولها. شعر أصدقاؤهن المثقفون بأنهم برفقة متوحش نبيل، وأحبوا ذلك. دعانا أحدهم مرة، واسمه جان ماتيو، وهو ابن أحد كبار الصناعيين، إلى شقته في إيل سانت إيلين. يعيش في واحدة من تلك الشقق الغالية المصمَّمة على طريقة حي صرائف زائف. وبينما كان الجميع تحت يرقصون ويشمون الكوكايين، دعاني إلى غرفته، فوق. أغلق الباب، مضى إلى خزانته، وقال، Regarde, mon ami. ?a, mon ami, c'est pour qui (انظر يا صديقي. هذا يا صديقي لمن). يريد أن يتعرّض لي. سحب مسدساً من نوع ماغنوم، سلاح جميل، كله من الفضة. لا بد من أنه يساوي آلاف الدولارات. صوَّبه إلى وجهي وشرع في الضحك. كان ابن العاهرة منتشياً. امتدّت يده، وكان يضحك لي، لعوباً.

رددتُ له الابتسامة. نظرت في عينيه، واصطنعت ضحكة

عالية، حانياً جسمي بعيداً عن سبطانة المسدس. ادعيت إعجابي بالمسدس، ومددت يدي ببطء إلى معصمه ووجهت المسدس نحو السرير. ثم سحبت وجهه صوبي وقلت: أسبق لك أن أظهرت ذلك لمامتك؟ تبدّلت ملامحه، وشرعتُ في فتل ذراعه ببطء. ارتبك. أبقيت رد فعلي ملتبساً، وأنا أبتسم له، أقهقه قهقهة خفيفة، متحدثاً عن مدى جمال المسدس، ثم قلت له: lâche-le (أفتله)، أريد أن أراه. أخذته على مهل من يده. سحبت المخزن بسرعة، وسحبت مجموعة المسدس المتحرّكة إلى الوراء، فقفزت الرصاصة التي في بيت النار إلى السرير. ضغطت على الزر وعادت المجموعة المتحرّكة إلى مكانها الأساسي. صوّبته نحو جان ماتيو، وقلت: أصبح الآن أكثر أماناً تصويبه إلى وجه أحد ما، لا؟ هز رأسه موافقاً، محملقاً فيَّ بعينين زجاجيتين من تأثير الكوكايين. عثرت على الرصاصة فوق السرير وأعدت إدخالها في المخزن. دفعت المخزن في مكانه، وأغلقت عتلة الأمان. ثم فتحت الخزانة. أمسكت بقميص قطني لجان ماتيو، مسحت به المسدس، وقلت له ضاحكاً: يجب الاعتناء جيّداً بطفل كهذا، لا؟ لا نريد أي بصمات أصابع عليه. حملت المسدس بالقميص وأعدته إلى الرف. ثم ربَّتُّ بباطن يدي على وجه جان ماتيو، كالعرّاب، وقلت: مسدس جميل. يجب أن تحترس دوماً إلى أين تصوبه. لننزل إلى تحت قبل أن تضيع الطاسة التي تحتوي على المادة البيضاء في أنوف أولئك المشاكسين.

كنت أنا من زوّد أصدقاء سيلفي بالمخدّرات. ابتعتُ المادة

المتدنية الجودة من دريك الضخم، وضاعفت ثمنها على الأصدقاء. كانوا فاسدين، فارغين، أنانيين، منطوين على أنفسهم، غير قادرين إلا على رؤية ذواتهم من انعكاس الزجاج الملون لسياراتهم الفخمة. تعيش النسوة حياة انصراف على الملذات، لا يهتممن بما يفعله الصبيان ما دام محيطهن على الموضة ولائقاً. احتقرتهم؛ وهم أُعجبوا بي.

* * *

ليس في رسائل البروفسور من شيء سوى حياة ضائعة، فارغة، وأوهام هروب من بشاعة الحياة. فكّرت، وأنا أقرأها، كيف أن من المحتَّم أن يحتقر بعض الناس الطريقة التي يظهرون فيها. لا بد من أنهم يتقيؤون عندما يرون أنفسهم عراة، قذرين، ومجعّدين. لا بد من أنهم يستفظعون إدراك أنهم مصنَّعون من جلد، ولحم يمكن قطعه، وغليه، وأكله، وأنهم يعرقون، وأن السوائل تجري من خلالهم، وأنهم دوماً، مهما أكلوا، ومهما كانوا حسني المظهر، فإن الطعام الذي يأتي على أطباق فاخرة، والذي يتم تذوّقه وهو منار بشموع صغيرة على شراشف طاولة حمراء، والذي يُطلق عطر التوابل، سيتحوّل دوماً إلى شيء بشع ومنفّر. يصيبهم بالهوس. تقنيع إنسانيتهم، زبلهم، بعرهم، عرقهم، أظافر أصابع أقدامهم المتقوّسة التي تنمو ولا تكف أبداً عن النمو. يزدرون بهذا العالم، وبالتالي ينخرطون في عملية ستر أنفسهم: ستر وجوههم، أقدامهم، أظافرهم، لهاثهم، أجسادهم المنحلّة. لكنني اكتشفت أن تيري، أحد أصدقاء سيلفي، وهو

الابن الهرطوقي لسياسي محافظ شهير جداً، قد طفح به الكيل من ذلك كلّه. لم يعد يرى جمالاً في التظاهر. أوصلتُ خليلته، ليندا، إلى نشوات جنسية عدة، في ما بين السلاسل والصفعات، وأخبرتني عن تيري وهوسه بالغوائط. قالت إنه يأكلها. يسميها mes petits bonbons (سكاكري الصغيرة). ينتظرني كل صباح خارج الحمام، ويذكّرني بعدم دلق الماء في المرحاض. يكره عندما تختفي الأمور في المصرف. يجرف الغائط بيده، وأُضطر إلى تنظيف كل شيء بعد ذلك. C'est horrible (هذا مريع!).

افتتن بروفسوري الساذج المسكين في هذه الأثناء، بالـ le savoir-vivre, le savoir-faire, le savoir (أدب العشرة، حسن التصرّف، والمعرفة)... بهذا وذاك. فلاح! فلاّح مثقّف! لا بد من أنه اعتقد أن بعض رونق كاتبة الرسائل المحبوبة هذه سينسكب عليه، ويوفّر غطاءً بارعاً لإخفاء بؤسه، وطفولته الريفية. ينتظر من شخص آخر أن يقدّم إليه غطاءً. إنه أكثر اعتزازاً من القيام بذلك بنفسه، وأكثر إدراكاً لنفوره من الحقيقة العارية للحياة. وأنا على الأقل لست كذلك. أرى الناس على ما هم عليه. أعرّيهم من كل شيء وأرى فراغهم. أعرّيهم، فيرتاحون من عبء اللون والتنكّر.

سرتُ إلى المطبخ. أشعلت عود ثقاب، وأضرمت واحدة من رسائل البروفسور. راقبتها تحترق في المجلى. هبّت نار كبيرة وأتت عليها كلها: الشواطئ المتوسطية، المنتجعات المبهرجة، المناظر الطبيعية المتموّجة الممتدة حتى الشواطئ الجنوبية،

الزوجين العجوزين اللذين يسيران يداً بيد، والرياح اللطيفة التي مرّت وحملت نفحات الدخان إلى خارج نافذتي. رفعت نظري إلى الجدران وشاهدت مئات الصراصير المُنوَّمة تنويماً مغناطيسياً، وقد استدارت صوب مصدر النور، تحرّك شواربها وداعاً للنار.

غابت سحر يوم عملي، الجمعة. انتابني فضول شديد حول مكان وجودها، لكنني عرفت أن لا فائدة من سؤال النادل أو الطباخ أو آلة غسل الصحون. وحده والدها يعرف الجواب، ولا يمكنني أن أسأله. فكّرت: ماذا لو كبرت فجأة، وبات في وسعها البقاء في المنزل وحدها؟ ستسير بمفردها في الشوارع، إلى منزلها الخاص مباشرة، وتحضّر طعامها الخاص، وتحصل على فنجانها الخاص من الشاي والسكّر. ماذا لو قرّرت مغادرة المنزل والعثور على أريحيتها الخاصة مع نوعها ذاته، وتعانق بمفردها الثلج والطرق الطويلة؟

كددتُ في العمل تلك الليلة. بل إنني تأكدت من أن يراني صاحب المطعم أقحم رجلي نزولاً على الدرج، ويداي غارقتان في المرحاض. قلت ضمناً وبمكر، سواء أكانت ابنتك، يا سيدي، هنا، أم لا، فلن يغيّر ذلك شيئاً من تصرفي المخلص ومن تكرّسي لمؤسستك هذه التي تخاف الله.

استدرت جنوباً في طريقي من المطعم إلى المنزل، وقرعت بقبضتي الباردة باب شوهره. فتحت الباب، وانسحبت إلى

الداخل دون أن تتفوه بكلمة. خلعتُ حذائي، وتركته عند المدخل لينزف ثلجاً، وسرتُ عبر الأرضية الخشبية إلى المطبخ وقد تبعت خطوات عشيقتي.

قالت: أتريد الشاي؟

- نعم، من فضلك.

ـ هل أنت جائع؟

ـ لا، لقد أكلت في المطعم.

كانت شوهره ترتدي بيجامتها وشعرها مشدود إلى الوراء ومعقود برباط مطاطي. وبرغم أن منامتها فضفاضة، أمكنني أن أرى، وهي تتحرك، انحناءات إستها المستديرة. وقفتْ إلى المجلى تغسل أحد الأكواب. اقتربتُ منها ووضعت يدي على عجزها. لم تتفوّه بكلمة، ولم تعترض برغم أن يديّ باردتان. مددت إحدى ذراعيَّ إلى فخذيها، واستدارت الأخرى حول خصرها. قبّلت عنقها المكشوف.

لم يمكنني قط أن أتوقع ما الذي ستفعله شوهره، أو كيف سيكون ردّ فعلها على مفاتحاتي، وهكذا تسارعت ضربات قلبي عندما لمستها. لم أستطع تعوُّد رفضها. وبرغم ذلك، فإنني كنت على الدوام أوكل أمري إلى الحظ. في هذه المرة تدفّق الماء عبر المجلى، وأرغت الاسفنجة بين أصابعها. كان الكوب في المجلى يمتلئ ماءً. حاولتُ إدارتها بحيث تصبح في مواجهتي، لكنها قاومت. أرادتني أن أمسك بها كالغريب الذي لا يمكنها

أن تراه. ثم مدّت يدها إلى الغلاّية، قضت على صفيرها، وقطعت بخارها. وضعت إبريق شاي ممتلئاً على الدفّة، أقفلت الصنبور، وجلست إلى الطاولة.

قالت: كنت تتحدّث إلى مجيد.

ـ من؟

ـ سائق التاكسي، مجيد.

ـ نعم. هل أبلغك؟

ـ أما يجب أن يفعل؟

ـ نعم، إذا أراد. لكن، في الحقيقة، ليس ثمة الكثير لقوله.

ـ تعرف أنك رجل فضولي ومتطفّل.

ـ رأيته مصادفة. ليس الأمر أنني ذهبت باحثاً عن الرجل.

ـ وبرغم ذلك، فإنك كنت تستطيع أن تمرّ مرور الكرام. لكن لا، كنت فضولياً.

ـ نعم، كنت أستطيع أن أمرّ مرور الكرام، لكنني اعتقدت أن من قلّة الاخلاق أنك لم تعرّفيني إليه تلك الليلة في النادي.

ـ أتريد سكّراً مع الشاي؟

ـ لا.

ـ كيف عملك في المطعم؟

ـ جيّد.

ـ أنهِ شايك، ولنذهب إلى السرير. ربما كنت تحتاج إلى الاستحمام أولاً. توجد منشفة في الخزانة. ألديك واقيات ذكرية؟

ـ نعم.

ـ أرني.

ـ في سترتي، هناك.

– تعال إلى السرير بعد أن تنهي استحمامك. .

أطفأت شوهره ضوء المطبخ، وسارت عبر الممشى. بقيتُ واقفاً في الظلام، وقد ناسبني ذلك. أمكنني سماعها تدخل غرفة نومها. سطع نور خفيف من غرفتها، مرّ عبر الباب، وسقط في الممر الضيّق. لففت أصابعي حول كوب الشاي، ثم رفعته ووضعته على خدّي البارد. رشفت الشاي، بعد فترة، لكنني لم أنهِ الكوب. سكبت معظمه في المجلى وراقبته يختفي بسرور. سرت إلى الخزانة، وسحبت المنشفة. كانت أرضية الحمام باردة. تركت المياه تنساب لفترة إلى أن أصبحت دافئة. خلعت ثيابي كلها ووضعتها على الأرض. استخدمت صابون شوهره والشامبو العائد إليها، وسقط ماؤها على وجهي، وتسارع نزولاً على عنقي، وصدري، وساقي، ومضى إلى تحت آخذاً معه كل بقايا المطعم، وروائح المطبخ، والبرد.

* * *

عندما بلغت السرير، كانت شوهره تدير لي ظهرها.

قالت: أرني الواقي.

أعطيتها إياه.

- إنه مجعّد. ليس صالحاً. . ورمته على الأرض.

- لكن...

ـ انسَ الأمر. احتضنّي فحسب.

احتضنتها. دفنت رأسها في صدري، ويداها مضمومتان على جسمها، من دون أن تلمساني.

ـ ماذا قال لك مجيد؟

ـ إنه صحافي.

ـ كان شاعراً جيّداً أيضاً.

أَخبريني. . أشعر بالفضول.

ـ أعرف ذلك. سأخبرك، لكن استمرَّ في احتضاني.

عصرتها بمتعة أكبر.

قالت شوهره: إن مجيد كان صديق خالي المفضّل. أسّسا معاً تلك المجلة السرّية بعد الثورة في إيران.

ـ من أي نوع؟

ـ مجلة اشتراكية، يسارية، فكرية. لم يتمكن الموالي من الاهتداء إلى مصدرها. لكنهم اهتدوا أخيراً إلى صاحب المطبعة. عذّبوه حتى أفشى باسم خالي. فعذّبوه هو أيضاً، لكنه لم يُفشِ قط أسماء أي من أصدقائه. وقد بقي مجيد ممتناً له على الدوام.

قُتل خالي في النهاية. كان طويلاً ووسيماً - قالتها وابتسمت - كان شعره سابلاً أسود، شديد السواد، بحيث يكاد يبدو أزرق أحياناً. تعوَّد المجيء لزيارتنا وكانت والدتي تسعد كثيراً لرؤيته. ما إن يظهر شقيقها، حتى تنسانا، تنسى والدي، تنسى العالم. تعوّدتُ مراقبتها تنظر إليه وتنسى نفسها. لم تتعافَ قط من موت شقيقها. كانا مقرّبين كثيراً. تغيّرت. وأنا، بعد ذلك بسنوات، اضطررت إلى مغادرة إيران. جئت إلى هنا واتصلت بمجيد. ساعدني. اعتنى بي. شعر بأنه مسؤول عني وعن حمايتي. إلى أن حدث شيء ما.

صمتتْ.

قلت: أَخبريني، لن أقبل بنصف القصة.

تنهَّدت شوهره وقالت: يا لك من روح فضولية. عمل مجيد، في الحقيقة، سائق تاكسي، معتقداً أن الأمر سيكون موقتاً إلى أن يتعلّم الفرنسية ويجد عملاً هنا كصحافي أو أستاذ. بقي في البداية ينظم الشعر، وحاول ترجمته إلى الفرنسية، إلا أنني أعتقد أنه، بعد فترة، لم ير فائدة من ذلك. ربما ليس ثمة اهتمام بعمله. يمكنه أن يتلو حافظ غيباً. لو أنك تفهم الشعر الفارسي وتسمعه يتلوه لوجدته جليلاً. على أي حال، كنت وحدي عندما وصلت إلى هنا. ليس لدي أحد هنا غيره. إنه الوحيد الذي يمكنني التحدّث معه. كان يطبخ لي في كل يوم. . - ضحكت هنا شوهره - ناديته في البداية يا عمي. ثم أتيت في أحد الأيام لزيارته. كان يدخّن ويشرب في تلك الليلة. أبلغني أنه لطالما

شعر بالذنب لأن خالي مات وهو لا يزال يشهق ويزفر، وأبقى سيجارته مرفوعة. لم يطبخ في ذلك اليوم، ولم يأكل. مضيت إلى المطبخ. تبعني وأمسك بيدي. وهكذا، بعد ذلك بأسابيع قليلة، وجدت أنني حامل. ليست بفكرة جيدة أن تترك واقياً في جيبك الخلفي عندما تكون سائق تاكسي. لا أستطيع فهم الرجال وجيوبهم. ربما كان عليهم جميعهم أن يحملوا محافظ»... وضحكت من جديد.

- والطفل؟

هزّت شوهره برأسها وقالت: لا.. لم أنجبه. لقد أسقطته.

ـ وهو؟

ـ عرف. أخبرته. أرادني أن أحتفظ بالطفل. من دون أن أبلغه، ذهبت وحدي. سرت إلى العيادة وحدي أيضاً، وتساءلت، في طريقي إلى هناك، كيف كان خالي ليشعر حيال ذلك. أصبحت في تلك اللحظة قَدَرية. فكّرت في احتمال أن يكون كل شيء مقدَّراً، وربما كان علي الاحتفاظ بالطفل. ربما مات خالي لإنقاذ بذرة ذلك الرجل. وبرغم ذلك سرت إلى العيادة. دخلت المبنى، وحدي. كل امرأة هناك كانت بصحبة أحد. وأنا كنت وحيدة. ها أنت تعرف الآن. هل رضيت أيتها النفس الفضولية؟

ردّت شوهره الأغطية عليها، وأطفأت الضوء، في حين أنني أبقيت ذراعي حولها.

* * *

أيقظتني في الصباح وقدّمت إلي القهوة. استحمَّتْ. وعندما خرجت مع منشفتين ملفوفتين حول جسدها، تبعتُ خطواتها الرطبة. وقفت عند باب غرفة النوم وراقبتها تجفِّف شعرها. انحنت، عارية، صوب المرآة، وتقوّص صدرها إلى الأمام، وإستها تلمع في الضوء الخفيف الآتي من نافذة جانبية ما أعطاها شكل منحوتاً ثلاثي الأبعاد. خطوت خطوة في اتجاهها.

تمتمتْ، وقلم الكحل معلّق على رمش عينها: ابقَ هناك، لا أستطيع. ثم إنني قد تأخرت بالفعل. لا وقت لدي لذلك الآن.

سرنا معاً إلى المترو، دون أن يتفوه أي منا بكلمة. ذهبتُ معها إلى المحطة. استخدمتُ بطاقتها على الباب الدوّار، ودخلت النفق. راقبتها تنزل على الدرج المتحرِّك، تخطو نزولاً صوب الجوف. انتظرت، وأنا متردّد في الخروج إلى البرد من جديد. إنه واحد من تلك الأيام التي لا ترحم أصابع قدميك، وتتناسى عذابات أذنيك، وهي حقيرة ومصمّمة على أخذ قضمة من أنفك. إنه يوم يذكّرك بأن في وسعك الارتجاف ما شئت، وأن تتنشّق ما أردت، فسيظل الكون غافلاً عنك. وإذا سألت عن سبب هذه الحرارة غير الإنسانية، فسيجيبك الكون بشفتيه المزمومتين ونبرته الباردة، ويطلب إليك العودة من حيث جئت إذا لم يعجبك المكان هنا.

قفلتُ في نهاية المطاف عائداً إلى المنزل. أدفأني السير، إلا أن وجهي وأصابع قدميَّ بقيت مجلّدة. فكّرت في أن علي أن أشتري حذاءً ما. أول ما علي فعله عندما أتقاضى مرتَّبي، هو

أن أشتري حذاءً. وصلت إلى مقهى أرتيستا، ودخلته من دون أن أتطلّع أوّلاً من النافذة، كعادتي. رأيت رضا في الداخل يجلس وحده إلى إحدى الطاولات. بدا في حالة مزرية. غاب البروفسور وحاشيته عن المكان. جلست إلى طاولة رضا. مضى وقت طويل على كل منا قبل أن يتفوّه بكلمة أخيراً، رفع رضا قهوته إلى فمه، ارتشف قليلاً، وأبقى الفنجان في الهواء، وقال بوجهه الساخر المألوف: هل ستطلب شيئاً، أم أنك ستطلب من النادلة، مجدَّداً، أن تأتيك بكوب من الماء؟

قلت: ارحل عني:

ـ احترس. إنهم يحملون الآن مياهاً معبّأة. فإذا طلبت شيئاً مجاناً، فقد ينتهي بك الأمر وأنت تدفع ثمن الزجاجة المفتوحة.

مددت يدي إلى علبة سجائر رضا. أقفلها على الفور ووضعها في جيبه.

قلت له: تبدو في حالة مزرية.. أرى أبيض على رأس فتحتي أنفك».

وقف رضا، وهرع إلى الحمام. وعاد بعد لحظة وقال: مضحك جداً..

- هل أمضيت ليلة قاسية البارحة؟

ـ نعم.

ـ ألم تنم؟ لكنني أراهن أنك تغوَّطت جيداً في الصباح.

ـ نعم. المادة البيضاء جيدة لمنظومتك الجسمية.

ـ هل نمت على الأريكة، أم على سرير مكتظّ؟

ـ على أريكة مكتظّة. لست مولعاً كثيراً بالعربدة.

- أعانيتَ تجربة سيئة مع ذلك؟

- نعم، والدتك تشخر..

ـ ألديك أي بقايا من ليلة أمس؟

ـ نعم، وأنت لن تحصل على أي منها.

- يمكنني أن أجمعك مع أناس من الطبقة العليا الحقيقية. لا أعني الراقصات الحقيرات وموسيقيي المطاعم من حشمك المبهرجين، بل أناس حقيقيون، من أقصى الطبقة الرفيعة، أقصى أقصى الطبقة الأولى اللعينة..

قلت ذلك وشبكت أصابعي بعضها ببعض، وفتلت يدي صعوداً وأشرت كما يشير الرومان.

قال رضا:

ماذا؟ هل تمت ترقيتك من نويدل كانس أرض المطبخ في مطعم إيراني، إلى نوع من مسوّق لمناسبات الطبقة العليا؟

ـ هل تريد أن أجمعك بهم أم لا؟

ـ بالتأكيد، أرني كيف.

- أين آلتك؟

ـ في المنزل.

ـ اذهب واجلبها ووافني، بعد ساعة، عند تقاطع برنارد وبارك. أوتستطيع ذلك؟

ـ من الأفضل أن يكون الأمر جيّداً.

- لن تندم عليه.

عدت إلى المنزل. وفي خلال صعودي الدرج، مررت بابن جاري يصرخ بأعلى صوته. حاولت والدته مواساته، وهي تتحدث إليه بالأوردو. ثم عيل صبرها. شرعتْ في الصراخ، وجذبت الولد بعنف وأعادته إلى داخل الشقة. كُمّ صوته، لكنني استطعت سماعه، عبر الباب، وهو يشهق بالبكاء، وقد شلشل الدرج بالدموع التي بلغت الشارع، وذاب الثلج من جراء حزن الولد.

جلست في سريري. سحبت كتاباً، وشرعت في القراءة، إلا أنني لم أتمكن من التركيز. قرأت المقطع نفسه ثلاث مرات. تساءلت: ما الذي تفعله الحشرات في مطبخي هذه الساعة؟ سرت إلى المطبخ، ولم أر فيه حشرة واحدة. حان وقت لقاء رضا، لذا عدت إلى الشارع وبدأت أسير في اتجاه بارك وبرنارد.

انتظر رضا داخل الصيدلية عند الزاوية، وشرع يلوّح لي قائلاً: لقد تأخّرت. ألا تعلم بأنني لا أستطيع أن أعرّض آلتي لهذا النوع من البرد؟ أتعرف كم هي قديمة تلك الآلة؟ إلى أي مدى سنذهب؟

ـ بحدود كتلتين إلى ثلاث كتل من البنايات غرباً.

سحب وشاحاً لفّه حول الصندوق الذي يحمله.

سرنا في الشارع معاً، ثم دخلنا مبنى. ضغطت زرّ جرس سيلفي الطنّان مرتين، كما تعوّدت أن أفعل عندما كنت أسلّم البقالة. فتحت لنا دون أن تسأل من الطارق. وعندما رأتني، أبقت الباب نصف مفتوح، مترددة، وهي ترجِّحه قليلاً إلى الوراء وإلى الأمام. واضح أنها لا تستطيع أن تقرّر هل تغلقه في وجهي، أم تستمع إلى ما لدي لأقوله.

قلت لها: من المهم أن نتحدّث.

مرّت بنظرها على رضا كما لو أنها تفكّر هل عليها أن تُحرجني أمام غريب. ثم قالت: لم يعد لأي شيء أهمية بيننا بعد الآن.

جعلت لكنتها الباريسية الزائفة الأمر يبدو كما لو أنها في دعاية لفيلم فرنسي ما.

«أريد أن أعرّفك إلى صديقي رضا هنا». . قلتها وأنا أؤدّي دوري كشخصية رئيسية وجودية في فيلم تشاؤمي، تنقصني السيجارة وبعض سحب الدخان.

قالت سيلفي: لم أعتقد بأن يكون قد بقي لك أي أصدقاء.

قلت: رضا افتح صندوقك. افتحه الآن. . وعدت وصرخت به منتهراً. وقلت لسيلفي: عليك أن تصغي إلى رضا يعزف على آلته الإيرانية.

علمت بأن ليس بمقدور سيلفي مقاومة أي شيء أجنبي. والكلمة المفتاح هي إيرانية. لذا شدّدتُ عليها عندما قلتها بصوت مرتفع.

توقّفت سيلفي، وهي تمسك بالباب ثابتاً.

فتح رضا صندوقه، ومدَّده على الدرج. أخرج سنطوره ووضعه على الصندوق، وسحب ملعقتين صغيرتين، وشرع يضرب الأوتار ويعزف.

ثار في سيلفي فوراً حبُّ الاستطلاع. وعندما ألقت بوجهها على حافة الباب، علمتُ بأنني تفوّقت عليها.

قالت: «حسناً، ça suffit (يكفي).. سيخرج الجيران الآن. سيعتقدون أننا مجانين.. وضحكت». تحبّ أن تُعيَّر بأنها مجنونة. تعتقد la bourgeoise (البورجوازية) أنها متهتّكة ومجنونة! تقتنع بأنها هي la gang (العصابة)، كما تسمّي أصدقاءها، dingue (خالعو العقل).

خلعنا أنا ورضا حذاءينا ودخلنا شقة سيلفي. سار رضا صوب البيانو. تعرّف إلى الستينواي. سار من حوله، ومرر راحة يده على سطحه الأسود اللمّاع. تحدّث وسيلفي في شأنه، ثم وضع صندوقه على المنضدة. ثار في سيلفي حبّ الاستطلاع أكثر. ألقت علي نظرة سريعة وهي في طريقها إلى المطبخ، وقالت: il est charmant, ton copain (صديقك فاتن). ابتسمتُ، وتبعتها إلى المطبخ، حيث أتذكّر موضع صفيحة الجبنة، وزجاجة النبيذ على بطنها، والثلاجة تقف منتصبة، وخبز الباغيت الفرنسي

يخرج من سلّة القروي المحاكة. أعاد ذلك كله ذكريات الطعام، والحياة الحلوة، اللذين سبق أن اختبرتهما.

تحدّثت سيلفي إلى رضا بإنكليزيتها المكسَّرة ذات اللكنة الفرنسية القوية، معتذرة عن لفظها السيئ. ابتسم رضا، وأكّد لها أن إنكليزيتها ممتازة. بل إنه وضع كف يده على ذراعها لإعادة طمأنتها. اقترب جسماهما أكثر. طلبت إليه سيلفي أن يعزف من جديد، وهو ما فعله. أخبرته بأنها أحبّت موسيقاه، وأنها ستعرّفه إلى أحد المؤلِّفين الذين عملت معهم في تسجيلاتها الخاصة. تأثّرت بما أخبرها عن أن الآلة التي عزف عليها عمرها بضع مئات من السنين، وأنه تم تناقلها من معلّم إلى تلميذه، وأن الأوتار الاثنين والسبعين ترمز إلى حفيد نبي الإسلام الذي قُتل في معركة مع حاشيته التي بلغت اثنين وسبعين. أطلع رضا سيلفي على تاريخ الآلة، وثار فضولها أكثر إلى درجة أنها سألته إذا كان في وسعها أن تلمسها. أبلغها بتهذيب أنه يفضّل ألاّ يسمح بذلك، واعتذر تكراراً.

أجابت، آه، je comprends, je comprends (أفهم، أفهم)، أفهم أنها ça doit être tellement délicat (دقيقة جدّاً بلا شك).

Spirituel (روحي)، صرختُ من المطبخ، أشبه ببائع يعقد صفقة.

Ah, oui, spirituel. Mais, bien sûr, spirituel. Comment j'ai pas pensé à ça؟ (آه، نعم، روحي. نعم، بالتأكيد، روحي. كيف لم أفكّر في هذا؟). ثم جلست سيلفي إلى البيانو. وكالعادة

تدلّى ثوبها الحريري الطويل وراءها، وسقط عن الكرسي ولمس المسرح أشبه بستارة الأوبرا. عزفت لنا بعضاً من موسيقاها، وأشعرتني تعابير وجهها الدرامية بالاشمئزاز. تذكّرت لماذا اضطررت إلى تركها هي و la gang (عصابتها) الجالبة للكسب. بيد أن رضا وقف إلى جانب البيانو وابتسامة الأطفال تعلو وجهه، متفحّصاً المحيط الغني كما فعلت أنا تماماً مرّة في الزمن. عدت إلى المطبخ، بينما نوتاتها تملأ المجال. فتحت الثلاجة، وسحبت جبن الماعز، والجنبون، والباتيه، والخس، والطماطم، والزيتون، والخردل، وصنعت لنفسي شطيرة مزدوجة. حكّت قطة سيلفي شاربيها على رجلي. أكره حيوانات المنزل. تراودني عنها كوابيس وهي تطاردني، تقودني نزولاً في المجارير، إلى حفر عميقة، تمسكني بمخالبها وتلوّح بأنيابها من ورائي. لا تحترم كائنات كهذه إلا ما هو أرفع منها.

وقفت سيلفي عند باب المطبخ، وأنا ألتهم آخر قضمة لي. قالت: «أرى أنك، كالعادة، وجدت سبيلك إلى الطعام. كل ما شئت، لكن لا تسرق شيئاً اليوم. أرجوك. فصديقك يبدو محترماً. لا تحرجه».

قلت، وأنا لا أزال أمضغ: «ربما علي الانصراف».

لم يشأ رضا المغادرة. وجَّه إلي غمزة تعني «انتظر قليلاً». إلا أن سيلفي قالت إن لديها ارتباطاً، وحسم قولها الأمر. وفي طريقنا نزولاً على الدرج، رفع إبهاميه علامة الموافقة. اجتزنا مدخل المبنى، لكننا واصلنا نزول الدرج حتى بلغنا غرفة

الغسيل. سكب رضا محتوى كيس بلاستيكي صغير على دفة الغسيل، وقطع البودرة بواسطة بطاقة اعتماده، وشفطناها، كلانا، كأننا مكنستان كهربائيتان طليقتان. ولما أصبحنا دافئين، وجافين، ومنفوشين، عدنا إلى فوق وسرنا في الشوارع من دون أي شعور بالخوف أو البرد. حلّ عليَّ نوع من الاطمئنان العظيم، وشعرت أنني واثق بنفسي، ومقدام.

قلت: إليك الصفقة.

ـ أي صفقة؟ الصفقة تمّت. الصفقة دخلت عبر أنفك، يا رجل.

ـ الصفقة بدأت للتو. ستبلي حسناً مع أصدقائها. إنهم لم يعودوا يثقون بي، لكنهم سيثقون بك. لقد انضممتَ إليهم. لديك مهارتك، تستطيع الأداء، وتمارس الفن. أنت، يا صديقي، تنتمي طبيعياً إلى الحكام الفاسدين. ويجب أن تكون كذلك، لأنك تتحدّر من سلالة طويلة من الحكّام الفرس. إن ستة آلاف سنة من الحضارة تؤتي ثمارها أخيراً.

«إذاً، كيف أنت انتميت؟ وليس لديك ما تقدّمه... لا ثقافة، ولا ما ينفع البشرية على الإطلاق». قالها وضحك.

- لا تكن متأكداً كثيراً في شأن الأمر الأخير، أيها الوريث الكبير لأحشويرش. لكن حسناً، اسمع. لننهِ هذا الهراء. إنهم محشوون بالمال. وأنا شققت طريقي بالخداع. تعلم أنني كنت l'aventurier (المغامر). قدّمت إليهم إحساساً بالواقع.

ـ الواقع؟ أنت!

وضحك رضا . .

قلت: الأجنبي المجامع، الغريب، الخطير. العبْ الأمر كما يجب وسيرمونك من حفلة إلى أخرى. أريد حصتي.

ـ أي حصّة؟

ـ سأجلب لك الحثالة من ديريك الضخم. وأنت تقول لهم إنها المادة الحقّة. سينخر هؤلاء الفتية أي شيء، وسنتقاسم الفرق. أنت لن تنسى صديقك الذي يسير قربك. أعرف أنك لن تفعل.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ لأنني بكل بساطة أستطيع أن أسحبك كما أدخلتك.

ـ أنت واثق بنفسك كثيراً، أليس كذلك؟ لنرَ أولاً ماذا سيحدث.

- ستحدث أمور . . ستحدث.

افترقنا، وقفلت عائداً إلى المنزل. وعندما مرّرت بنوافذ مسطحات الدرج، رحت أحث الخطى. بدت آبار النور أشبه بماء يمكنه أن يبلل شعري، ويتدفّق من فوق كتفي، ويتساقط كماء مسح الأرض من سطول تُفرغها من الشرفات في أماكن مشمسة ربات منزل، والسجائر الدائمة بين شفاههن بأعينهن المختلجة بلا هدف. وها إنني الآن أصعد الدرج ركضاً، باحثاً

عن مفاتيحي ولا أستطيع إيجادها. لعنت رضا واتهمته بسرقة مفاتيحي. وكالمسعور، خلعت سترتي وفتشتها. ثم خلعت حذائي، وسروالي، ودسست يدي في جيوب كثيرة. عثرت أخيراً على المفاتيح، وأمكنني بطريقة ما أن أفتح الباب. دخلت الشقة وبلغت الستائر سريعاً وأسدلتها. تمتعت بطاقة لا تُفسَّر. أردت أن يتوقف كل شيء عن الحراك، برغم أنني علمت في الوقت نفسه أن لا شيء يتحرّك حقّاً. ذهبت إلى المطبخ وخبطت حذائي كالمسعور على دفّة المجلى، بغض النظر عن وجود الكائنات أو عدم وجودها. ضربت حذائي على المجلى، والصحون، والثلاجة. ثم تسلّقت إلى الدفة وضربت الجدران، مطارداً الكائنات ومسوّيها بالأرض. استطعت رؤية نفسي أفعل هذا كما لو أنني شخص آخر بمقدوره أن يتوقّع كل خطوة مقبلة. حدث كل شيء في إطار فترات زمنية. وبينما كنت على وشك قتل المزيد من الكائنات، سمعت صوتاً يهمس لي: متلاعب، قاتل عديم الفائدة.

قبل أن أتمكَّن من المتابعة، نزلت على الأرض، رفعت خفّي في الهواء، قلت: أوقف إهاناتك وإلا فسأصفع وجهك.

- الغضب، هممم. لم أفكّر قط أنك ستعمل بمقتضى ذلك من جديد.

وعندما نظرت إلى الخلف، رأيت صرصاراً أمهق مخطّطاً يقف على اثنتين من قوائمه، مستنداً إلى باب المطبخ. لقد نما ليصبح في حجمي، بل أكبر، إذا ما قست هوائييه اللذين يلمسان

السقف. له وجه مطاول نحيف، محني مثل أحدب، وأخذت اثنتان من أياديه الصغيرة تفرك إحداهما الأخرى باستمرار، هو يتكلّم. قال: لنرك تضرب بخفّيك الآن. لم تعد تشعر بأنك كبير الحجم جداً، هه؟

اقتنعت فجأة بأن اليوم الأخير الذي أخبرتني عنه سيدتا شهود يهوه قد مرّ، وسُحب جميع الأناس الصالحين صعوداً إلى الجنة. وحدهم أشباهي تُركوا في مواجهة الكائنات، حكّام الأرض المستقبليين. فكّرت في أن يوم الدينونة بدا خالياً جدّاً من الرسميات، بل إنه شخصيّ. لطالما اعتقدت بوجود عقاب جماعي، خط لا ينتهي من الأشخاص المرهقين يشدّون حبالاً تحت أسواط ناظري، عمّال شبه عراة مربوطين بالجلد ومشرفين على العبيد. بيد أن هذا يبدو أكثر شخصيّة. فممثل العرق الحاكم مستقبلاً هو في الواقع هنا لمواكبتي.

وقلت للبهيمة المخططة: إذاً، قد بلغ العالم أخيراً نهايته.

قال الكائن القذر الواقف إلى بابي وهو يُميل برأسه في الاتجاهين: «لكن يا mon cher (عزيزي).. انتهى العالم من منظوري منذ فترة طويلة. أنت لم تشارك فيه قط. انظر إلى نفسك، دائم الهروب، والانزلاق، وتشعر بأنك عالق في كل ما تقوم به.

ـ هذا ليس هروباً، قلت. أرفض أن أكون تابعاً. إنه قراري الإرادي.

قال الكائن متململاً. نعم، نعم، لأنك اعتقدت، بعنجهيتك البالغة، أنك تنتمي إلى ما هو أفضل وأسمى. أنت ما أسمّيه عقاباً، يعيش عند حدود القتل. ينتظر أن تتم عملية القتل، لكنه لا يمتلك أبداً الجرأة على إجرائها بنفسه.

أجبت وأنا ألوّح بحذائي في وجهه: وكيف لصرصار مثلك أن يحكم؟ تختبئ وتقضم البقايا والفضلات. لا يخيفني حجمك ولا مظهرك المريع.

- صحيح، إننا دميمو الخلقة، لكننا نعرف دوماً أين نذهب. لدينا برنامج.

صرخت: برنامج شرير وجائر، إذا أمكنني أن أضيف!

قال الكائن مصحّحاً لي: «تغيير. برنامج لتغيير العالم»، ولوّح بشاربيه.

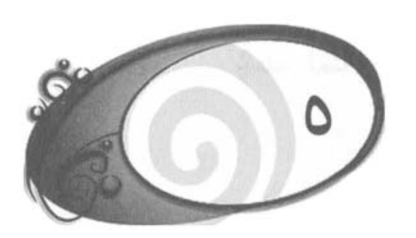
ـ ولإخضاع كل من لا يتفقون مع برنامجكم، وقتلهم.

ـ قتل؟ هل سمعتك تقول قتل؟ يا بني العزيز، دعنا نكفّ عن إطلاق الأحكام هنا، وعن فتح الجراح واستعراض الماضي. عرفتك منذ نعومة أظفارك. بل إنني عضضتك مرّة. آه، أنا واثق أنك تتذكر ذلك اليوم في الديار. تخيّل: ولد حافي القدمين، يتزحلق على تلك القرميدات الوسخة، في عجلة من أمره للخروج واللعب. وأنت، بلا جوربين، وفي تسرّعك الطفولي، دسست أصابع قدميك الصغيرة داخل حذائك وعضّك شيء ناعم وطري يتململ في الداخل. كنت أنا. وعندما اختبأتَ

في خزانة والدتك، كنتُ هناك أيضاً، وكنتُ عندما سرقتَ الحلوى من المتجر، وكنت أيضاً عندما جمعتَ الرصاص، وعندما تبعت أبا رورو إلى مكان المجزرة وراقبته يخلع الأسنان الذهبية من الجثث.

ـ لا، لم تكن هناك! فأنا رميت خفّي في وجه الكائن. النعال تجعلك تقشعرّين أيتها الحشرة! ها ها ها، لا يهم كم يكبر حجمك، فأنت ستزحفين دائماً، أيتها الحشرة، تزحفين! هكذا صرخت في المسخ، وتابعت: وأنا، على الأقل، لا أخاف النعال الخابطة، ولا صوت الأرض عندما ترتج تحت وقع جزمات الرجال السائرين. أنا أتمتع على الأقل بشجاعة الرفض والمواجهة».

قاطعتني الحشرة: والقتل؟ أنت واحد منا. جزء منك صرصار. لكن الجزء الأسوأ هو أنك بشري أيضاً. انظر كيف تسعى جاهداً إلى أن تعبدك النسوة، أشبه بتلك الآلهة الغيورة المغرورة. اذهب الآن وكن بشريّاً، لكن تذكّر أنك مُرحّب بك دوماً. تعرف كيف تجدنا. أَبقِ عينيك على ما يجري تحت، في العالم السفلي.



بقيت المعالجة هادئة لفترة، عندما أبلغتها عن لقائي مع الصرصار العملاق، ثم طلبت إلي أن أخبرها المزيد.

قلت مكرّراً: كان صرصاراً كبيراً. وأجرينا محادثة.

ـ ما الذي تحدّثتما عنه؟

ـ عني.

ـ ماذا عنك؟

قال إنني في جزء مني صرصار، وفي جزء آخر آدمي.

هدأت جنفييف من جديد. نظرت في عينيّ: هل تشعر بأن جزءاً منك صرصار؟

ـ لا أدري، لكنني لا أشعر بأنني بشري بالكامل.

ـ ماذا يعني أن يكون المرء بشرياً؟

ـ لست متأكداً. يُحتمل أن يكون عالقاً.

ـ إذاً، أن يكون حشرة يعني أن يكون حرّاً؟

ـ بمعنى ما، ربما.

ـ أخبرني كيف.

ـ يصبح أكثر خفة.

ـ لمن؟ ولمَ؟

ـ لكل شيء، للضوء.

ـ منذ متى حَدث هذا؟

ـ ماذا؟

ـ اللقاء مع الصرصار.

ـ منذ خمسة أيام. يوم السبت.

ـ وماذا جرى منذ ذلك الوقت؟ هل زارك من جديد؟ أم ظهر لك أي شيء آخر؟

ـ لا، لم يحدث شيء، بل جرى كل شيء كالعادة. ذهبت إلى العمل في اليوم التالي، وكان كل شيء طبيعياً.

ـ هل تناولت شيئاً في ذلك اليوم الذي رأيت فيه الصرصار؟

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل المخدرات.

بقيتُ صامتاً.

قالت: إذا بقيت تتعاطى المخدرات، فلن أستطيع مساعدتك.. إلا أنني سعيدة بأنك شاركتني في الأمر. ربما جاء الأمر ردّ فعل على شيء تناولته. وإذا حدث هذا على نحو أكثر تكراراً، خصوصاً إذا لم تكن قد تعاطيت المخدرات ـ لأنك لن

تتعاطى المخدرات مجدَّداً، صحيح؟ ـ سوف تخبرني، أليس كذلك؟ لن أطرح المزيد من الأسئلة الآن، لكنك محظوظ بأنك تخلّصت من الهلوسة. بعض الناس لا يشفون أبداً من الفصول. ليست المخدرات، في العادة، هي السبب الوحيد للهلوسة. إلا أنها، في حالتك، تجعلك أكثر عرضة. ما الذي سنفعله حيال ذلك؟

ـ حيال ماذا؟

ـ حيال تعاطي المخدرات!

أصبح صوت جنفييف أكثر ارتفاعاً، وبدت أشد حنقاً وأكثر خيبة؛ وتابعت: أنا هنا لتقويم الوضع، ولمراقبة تقدّمك. نعم، أنا هنا لمساعدتك، لكن أتعرف أمراً؟ أنا في النهاية موظفة لدى الحكومة. يدفع الناس ضرائب كي تكون أنت هنا. هل تدرك مسؤولياتي؟ أريد حقيقة أن أساعد، لكن عليك ملاقاتي في منتصف الطريق.

انتظرتها، لسبب ما، برغم غضبها، أن تلمس ذراعي كما فعلت ذلك أحياناً في الماضي. لكنها أصبحت أكثر حذراً مع الوقت. قالت إنني أردت أن أجلب يدها إلى حضني، وأن أمسك بأصابعها. أكره الاعتراف بالأمر، لكن الصرصار الكبير يعرفني جيّداً. أريد أن أُعبد ويُعجَب بي.

* * *

تساقط ظهر اليوم التالي، شلال صغير ناعم وخفيف من

الثلج. رأيته عبر نافذتي. إنه نوع من الثلج الرطب الذي يضرب الزجاج، ويتحوّل فوراً إلى ماء. فتحت النافذة. مددت يدي إلى الخارج، ولمست الجانب الخارجي من الزجاج وانتظرت حتى سقطت الندفة الهابطة في راحة يدي. سحبت يدي، ثم أقفلت النافذة، ولحست النقطة في كفّي. لطالما أردت التقاط واحدة من هذه الندف قبل أن تستقر وتحتل الأرض والسيارات وأسطح المدينة. الكائنات الصغيرة التي تبدو تافهة ومتواضعة هي قاتلة بأعدادها الكبيرة المطلقة، وتطابقها، وتكرارها، وحركتها الثابتة الأشبه بحركة الجيوش، وغزواتها الصامتة. إنها ترعبني.

أخبرتني جدّتي عن أيام المجاعة، عندما جاء الجراد بالملايين وغزا الريف والتهم كل الحبوب، والفاكهة، والخُضَر. نجت عائلتها فقط لأنها امتلكت بضع دجاجات ونقّبت بحثاً عن الجذور. إلا أن المجاعة قتلت نصف السكان. ثم جاء الجيش التركي وصادر جميع مستودعات الحبوب والغذاء. تذكّرتْ صبيّاً، من عمرها، كان يأتي كل يوم ويطلب طعاماً من والدة جدّتي. وكل ما يقوله هو: «عمّتي، أنا جائع». لكن والدتها طردته بعيداً، ثم طردته جدتي. وغاب في يوم من الأيام. بكت جدتي وهي تخبر القصة. راقبت تلك الحشرات تهبط كالغيم على الحقول وتحوّلها جرداء ومستوية. أرى الناس بهذا الشكل، أرى الثلج بهذا الشكل، أرى الريح، السيارات، الكلمات التي تطير من أسنان الناس، الغبار الأبيض الذي أمرّره عبر فتحتَي أنفي، والماء المنساب بهذا الشكل. الطبيعة كلّها تتجمّع وتغزو.

كيف أشرح هذا كلّه لجنفييف؟ كيف أقول لها إنني لا أريد أن أكون جزءاً من أي شيء، لأنني أخشى أن أصبح غازياً يجوّع الصِّبْية الصغار ثم يراقبهم وهم يموتون بأمعاء خاوية. أنا الآن جزء من الصرصار، وماذا لو أن غرائزي أخذت أفضل ما فيّ واقتادتني إلى جيوش الهوائيات تلك، ذات الظهور المحدودبة، والأسنان الملتهمة التي تستعد من تحت الأرض للصعود إلى سطحها والغزو؟ هل شاهدني الصرصار أرمي بحبلي من فوق الشجرة في المتنزَّه، وهرع إلى قطع الغصن من فوقي؟ نعم، لا بد من أن هذا ما حدث. اعتقدت أن الغصن صلب. يجب أن أذهب وألقي نظرة. يجب أن أسير عائداً إلى الجبل وأرى هل توجد آثار عضّات أسنان على الشجرة. يجب أن أسير وأنظر من جديد. عليّ أن أرى ذلك الآن. سأقف في مواجهة الشجرة وأتخيّل كيف سيبدو الأمر، التعلّق بخيط مع رابط دقيق واحد مع الوجود. لكن كيف، كيف يكون الوجود بلا انتماء؟

بعد فترة من ذلك، عبرت المتنزَّه إلى الجبل، ماراً بمقبرة من الملائكة الرخامية وكلمات محفورة في الحجارة. اجتزتُ البحيرة الاصطناعية، وقلّة من أشجار القيقب العارية. فكّرت في أن الأمر مضحك. فأكثر ما أذكره هو تلك الأشجار. لا بد من أنني تفحَّصتها عن كثب في ذلك اليوم. وها إنني أعثر على الشجرة المميزة. عثرت كذلك على بعض من روث الحصان تحتها، وهو ما ذكّرني بمركز الشرطة الخيالة المجاور. نظرت إلى أعلى محاولاً رؤية الغصن، لكن رؤيته تصعب عن الأرض. فكّرت في تسلّق الشجرة، لكنني خشيت أن تتم رؤيتي من جديد

فيعتقلني راكبو الأحصنة المعاصرون هؤلاء، وربما اعتقدوا أنني أفكّر في محاولة أخرى للانتحار. سرت حول الشجرة لبعض الوقت، مدّعياً أنني أبحث عن سناجب أطعمها، أو على الأقل هذه ستكون الرواية الرسمية إذا سُئلت. ثم قررت السير عائداً إلى المنزل لأنني أخذت أتأخّر على عملي، ذلك المكان التي يتم فيه إطعام البشر والحشرات بالتساوي.

* * *

دخلت المطعم. كانت سحر هناك، أبكر من وقتها المعتاد. وهي، في هذه الأيام، تعاملني كموظّف، ولم تعد تنزل إلى الطابق السفلي إلا لماماً. وإذا ما تبعتها، ولو مصادفة، تنظر إلي شزراً وتقول: «ما الذي تفعله هنا في الأسفل؟ اصعد إلى عملك». تقول هذا بتحدّ، مع إساءة المعاملة المخصصة للمتأخرين، لمرضى العقول، للخبثاء، للمخربين.

نادتني، بعد الطعام، بصوت مرتفع، كما ينادي المرء الخدم القدامى، وطلبت إليّ أن أحضر لها الشاي والحلوى.

وجدت، في شكل من الأشكال، معاملتها مطمئنة، لأن والدها لن يشك في شيء أبداً. وبحسب مفهومه، لا يحق للأميرة النوم مع من هو أقل شأناً منها. إلا أنني وقد تحوّلت الآن إلى خصي في قصرها، عبد يأتيها بالطعام، ويملأ الحوض بالماء الساخن لحمّامها، عرفت أنها تنتظر. ولا بد من أن يرحل الملك لمحاربة التنانين ويذبح الفلاحين، فتدّعي عندها أنني

مصارع، وتلمس عضلاتي، وتحظى بنشوتها قبل أن ترميني في حلقة الأُسود.

جلبت لسحر شايها ونظرت في عينيها. جرفت نظرها على الفور. ثم، ما إن أدرت ظهري، حتى نادتني وقالت: هذا الشاي قوي جدّاً. اذهب وأحضر لي واحداً آخر.

استعلمت بتهذيب: أيجب أن أضع هذا في كيس بقايا الطعام، يا صاحبة الجلالة؟

أمكنني القول إنها أرادت أن تضحك، لكنها احتفظت بوجه وقور. ثم كادت تبتسم وقالت: «أَحضر لي واحداً آخر»، ودفعت بالفنجان صوبي.

استدعاني صاحب المطعم بُعيد ذلك. طلب إلي إحضار معطفي من تحت. وعندما فعلت، قال: «تعال»، فتبعته إلى خارج المطعم.

قال: قف هنا في الخارج إذا جاء أحد إلى المطعم تقول إن المطعم مقفل حتى السابعة بسبب حفلة خاصة. أفهمت؟

ـ نعم.

ـ ماذا ستقول؟

ـ آسف، لكن المطعم مقفل بسبب حفلة خاصة.

ـ حتى متى؟

ـ حتّى السابعة.

هزّ برأسه وعاد إلى الداخل.

بعد دقائق قليلة، توقّفت ليموزين أمام المطعم، ونزل منها رجلان ضخمان. سار أحدهما صوبي ووقف إلى جانبي. دخل الآخر إلى المطعم. خرج صاحب المطعم وقال للرجل الذي وقف إلى جواري: نعم، إنه يعمل هنا. وأشار إليّ بالعودة إلى الداخل.

عاد الرجل إلى السيارة. فتح الباب، وخرج منها رجل قصير ذو ملامح متوسطية وهو يمسك بقبَّعته، ودخل المطعم. هرع صاحب المطعم لموافاة الرجل القصير عند الباب، مرحّباً به وآخذاً معطفه. أحنى رأسه كما لم أشاهده يفعل ذلك من قبل، ومدّ ذراعه ودلّ الرجل القصير على الطريق إلى الداخل. نظر الرجلان الضخمان من حولهما، وهما يحميان الرجل القصير على غرار الحراس الشخصيين، بينما أمطر المالك ضيفه القصير بالترحاب، منحنياً كالخادم. غادر أحد الرجلين الضخمين ـ السائق ـ بعد أن نظر من حوله. وجلس الآخر إلى البار بنظّارته الملوَّنة وعضلات ذراعيه المفتولة. جلس الرجل القصير إلى طاولة في الزاوية. وعندما مضيت لأشعل الشمعة على طاولته، أوقفني صاحب المطعم وأمرني بالعودة إلى المطبخ والقيام بعمل ما، وبألا أقترب كثيراً. خدمه صاحب المطعم بنفسه، وهو يبتسم ويفرك يديه معاً أشبه بالتاجر الحليم الذي هو عليه. أُمر الطباخ بالشروع في العمل على الطلبية فوراً، ثم استدعاه صاحب المطعم إلى الطاولة. عرَّفه بالرجُل القصير، وانحنى

الطبّاخ على لائحة طعام الرجل وشرح له شيئاً بالفارسية، وهو يشير بسبّابته إليها. هزّ الرجل القصير برأسه، بينما استعاد الطباخ لائحة الطعام وابتسم بتهذيب وعاد إلى المطبخ. راقبت حركاتهم. الرجل القصير شخص مهم.

كانت سحر لا تزال في المطعم. يبدو عليها الضجر وتشعر بأنها مُهمَلة. ذهبَتْ إلى وراء البار، ورفعَتِ الهاتف وشرعَتْ في الثرثرة واللعب بشعرها. أخذ والدها الهاتف من يدها، ووجَّه إليها نظرة قاسية أتبعها بتوجيه آمر. عادت وجلسَتْ إلى الطاولة على مقربة من باب المطبخ. نظرتْ صوبي، ثم نزلتِ الدرج، وهي تسترق النظر إلي من جديد. واصلتُ مسح الأرض. كان الطبّاخ مشغولاً يركّز في الفرن. بدا منشغلاً كما لو أن لديه ثلاثين طلبية. دخل صاحب المطعم المطبخ وغادره، وهو يرتّب باضطراب الأطباق الصغيرة ويُلهي الطبّاخ بحركات جسمه العصبية وأسئلته. تصوّرت في غضون ذلك أصابع ابنته الإلهة تجوب الطابق السفلي. لا بد من أنها بلغت الآن البندقية الجميلة ومجاريها المائية الضيقة. مسحتُ الأرض ولوّحت بالممسحة مثل جدّاف الجندول، متمنّياً لو أتمكّن من الغناء لانسياق المدّ تحت فخذيها.

ظهر رضا بعد دقائق قليلة مع موسيقييه. جاءت شوهره وفرهود أيضاً معه. جعلهم الحارس الشخصي جميعهم يفتحون حقائبهم، بما في ذلك علبة آلة رضا الموسيقية. سار صاحب المطعم إلى الباب للحديث مع شوهره وفرهود. بدت طريقته

اعتذارية، كما لو أنه يقول لهما إنها حفلة خاصة. لكن شوهره لم تتقبَّل الرفض جواباً. استمرّت في الحديث مع صاحب المطعم مشيرة إلى رضا الذي وقف جانباً، متردّداً. ثم أحنى صاحب المطعم رأسه، ومضى إلى الرجل القصير طالباً إذنه. نظر الرجل نظرة سريعة إلى صاحب المطعم وهزّ برأسه موافقاً. استدار صاحب المطعم وفرقع لي بأصابعه. غادرت البندقية ومياهها، وسرت على أرض المطعم. قال صاحب المطعم بطريقته المختصرة المعتادة: ساعدْهما.

ابتسمت شوهره وفرهود لرؤيتي. تسلّت كثيراً برؤيتي أضع المئزر الأبيض حول خصري. وقال فرهود: «حسناً، أين لائحة الطعام، أيها السيد النادل؟»، وفرقع بأصابعه، وقرقرا بالضحك معاً.

انتظرتُ فوق رأسيهما، وهما يدقّقان في لائحة الطعام، وبيدي دفتر صغير وقلم، أنشىء خرائط للبندقية، راسماً منازل إيطالية قديمة، وقنوات طويلة ورطبة. وفاض الحبر عبر الصفحات أشبه بالماء العكرة. طرحت عليّ شوهره سؤالاً معقّداً، وهي تتحدّث إليَّ أحياناً بالفارسية، عارفة تمام المعرفة أنني لا أفهمها. استطعت في الخلفية سماع رضا وأعضاء فرقته يدوزنون آلاتهم، والطباخ يخبط على قدوره، والأرز يغلي، والثلج يتساقط، وتنفّس الابنة الشديد يبدو كلغة أجنبية على راديو ذي موجة قصيرة. طلباً أخيراً، وعدت إلى الطبّاخ، الذي لم يسعد لتلقّي أوامري غير المتماسكة، ولفظي أسماء الأطباق،

وتعليماتي البطيئة. صحّح لي بتمتمات مقتضبة بدت أشبه بنفث النار تضربني في وجهي مثل رشات الزيت الحامي. المكان كلّه في خدمة الرجل القصير الجالس إلى الطاولة في الزاوية. انتظر النادل، واقفاً كالحارس؛ وانهمك صاحب المطعم، وركع، ورقص، وهمس، وأصدر إلينا الأوامر جميعاً. بدا مثيراً جداً للشفقة قبالة هذا الرجل الغامض.

قدّمت إلى صديقي بعد دقائق قليلة، الأرز والزعفران، والخروف بصلصة الرمان، والماست ـ أو ـ الخيار. كانت شوهره أنيقة الملبس وتبدو كسيدة، بمحفظتها السوداء الجلدية الصغيرة، وتبرُّجها، وكعبيها العاليين، وشالها الشفاف الذي يغطي كتفيها ويلتف حول مرفقها، ومنثنياً نزولاً ليلحس ركبتيها. وارتدى فرهود بزة سوداء وربطة عنق على هيئة فراشة، ومشّط شعره جانبياً ووضع له مادة هلامية لتثبيته. بدا أشبه بمجرم عنيد في أحد الأفلام الأميركية القديمة. كانا أنيقين، لعوبين، يبالغان في أناقة حركاتهما، لبقَين من دون حياء، ملحّين، على آخر طراز، واثقين، وقرقرا بالضحك طوال الوقت، لا يأخذان شيئاً على محمل الجد، لا صاحب المطعم، ولا الشموع الصغيرة التي بثّت الحرارة، وتراقصت حمراء، ووهجت الأطباق البيضوية في يديّ. بعثت لي شوهره بالقبلات، ناغتني، غمزتني، وعندما اقتربتُ من الطاولة خلعتْ حذاءها ولامست ساقي بأصابع قدمها. تخيّلتُني أسحب الشرشف سريعاً من تحت الأطباق، والشموع، ومرفقها، كالساحر تماماً. سأعلّق هذا الشرشف في السقف وأضم جزءاً من الغرفة. سأعلّقه كالحجاب، وأعرّي شوهره من

ثيابها، أدلق الحليب على نهديها، وألعقه بشفتي ولساني. سأجعل الحارس الشخصي يتعثّر، فاستولي على مسدسه، أطلق النار على صاحب المطعم، والطباخ، والفرّوج الميت فوق الفرن. أسحب السجادة العجمية عن الجدار، أنترها مرتين في الهواء وأطير مع معشوقتي فوق هذه المدينة البيضاء، عبر الريح القارسة، وأهبط على شاطئ دافئ حيث أسير معها على طول الساحل، وحذاءانا بأيدينا والشمس في أعيننا.

راقبت شوهره. كانت تتكلّم مثل نجمة، وتدخّن مثل نجمة، وتشرب مثل نجمة. تناول صديقاي الطعام بهدوء ورقّة. تأكدت شوهره من أن أي من الطعام لم يلمس أحمر شفتيها، وخدمها فرهود كما لو أنها ملكة. تبادلا الأنخاب، وأدارا النخب صوبي أيضاً. راقبت سحر هذا كله من وراء المنضدة. بدت مفتونة بشوهره. وعندما نهضت وسارت إلى الحمام، فتحت سحر عينيها واسعتين. جاءت معشوقتي صوبي، وهمست بنغمة إغوائية رخيمة (تماماً وسنطور رضا يلعلع عند نوتة عالية): أين الحمّام، من فضلك؟ دللتها على الطريق. رفّت بأهداب عينيها ورجَّحت شالها ونزلت الدرج ببطء وهي تهزّ ردفيها، وتطأ كل درجة باحتراس. وقرابة الأسفل، التفتت وتطلعت إلي، ابتسمت، وغمزت، وبعثت إلي بقبلة. تساءلتُ إذا كان عليّ أن أحل مئزري، وأرمي بقفازي اللاتكس بعيداً، وأقفل باب غرفة النوم، وأبدّل ثيابي إلى شيء أكثر راحة.

عند صعود شوهره الدرج عائدة، وقفت سحر في طريقها.

ابتسمت شوهره وحاولت المرور من حولها، إلا أن ابنة صاحب المطعم استمرّت في اعتراض الطريق كأنها منوَّمة تنويماً مغناطيسياً. أرادت أن تنظر إلى شوهره عن قرب. ابتسمت لها، استأذنت، وتجاوزتها وهي تمايل الجزء الأعلى من جسمها بسرعة ربع نوتة. وعندها، وهي تجتاز أرض المطعم، توقّفت. نظرت إلى الرجل القصير. ارتخت يداها وتبدّلت مشيتها. أسرعت في سيرها عائدة إلى الطاولة. وهناك شربت وبدت مضطربة. حرّكت رأسها يمنة ويسرة، تسترق النظر المرة تلو الأخرى إلى ظهر الرجل القصير. ثم نهضت، وسارت من جديد صوب الحمام مصطدمة ببعض الكراسي وهي تتهاوى نزولاً إلى الطابق السفلي. تبعتها سحر، وتبعتُهما أيضاً. وجدت شوهره في الممشى، وقد غشيت عيناها، مستندة بذراعها إلى الجدار، ورأسها صوب الأرض، ممسكة ببطنها.

سألتها سحر: أأنتِ بخير، يا سيدتي؟

أطلقت شوهره هزّة ضعيفة من رأسها، ثم هرعت إلى المرحاض. أفرغت، ورأسها معلّق أمام جسمها، جزءاً من قيئها على أرض الحمام، ونضحت الباقي في كرسيه. هرعتُ إلى فوق لجلب الماء، بينما أمسكت سحر بذراعها. ثم تمسّكت شوهره بإطار الباب واستندت إليه، وهي غير متأكدة هل تريد العودة إلى فوق أم البقاء. بالكاد شربت من كوب الماء الذي قدّمته إليها. هرعت عائداً إلى الخزانة وجئتها ببعض المناديل الورقية.

تمتمت قائلة: يجب أن أذهب.

ساعدت شوهره على صعود الدرج. وأمسكتُ، بينما كانت تعبر أرض المطعم، بالمنديل قبالة فمها مغطّية وجهها. رآني صاحب المطعم ممسكاً بذراعها، فأصبح حتى أكثر ابتئاساً. وقف فرهود، متفاجئاً، ونهض الحارس الشخصي أيضاً عن كرسيه المرتفع، وقد واجهنا وأبقى عينه علينا. مضت شوهره وتحدّثت إلى صاحب المطعم بالفارسية. كان هادئاً واستمرّ في استراق النظر إلى الرجل القصير، متسائلاً إن كان أي من هذا يزعج وجبة طعام الضيف المهم. سحب فرهود محفظته ليدفع، لكن صاحب المطعم وضع يده على المحفظة رافضاً أخذ المال. وقام عوضاً عن ذلك بإخراجهما بسرعة من الباب، وهو شديد الرغبة في التخلص منهما.

تبعت صديقيَّ إلى الخارج. كانا يسيران ببطء، يجران أقدامهما جرّاً على الرصيف، ثم توقّفا متواجهَيْن. هرعت إليهما ووجدت شوهره تبكي. كانت وفرهود يتكلمان الفارسية، ولم أتمكن من فهمهما، ثم تبدّل سلوكها فجأة، وظهرت أمارات الغضب على وجهها. بدا أنها تريد العودة إلى المطعم، إلا أن فرهود تمسّك بذراعها وأوقفها وهو يؤشّر بيديه ويتحدّث إليها بصوت ناعم، ثم استدارت صوبي وقالت: أتعلم من هو ذاك الرجل؟ هل تعلم؟ هل تعرف الرجل؟

ارتبكتُ، وقبل أن أتمكن من الجواب، دفعها فرهود إلى الوراء. حاول تهدئتها، وجرّها نحو محطة الباص. ثم تطلّع إليّ وقال: عد. ستلتقط البرد وأنت بلاِ سترة. عد. إنها بخير معي.

قفلت راجعا. وما إن دخلت باب المطعم حتى هرع صاحب المطعم باتجاهي، وقال بصوت خافت: تعال.

تبعته إلى المطبخ.

سار كل المسافة حتى الخلف، ثم سألني: ما الذي حدث لتلك الفتاة؟

ـ لست متأكداً.

ـ طعامنا نظيف تماماً. وإذا قالت إنها تسمَّمت من الطعام، فهذا ليس صحيحاً. لقد تناولت الطعام ذاته الذي تناوله الجميع. ما الذي قالته؟

ـ لا يمكنني فهم الفارسية، يا سيدي، لكنها بدت مستاءة. ربما تشاجرت مع صديقها.

مضى صاحب المطعم إلى باب المطبخ ونادى رضا. أعطى العازف إشارة لبقية زملائه في الفرقة وتبع صاحب المطعم. رأيته يحني رأسه ويهزه نافياً، وهو يؤشّر بيديه بسرعة.

عاد صاحب المطعم صوبي، حانقاً وقال: خذ الممسحة ونظّف تحت. استعمل الصابون.

أخذتُ الممسحة والدلو، وملأتُها بالصابون والماء. وضعت كل شيء من يدي عند باب الحمام، وجلبت لفة من ورق التواليت من الخزانة، لففته حول باطن يدي، مزقته، وسرت عائداً نحو بقايا معشوقتي. مسحت كل شيء، إلى أن اختفت آخر نتفة، وآخر حبة أرز، وآخر سائل، في داخل الدلو.

وتساءلت، وأنا أمسح، إذا ما كان جسمها قد لفظ اليوم أياً من لعابي من الليلة الماضية. غطّستُ الممسحة في الدلو، عصرتها، وشرعت في تحريك عصا الجندول العائد إلي عبر كل المجارير التي تجري من تحت الأرض، ثم أفرغت محتوى الدلو في كرسي المرحاض، واختفى كل ما قد أكلته شوهره، مغذّياً مزاريب المدينة بالعسل والياسمين. فكّرت في مدى سعادة الأنفاق الطويلة الجوفاء، تتردد فيها سعادة أسراب القوارض، والحشرات، والتماسيح الأليفة، ومصاصي الدماء العطاش، والخفافيش العمياء. ستتمتع كلها بما طحنته أسنانها، وتخيلته عيناها، وأمرت به أصابعها، ومسته شفتاها.

* * *

انتظرني رضا، في نهاية الأمسية، عند الباب، واقفاً هناك وعلبة آلته ملفوفة بلحاف سميك. قال: فلنتحدث، ما الذي جرى لشوهره؟.

- كنتَ هناك.

ـ لم أتمكن من رؤية أي شيء أو سماعه. سألني صاحب المطعم إن كانت شوهره وفرهود صديقين. عليّ أن أتوقف عن جلب أناس أعرفهم إلى هذا المكان. أوّلاً أنت. يعتقد صاحب المطعم أنه صنع لي معروفاً بجلبك. وأنا إذا أردت طلب علاوة فسيأتي على ذكرك، ليجعلني أشعر بأنه قدّم إليَّ معروفاً كبيراً. انظر ما حدث الليلة! شوهره تتصرف كأنها ملكة الدراما. تبّاً! أنا أكسب عيشي هنا. ما بكم أيها الناس؟ تأتون إلى هنا وتثيرون لي

المشكلات. قل لي، إذاً، ما الذي أصاب كبيرة مغنّيات الأوبرا؟

قلت: لا أعلم لا أعلم فحسب. استمرّت تسألني إن كنت أعرف الرجل.

ـ أي رجل؟

ـ لا أدري. اتصل بها واسألها.

- إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى المنزل.

ـ تعال إلى منزلي.

- لا، أنا ذاهب إلى منزلي.

استدار رضا. تركني، واتَّجه إلى قطار الأنفاق. راقبت جسمه الضخم يعانق علبة آلته كما لو أنها رفيقته الدائمة. تابعت السير. وما إن اجتزت كتلة بنايات حتى توقّفت سيارة تاكسي إلى جانبي. أُنزلت النافذة ورأيت مجيد. لوّح لي بالركوب. فتحت الباب وجلست في المقعد قربه. سألني:

هل رأيت إلى أين ذهب الرجل في المطعم؟ هل رأيت في أي اتجاه؟

ـ أي رجل؟

ـ الرجل في المطعم. هو رجل قصير، إيراني أصلع.

ـ صاحب المطعم؟

ـ لا.

ـ الزبون؟

ـ نعم.

غادر منذ فترة. أقلّه سائق سيارته الليموزين. إذاً، هذا ما أثار استياء شوهره؟ فقد سألتني أيضاً عن الرجل. هل هي التي أرسلتك إلى هنا؟

لم يُجبني مجيد.

ألححتُ عليه: ما الذي يحدث؟

ـ لا يهمّ. أين تقيم؟

ـ في شارع بيناكل.

ـ سأوصلك إلى المنزل.

حلَّ الصمت في السيارة بين مجيد وبيني. وحده جهاز اللاسلكي تحدّث، منادياً أرقام سيارات، ومعطياً العناوين، جاعلاً السيارة تبدو كسفينة فضائية تسافر مجتازة منازل بشريين وأعشاش سناجب. بدا مجيد غارقاً في التفكير، وربما مجهداً بعض الشيء. حاولت بعد فترة الشروع في حديث معه، لكنه بدا كما لو أنه في عجلة من أمره لإنزالي. قدّم إليَّ سيجارة. أخذت واحدة. فتح نافذته جزئياً وأدار المقود بيد واحدة، وكان يلف بأصابع يده النائية على لفافة سيجارته. شققت نافذتي ودخّنت أيضاً، نافثاً الدخان على البنايات المارة، والإشارات المارة، والحياة المارة، والريح، والصقيع، والسماء الداكنة جداً.

قلت في النهاية: لا بد من أنك تلتقي كثيراً من الأناس المختلفين في عملك هذا.

هزّ برأسه، ابتسم، ثم قال: «نعم، كل الأنواع. في هذا العمل تلتقي كل الأنواع». غرق في أفكاره من جديد، مبتلعاً دخان السيجارة، حابساً كل استنشاقة، ومتأكداً من أن كل أونصة نيكوتين تمسّ قلبه، وتلطّخ رئتيه، وتهرع عبر دورتَي دمه، وتصيب أسنانه بالصفار، ويتم في النهاية إطلاقها لتواجه الهواء المرتجف البارد الذي ينساب عبر نافذتَي السيارة المفتوحتين، ويصطدم بالزجاج الأمامي، ويرتدّ عن المسّاحتين اللتين تصيبان بالدوار وهما تترجّحان جيئة وذهاباً أشبه برجل عالق بين أفكار كثيرة، وشوارع، وأمتعة، ولغات، وعاشقات، وأحاديث المقعد الخلفي، والأضواء الحمراء، وحركة السير، والحواجز المعدنية، وبضع نساء، وعاصفة.

قال مجيد: بالأمس، دخل ولدان السيارة. . أرادا الذهاب إلى حانة تعرٍّ في سانت كاترين. لكنهما قالا إنهما يريدان التوقف في طريقهما عند أحد المصارف. وهكذا، توقّفت عند المصرف. راقبتهما من المرآة الخلفية. كانت الفتاة في السادسة عشرة ربما. انتعلت حذاءً ذا كعبٍ عالٍ وارتدت تنورة قصيرة جداً وسترة قصيرة. لا بد من أنها شعرت بالبرد الشديد. كان الفتى مخموراً. ما إن بلغا المصرف، حتى أخذت الفتاة بيد الصبي وشرعا في الركض. استدرت نصف استدارة في وسط الشارع وطاردتهما بالسيارة. ذهبا إلى الزقاق الخلفي إلى جانب مبنى

المصرف. يجدر بك أن ترى الفتاة تركض بكعبين عاليين وتكاد ملابسها الداخلية تظهر. كان الصبي على درجة كبيرة من السُّكْر بحيث اضطرت إلى الإمساك بيده وجرّه. أدركتهما أخيراً. أجبرتهما على العودة إلى السيارة. قالت لي: كنت أبحث عن المدير، لكن المصرف مقفل.

قلت: تدفعان لي، أو آخذكما إلى الشرطة.

ثم قال لي الفتى: خذني إلى أحد المتاجر.

قلت: حسناً، لكن واحداً منكما فقط يدخل المتجر، ويبقى الثاني في السيارة.

ما إن توقّفت حتى قالت الفتاة: «سأجلب المال». وخرجت، ثم ركضت تاركة رفيقها في السيارة.

قلت للفتى، تخلّت عنك صديقتك، وعليك أن تدفع لي أو آخذك إلى الشرطة.

خاف. أخرج المال، وأعطاني عشرين دولاراً. قلت، لن تحصل على الفكّة. اذهب الآن. فغادر. توجد جميع أنواع الحكايات، يا صديقي. هذه المهنة مجنونة. ثم سألني مجيد: منذ متى وأنت هنا؟

- منذ سبع سنوات.

- هل عائلتك هنا؟

- لا.

أثرت بجوابي ذكرياته، فقال: لم أر عائلتي منذ عشرين عاماً.

- شوهره هي عائلتك.

نظر مجيد إليّ، دخّن، وبقي هادئاً. ثم، وبلا سبب ظاهر، قال: أوتعرف؟ نحن نأتي إلى هذه البلدان بحثاً عن مأوى، وللعثور على حياة أفضل، لكن هذه البلدان هي في المقام الأول التي جعلتنا نغادر ديارنا!

ـ ماذا تعني؟

- تعرف أن هذه البلدان التي نعيش فيها تحكي عن الديموقراطية، لكنها لا تريد الديموقراطية. تريد ديكتاتوريين فقط. من الأسهل عليها التعاطي مع ديكتاتوريين بدلاً من الديموقراطية في البلدان التي جئنا منها. حاربتُ من أجل الديموقراطية. تعرّضتُ، من أجلها، للتعذيب على أيدي كل من الشاه والموالي، في مناسبتين مختلفتين. النظامان وجهان لعملة واحدة. أتعرف ما الذي أفعله الآن بسبب الديموقراطية؟ أقود سيارة ١٢ ساعة في اليوم - قال، وضحك - هل تعتقد أن الديموقراطية ستحل في بلادي إذا رحل الموالي؟ لا! سوف يأتون بشخص آخر يكون ديكتاتوراً. ربما ليس ديكتاتوراً متديناً، لكنه الشيء ذاته. هل تفهم؟

ـ نعم، أفهم.

ـ هل يرتاد الرجل الأصلع المطعم كثيراً؟

ـ ربما كان عليك أن تسأل رضا؛ فهو يعمل هناك منذ زمن طويل.

ـ لن يقول لي ذلك الموسيقي أي شيء. إنه يريد أن يعزف فقط. لن أسأله شيئاً. فهو لا يبالي بأي أمر. لا يريد التحدّث في السياسة. إنه ينتمي إلى ذلك الجيل الجديد العاكف على الملذات. إذاً، لم يسبق لك أن رأيت هذا الرجل من قبل؟

- لا.

توقّف مجيد أمام منزلي. سحب «كرت الفيزيت» العائد إليه كتب رقماً على ظهره، وقال لي: خذ. هذا رقمي. اتّصل بي إذا جاء ذلك الرجل من جديد إلى المطعم.

- ما شأن ذلك الرجل؟ من هو؟

ـ لنكتف بالقول إنه معرفة سابقة لنا.

ـ من تعني بـ «نا»؟

- نحن، المنفيين!

تركني على الرصيف، وانسحبت أضواء سيارته بعيداً، جاعلة انعكاسات الفلوريسانت ترتدّ على الأرض الرطبة. راقبته يختفي.

خلعت أحد قفّازي، وبحثت بيدي في جيبي. شعرت بالأوراق المالية التي أعطاني إياها صاحب المطعم، وتذكّرت أنني تلقيّت اليوم أجري. انتابني شعور بالفخر، وأيضاً رغبة في الانتقام. الانتقام من الجوع الماضي، الصقيع، وتلك الأيام التي

طاردتني فيها الشمس من غرفة إلى غرفة، فأعرقتني وأعمتني. سحبت مفاتيح منزلي، ونقلتها من جيب إلى آخر. أنزلت قبعتي الصوفية فوق جبيني. ثم استدرت وسرت حول الزاوية.

توجد حانة اسمها غريني، وهي واحدة من الحانات المتهادمة القليلة التي لم تخضع بعدُ لعملية ترميم في حيّي الذي أخذ يصبح بالتدريج مسكناً لأعيان الناس. دخلتها. ممتازة! معتمة، تماماً كما أحبّها. دخلت كالنمر، وأمكنني سماع الأرضية الخشبية تفرقع تحت مخالبي. طلبت كوباً من البيرة، وبعض البطاطا المقلية، وهامبرغر ذاخراً جاء إليّ في سلّة (جلبتها إلي حفيدة قرويات كيبيكيات أمرهنّ الكاهن، منذ مئة عام، بالحمل، وبالركوع، في كل يوم أحد، إلى جانب مقاعد الكنيسة). أعطيت النادلة الفكّة الخطأ، ثم طلبت إليها السماح، ورميتها، كي أطمئنها إلى أنني لا أحاول أن أحرمها من المال، بإكرامية كبيرة. جعلها هذا تبدّل نبرتها، ودعتني Monsieur (يا سيّد) وأنا أقضم عبر القرص واللحم. شربت بشراسة ونظرت إليها بمئزرها، أهزّ برأسي وأنا أعلك. جرعت بشدّة، ومسحت فمي بمنديل ورقي أبيض.

تمتلكني مشاعر مزدوجة حيال هذه الأماكن. وهي، لأقول الحقيقة، تنفرني نوعاً ما. وبرغم ذلك ينتهي بي المطاف دوماً عائداً إليها. تجتذبني الأماكن المظلمة مثلما يجتذب الضوء الصناعي الفراشة الانتحارية. أتفادى بالتأكيد أي اتصال بالزبائن الآخرين. أُبقي الأمر بسيطاً: أطلب، أشرب، وآكل. ألتزم نفسي.

لا أهتم بالرياضة أو بالثرثرة، إلا أنني أحب مراقبة الرجال الآخرين، ينحنون إلى الأمام على المقاعد المرتفعة، ينظرون عبر سوائل أكوابهم. أحب أيضاً انعكاسات شاشات التلفزة التي تنضح وجوه هؤلاء الناس بدلاء من الضوء، وتجعلهم يبدلون ألوانهم كالحرباء. أحب النادلات. أحب مدى قوتهن وإصرارهن. إنهن محصَّنات ضد عبارات التحرّش، وقد طورت إعجازهن، مع الزمن، دروعاً مثل تلك التي لأبطال الرسوم المتحركة. فنظرات الرجال الوسخة ترتد عن تلك الدروع وتعود لترمي وجوه الأوباش بـ «بئس»! وطاخ! وخذ!

إلا أنني أعرف كيف أُبطل مفعول تلك الدروع، وليس ذلك باستخدام الكربتونيت. ليس ذلك بفضل قوة بزتي البطريقية، أو شمسيتي الطائرة، أو الإكرامية الكبيرة، أو الابتسامة. بل يتم ذلك من خلال التهذيب، والأهم من ذلك، من خلال عرفان الجميل. وأنا، في أيام قبض مرتَّبي، عارف الجميل، ممتنّ لكل شيء، ويبدو ذلك للعيان. أنا شاكر للطعام الجيد، والدفء، والخدمة، والكاتشب المنسيّ الذي تعيد النادلة بيدها موضعته، وتقدِّمه إلي. أنا ممتن لإبهامَي النادلة اللذين يمسكان بأطراف أطباق الطعام، ولراحتي يديها ومعصميها التي تحملها على طول المسافة بمهارة. وأنا، عند أول رشفة بيرة، وأول حبة بطاطا مقلية، أنسى البشرية وأسامحها على غبائها، وفجورها، وكبريائها، وبخلها، وطمعها، وحسدها، وشبقها، وشراهتها، وبلادتها، وغضبها. أسامحها على بصاقها الملوّث، وغائطها المثمّن، وأنهُرِ بولها، وقنابلها، وكل رقصها السيئ. أسامحها

على عدم خلع حذائها قبل دخول المنازل، وقبل الدوس على سجادات أماكن العبادة. وأنسى كذلك الأطفال الأصحاء الذين يتكوّم الذباب الأفريقي على أنوفهم، والجنود السكارى السائرين وهم في طريقهم إلى المواخير. أنسى أمي، وأبي، والليالي المظلمة التي أمضيتها مع شقيقتي ونحن نلعب الورق، ونُلبس الجنود الدمى، ونعرّيها على ضوء الشموع، ونقرأ كتب الرسوم. وما إن تتعود عيناي ضوء هذه الأماكن الخافت، وما إن يصبح الناس مرئيين أكثر، وأشد لمعاناً، وأشكالهم كبشريين أكثر تحديداً، حتى أدرك كم يجب أن أبدو مكشوفاً لجميع تلك الكائنات التي وصلت قبلي. لا بد من أنهم رأوا كل شيء. لا بد من أنهم شاهدوا نهمي، ونزعاتي المبينة. أشعر بأنني أخضع لفحص بأشعة إكس، كما لو أنه تم مقدّماً احتساب كل قضمة بطاطا مقلية نزلت إلى معدتي، وتمّت مراقبتها، وتحليلها، والمراهنة عليها. وعند هذا الحد أبدأ في الاستعجال، مومئاً باستطارة بإصبعي الشبيهة بالهيكل العظمي إلى النادلة، مصرّاً بفكّيَّ المطقطقين على احتساب الفاتورة، والحساب، وسجل الطعام، وسعره، وقيمته الغذائية، ولائحة المكونات من السكّر إلى المركّبات الكبريتية، وكل ما يُبقي الطعام محفوظاً كالمومياءات المصرية. وأنا عند هذا الحد أطلب رؤية المربعات الصغيرة التي تعطيني معدّلاً كزبون عادي، مقبول، جيد، أو جيد جداً.

تدبّرت في النهاية أن أهرع خارجاً إلى الشارع. صُعقت لإدراكي كم أن تغيير المشهد بدا فجأة شاقاً في أعقاب

استهلاكي الحيوانات الميتة، والكحول، والخس المخرّش الشديد البلل، والطماطم. وقد غمرني الذنب الخاص بالفقير النزق الذي يريد، في لحظة عظيمة من خداع الذات، وتسليم النفس قيادها، أن يحصل على كل شيء. الفقير طمّاع. طمّاع! والطمع هو الغباء الأعظم. وبرغم ذلك فقد ملأني الطمع.

وقفت عند زاوية الشارع، متردداً، مكتفياً. ثم فكّرت: أستحقّ شراباً آخر. أستحق أن أصرف. أستحق كل نقطة من الجوهر، كل قطرة سكْر. أستحق ليس أن أسامح فحسب، بل أن أنسى أيضاً. سرت عبر سانت لورانت إلى الكوبا، ودخلت الحانة. إنكليز هذه المدينة يحبون المكان خالياً من الأبهة، بمظهر الطبقة العاملة الزائفة، بل إنه يحتوي حتى على شجرة جوز هند بلاستيكية زائفة لا تتمايل إلا للزبائن الذين أمعنوا في الشراب. جميع أولئك المتخرجين من جامعة ماكجيل يهوون إخفاء شهاداتهم، وأموالهم القديمة، ووظائفهم المستقبلية في الشركات، بمجيئهم إلى هنا مرتدين ثياباً كالمتسولين، والأشقياء، والأقليات الخطيرة المنحطة. يجلسون، يشربون، ويلعبون البلياردو. ويتم حجز مقاعد قلة من القدامى كأنهم من الأسرة الملكية البرتغالية. لقد اندمجوا مع البار الخشبي القديم ليصبحوا جزءاً من الديكور الريترو. ويأخذون، عند ساعة ما، في التمايل مع شجرة جوز الهند.

لم أتمكن قط من فهم هؤلاء الإنكليز، ولم أثق قط بتنكّرهم. بعضهم من أبناء الأغنياء وبناتهم. الأغنياء جداً!

يعيشون في منازل كيبيكية قديمة رائعة، يشتكون في شأن المال، ويعملون في وظائف صغيرة. لم أفهم قط آباءهم، ولماذا يمنعون المال عنهم. كان والدي رجلاً كريماً، يمطرنا بالمال عندما يمتلكه. راهن في إحدى المرات على حصان اسمه عنتر. اجتاز الحصان الخط أوّلاً، وعاد أبي حاملاً السيجار، وزجاجتَي عرق، وخمسة كيلوغرامات من الكبّة، ولفّة من الكبد، وحلوى عربية، وستة كيلوغرامات من اللوز الأخضر، وخمسة من رفاقه المراهنين. أكلوا وشربوا طوال الليل. غنوا، مردّدين اللازمة ذاتها لساعات. دعانا والدي بأسمائنا، طاردنا، وطلب قبلات من شقيقتي، وذرف دموعاً، ونطق لها بكلام سخيف عن الحب والأسف. وزّع علينا المال، يميناً ويساراً. . . أوارقاً مالية كبيرة. دعا شقيقتي باسم أمه وقبلها على فمها. لم يطرف لشقيقتي جفن، ولم تتحرك، عندما داعب شعرها. وقفت أمي هناك صامتة، تراقب الرجال يسكرون. بل إنها عبّأت أقداحاً صغيرة. شربوا جميعهم نخب صحتها، فهزّت برأسها وانتظرت. ثم عندما شرعوا في الترنّح إلى الحمام وتصويب بولهم على الأرض، سحبتهم جانباً، الواحد تلو الآخر، ودفعتهم نزولاً على الدرج. ولما غفا والدي على الطاولة، طلبت إلي مساعدتها، فحلمناه إلى غرفة النوم. راقبتها تنزع حذاءه وهي تتمتم وتلعن. خلعت سرواله ودسّت يديها في جيوبه. سحبت ما بقي من مال، وأقفلت الباب. نامت تلك الليلة على الأريكة. استدارت نحو شقيقتي وقالت لها: كم أعطاك؟

هزئت بها شقيقتي، وتسلَّقت خارج النافذة إلى الشرفة، سحبت المال، وتوازنت على طرف الحاجز الحديدي. بدت أشبه بالمرأة الوطواط التي توشك على الطيران إلى أضواء المدينة. قالت المرأة الوطواط: «هذا ما أعطاني إياه والدي، أيتها الشريرة.. إذا خطوت خطوة واحدة فسأرمي بالأوراق النقدية إلى القمر البدر وأطير وراءها.

جلستُ تحت شجرة جوز الهند. طلبت العرض الخاص: عبوتَي بيرة بسعر واحدة. وفّرت الشجرةُ لي ظلاً من الضوء الساطع. شربت. طلبت المزيد من البيرة وأنهيته كله. بعد ذلك، خرجت. بطريقة ما بدا الطقس البارد غير ذي صلة. تمشّيت، وبثثتُ سحابات تنفُّسي على أسوار المدينة المجلّدة. انطلقت راكضاً، وانزلقتُ نزولاً إلى سانت كاترين وأنا أتطلع ورائي طوال الوقت. انتابني شعور غريب بأنني مُلاحَق. لذا، ركضت كأنني مُطارَد من عمالقة يمكنهم أن يلتقطوني ويتأملوني ثم يرموا بي ويجعلوا دمي يطرطش مثل حيوان قتلته سيّارة، ومثل حشرة تنسحق على زجاج سيارة. سرت على نحو متعرّج، مسعوراً، متفحّصاً السماء بحثاً عن ظل أي حذاء عملاق أو جريدة ملفوفة تهبط فجأة على رأسي أشبه بسقف منهار، أشبه بطبقات السماء العشر تسقط على الأرض. تنشّقت الرياح الأشد صقيعاً، أقسى الهواء، وقفزت كالعاصفة أمام إطارات سيارات تشق الإسفلت المبلّل، والإشارة الحمراء، ومنازل القرميد، وأدراج مونتريال الملتوية اللولبية، التي، إذا كان يوم سعدك، فقد تقودك إلى فوق إلى حفلة شتوية حيث تحيط نفسك بحلقات دخان، وأصابع

أقدام ملتوية، تلدغ بالراء الفرنسية، وتحفر بالسكاكين مثلثات الجبن البريني قبالة اليوروتراش، وفي اليد بيرة مستوردة وترتدي أحذية جلدية إيطالية. بلغت شايناتاون. عبرت قناطرها، وطلبت إلى التنين الذي يحرس البوابة أن يبصق عليّ النار، لتدفئة وجهي البارد وأصابع قدمي الرطبة.

«Hélas (للأسف)»، أجاب التنين بلكنة قويّة. استهلكتُ ناري كلها ليلة أمس على البط المشوي المعلّق الآن في النوافذ المغشاة بالبخار للمطاعم ذات الأرضية المتسخة، والمقالي الحامية، والوجوه الوقورة والهادئة التي تَشْرُقُ كل ما أمكن اصطياده من الأوعية بواسطة العيدان الخشبية.

بلغت كنيسة نوتردام، وسرت من ثم إلى أرض السيرك القديمة. نظرت إلى السفن الراسية عند حوض مرفأ المدينة. كان ممشى النزهة فارغاً، لا سياح أميركيين يتمشّون حاملين أكواز السكّر، ويبدون مثل جبال جليد متحرّكة، ولا يوجد لاعبو خفّة، ولا عشاق متلاحمون بأصابعهم، ولا بهلوانيون دائمو الابتسامة، ولا دراجات هوائية، أو دراجات بدولار واحد أو ثلاثة دواليب، ولا وجوه كاريكاتورية تُرسم بالفحم على قماش بعشرة دولارات. السياح غائبون. البحارة غائبون، ولا يُشاهَد سوى مخلوق مجنون واحد يعبر الليل البارد.

* * *

جررتُ نفسي لرؤية جنفييف من جديد. لم أشعر بالرغبة في لقائها. فالحديث عن أمي، وقد رحلت، ليس بالأمر اللائق.

دخلت المركز الصحي، وأبلغت السيدة المتقدمة في السن على المكتب بحضوري. التقطتُ إحدى المجلات وجلت بنظري على الملصقات الجدارية. أحد الأمور الجيدة للانتظار في أماكن العناية بالصحة هذه، مراقبة الممرضين والمعالجين والمرضى النفسيين، والمنظّفين والسكريتيرين الذين يمرّون. جميعهم يبدون على الدرجة ذاتها من الانشغال. بعضهم يهرع، وبعضهم يبدو بالأحرى مهموماً. لا يمكنني أبداً تصوّر من يسمع الأصوات ومَن يُصدرها، ومَن يحاول وقفها ومَن يقوم بكتمها. إلا أنك عندما تجلس وتنتظر، يعلم الجميع بسبب وجودك هنا. يعرف الجميع أنك ستعترف بشيء ما، شيء شرّير مورس عليك، وأمر شرّير قمت به. وبرغم ذلك، فالماضي كلّه في الماضي. إذا جلستَ، وانتظرت، وتأدّبت، واعترفت، وأظهرت ربما بعض التسامح والندم، يمكنك أنت يا فتاي، أن تخلص. سيظهر يسوع من وراء واحد من أبواب المكاتب تلك بقميص وجورَبيْن، ممسكاً بيده ملف حياة الناس. سيقودك يسوع، يسير أمامك، يمايل عجيزته في الممر. وليس عليك، أنت يا فتاي، حتى أن تجرؤ وتتساءل كيف سيبدو يسوع عارياً من فوق المكتب. لا تتساءل عمّا يفكّر فيه بك. يسوع حسّاس جداً لنظرات الرجال. يمكنه أن يتلقط أفكارك الدفينة جداً من خلال الاختلاجة في إحدى عينيك، من أدقّ الغمزات والتحديقات. وسيقول لك يسوع، مباشرة: «يا بني، إذا كانت عينك اليمنى تسبب سقوطك، اقلعها وارمها بعيداً؛ فمن الأفضل لك دخول ملكوت الله بعين واحدة على أن تحتفظ بعينيك وتُرمى في الجحيم».

ولا يحتاج يسوع، على عكس نادلات الطبقة العاملة، إلى درع. فيسوع يعرف بكل تفكير في رأسك. إنه يعرف جيداً، يا فتاي، أنك تريد أن تجعله يعترف أيضاً. إلا أن يسوع قوي الإرادة وهو في طريقه إليك، يبتسم لك، يقودك إلى ذلك الكرسي المألوف، وسيسألك كيف كانت أيامك، ولياليك، بدءاً من الطقس السيئ وانتهاءً بوالدتك الباردة.

سألتني جنفييف: هل قابلتَ المزيد من الحشرات العملاقة؟ ماذا كان من جديد... أعنكبوت؟.

ـ لا، لا زيارات من الصراصير.

ـ هذا جيّد. أليس كذلك؟ أتعتقد أنه جيّد؟

ـ ما هو الجيّد؟

ـ أنك لم تحظ بالمزيد من الزوّار.. قالتها، ورسمت مزدوجين بأصابعها، وتابعت: لنعد إلى عائلتك.

ـ أين توقّفنا في المرة الماضية؟

ـ كنت تتآمر لانتزاع المال من العجوز المتورّط مع شقيقتك.

ـ نعم، جوزف خوري.

ـ نعم، تابع.

ـ حسناً، زرت شقيقتي في المتجر. كانت ساعة الغداء، وسألتها إن كان في وسعي أخذها لتناول شطيرة من الفلافل عند

الزاوية. كانت سعيدة جداً. هرعت إلى الخلف وأخذت محفظتها، ورتّبت شعرها أمام المرآة؛ بل إنها سحبت بعض أحمر الشفاه وغطت شفتيها به. أمسكت بذراعي وسرنا إلى المحل عند الزاوية. حدّثتني عن العمل. وعندما سألتها إذا كان العجوز يعاملها جيّداً، هزّت برأسها وقالت إنه صاحب قلب كبير. ثم قالت إن الفتاتين الأخريين اللتين تعمل معهما في المتجر جيدتان كثيراً معها أيضاً. وهي تتولى تحضير القهوة في الغرفة الخلفية. وقالت لي، إننا نقدّم القهوة إلى جميع الزبائن الجيّدين. وبعض الظهر، هذان الرجلان الأكبر سنّاً اللذان يأتيان ويجلسان حول مكتب جوزف، فيتحادثان ويدخنان السيجار... أحدهما لا يتناول السكّر، لأنه مصاب بداء السكّري، والآخر يحبها حلوة، وجوزف والفتاتان يحبّونها وسطاً. ضحكتْ وقالت: أحضّر ثلاثة أنواع مختلفة.

عندما جلسنا، قلت لها: هل فكّرت في هجر زوجك؟

أجابت: «إنه والد طفلتي»، واختفت ابتسامتها. تغيّر وجهها الفيّاض.

قلت لها: يجب أن تتركيه.

هزّت رأسها رافضة، وضربت بيدها على الطاولة، وقالت: لأذهب إلى أين؟ لأعيش أين؟ لا أستطيع المكوث في منزل أهلنا. إنه صغير جداً... بوجود الطفلة. ولا يمكنني تحمّل والدتنا ووالدنا يتشاجران طوال الوقت. في ذلك اليوم الذي بقيت فيه

الليلة هناك، عاد والدنا عند الواحدة فجراً. اضطررت إلى رفعه عن الأرض وإلقائه على الأريكة، بسبب ما كان عليه من شدّة السكر. فأين أذهب إذا تركت طوني؟

- إذا ضربك مرّة واحدة بعد، فسأقتله.

رفعت شقيقتي صوتها قائلة: هل تقتل والد طفلتي؟ هل ستفعل؟ عظيم. وعندما تكبر ابنتنا منى وتسأل عن مكان والدها، فسأخبرها، لقد وضع خالك رصاصة في رأسه. ألهذا دعوتني إلى الغداء؟

كانت على وشك النهوض، إلا أنني أمسكت بذراعها وطلبت إليها البقاء. جلست جامدة. بكت، ثم مدّت يدها لتلمس بها ذراعي.

قالت: يا شقيقي الصغير، أنت شقيقي الصغير.

نهضتُ وجئت بالطعام. وضعت الصينية على الطاولة وحصتها أمامها.

أكلنا، ثم ابتسمت وقالت: سألتني عنك ريما، إحدى الفتاتين اللتين تعملان في المتجر.

ـ أيهما؟

ـ صاحبة الفستان الطويل.

ـ لم ألاحظها.

ـ عد معي... سأريك إياها.

ـ وماذا يفترض بي أن أفعل معها؟

ـ افعل ما يحلو لك.

ـ حسناً.. وأنت ما الذي ستفعلينه عندما تشرع في البكاء وتلقي اللوم عليك؟

- هل تخطّط لجعل جميع الفتيات يبكين ما بقي من حيواتهن؟

ـ فقط أولئك اللواتي يحببنني.

- نعم، أولئك اللواتي يحببنك فقط.. قالتها، وسحبت منديلاً ورقيّاً من محفظتها ومخطت. وتابعت: ربما لا يوجد رجال طيبون في هذا العالم، وعلينا نحن النسوة أن نحتمل ذلك.

- إذا لمسك فسأبرحه ضرباً. هل تفهمين؟

ـ لا تستطيع ضربه. فهو أقوى منك بكثير. سوف يؤذيك. أنت لا تعرف حتى ما هو قادر عليه.

ـ على أي حال، ما الذي يفعله طوال النهار؟ قولي لي. أنت لا تعرفين حتى ما يفعله زوجك.

- إنه يعمل لصالح الميليشيا.. هذا كل ما عليّ أن أعرفه. إنه يوفّر الطعام.

- أنت تعملين الآن. لا تحتاجين إليه. سأعطيك المال.

ـ دع الأمر، أرجوك. دع الأمر.

ـ أنت تحبّين ذلك البهيمة.

ـ انظر، أنت لست مختلفاً كثيراً، ووالدي ليس مختلفاً كثيراً. أنا محاطة برجال يأتون من القالب ذاته. انظر من حولك. الرجل المحترم الوحيد الذي أعرفه هو جوزف خوري.

ـ تزوجي به إذاً.

ـ ماذا؟ يا لك من صرصار صغير، كيف تجرؤ على قول ذلك؟

رافقت شقيقتي في العودة إلى المتجر. وسألتها: هل تعملين غداً؟

- نعم، لكن لا تزرني. انظر، تعال الآن، وسأريك ريما. انظر من خلال النافذة. إنها تلك التي ترتدي الثوب الأحمر الطويل. إنها فتاة لطيفة... لطيفة جداً.

ـ ما اسمها؟

ـ قلت لك: ريما. أتعرف ماذا؟ إنها لطيفة جداً، ومناسبة لك. اذهب يا شقيقي الصغير، ارحل. قبَّلتني على خدي، وسرتُ مبتعداً عن المتجر. اجتزت الصيدلية، الكنيسة، والمرأب، ووصلت إلى زقاق أبي رورو الخلفي.

كان الرجل في باحته محاطاً بخُردته: ستيريوهات قديمة وآلات. وجهاز الراديو يعمل بصوت مرتفع. قال لي: ادخل.. ادخل.. متى سنحصّل المال من العجوز؟

ـ لن نفعل.

- هل غيّرت رأيك؟

- نعم، انسَ الأمر. لن أقتل والد ابنة شقيقتي.

نهض، وعاد إلى الداخل، وجلب بعض اللوز الأخضر وزجاجتَي بيرة ألمازة. وسألني: تعرف أين تجد طوني في كل صباح، أليس كذلك؟

ـ لا، لا أعرف الكثير عن ذلك الرجل.

ـ يذهب في كل يوم إلى وكر قمار أبي فارس. يمضي ساعات على آلات القمار تلك. لا بد من أن الرجل يجني المال بطريقة ما.

- لقد تبعته.

ـ أعرف كل شيء.

ـ ماذا تعرف غير ذلك؟

ـ يعمل لصالح القوات الخاصة. للرجل اتصالاته. الرجل خطير.

ـ سأكسر عظامه إذا ضرب أختي مرة بعد. لا يهمني مدى خطورته أو اتصالاته.

ـ ثمة حركة على الأبواب.

ـ تحدّث.

- انتظر.

ورفع صوت الراديو بحيث بات الحي كلّه يستمع إلى أخبار الساعة. وقال:

- هل تعرف الأرمني الذي يصرّف الأموال عند الزاوية، في مكان غير بعيد جداً عن حديقة اليسوعية؟

ـ أنا أستمع.

ـ إنه صيد سهل. هل تعرف أن لديه كوخاً هناك؟

ـ نعم، لقد رأيته.

ـ إنه لا يحتفظ معه بالمال. عندما يأتيه زبون، يطلب إلى الشخص أن ينتظر، ويدعو ابنه، ويأتيه ابنه بالمال من المنزل. يبعد عنه المنزل دقيقتين.

ـ حسناً. . من يتولّى أمر الابن؟

ـ أنا أتولى الابن. فلو ذهبت إلى مكان الصيرفة فسيحترس الأرمني. الناس يعرفونني في هذا الجوار.

ـ ألا تعتقد بأن الشكِ سوف يتملّكه إذا طلبت الصيرفة؟

ـ نعم، ربّما شك فيك أيضاً.

- نريد شخصاً آخر معنا. أَمهلني يومين. . لدي شخص في ذهني.

صنعت في اليوم التالي بعض الشطائر وعدت إلى متجر

أختي. فوجئَت، لكنني قلت لها إن والدتي أرسلتني بالطعام. ثم سرت نحو الفتاة التي أخبرتني عنها شقيقتي، وقلت: لا بد من أنك ريما.

ابتسمت الفتاة وقالت: لا بد من أنك الشقيق.

ـ أبلغتني شقيقتي أنك تحبين قهوة بعد الظهر متوسِّطة القوة.

- شقيقتك على حق.

- شقيقتي دوماً على حق. . تعتقد أنك جميلة جداً. وكما قلت، فإن شقيقتي دوماً على حق.

ضحكت الفتاة.

انتظرت في ذلك المساء في الشارع المقابل للمتجر. راقبت العجوز يُنزل الباب المعدني بينما وقفت الفتيات يثرثرن أمامه. تمنى لهن جوزف ليلة سعيدة، ومضت كل منهن في سبيلها. تبعتُ ريما. ثم عبرت مسرعاً شارعاً خلفياً وقطعته. وظهرت تماماً في الوقت الذي أصبحت ريما عند الزاوية المقابلة لي. دعوتها باسمها. استدارت متفاجئة.

قلت: ها نحن نلتقي من جديد.

ـ نعم، نلتقي من جديد.

آنستها بالحديث، ثم قلت لها إنني كنت أفكّر فيها.

احمرّت ريما خجلاً.

قلت لها إنني سأكون غداً في محل الفلافل وقت الغداء.

هزّت برأسها واحمرّت خجلاً من جديد.

سرت في الليلة ذاتها عائداً إلى زقاق أبي رورو. رفعت صوت جهاز الراديو. وقلت له في أذنه، غدا ظهراً. كم سنقتنص منه؟

ألف دولار جيّدة.

هل هي بحوزتك؟

- سأحصل عليها غداً صباحاً.

في الصباح التالي، صفّر أبو رورو من تحت شرفتي. انتعلت حذائي ونزلت الدرج. سلّمني رزمة كبيرة من الليرات.

قلت: تعال ظهراً إلى مطعم الفلافل. ستكون الفتاة الجالسة معي هي التي ستقوم بالمعاملة. وعندما أعطيك الإشارة، اهرع إلى الزاوية وانتظر ابن الأرمني.

التقيت ريما ظهراً. دفعت ثمن الطعام. كانت شديدة الاهتمام بمظهرها، ووضعت زينة قوية في ذلك اليوم.

جاء أبو رورو وجلس إلى الطاولة ورائي.

تحدّثت إلى ريما. قلت لها إنني مغادر في رحلة إلى قبرص لبضعة أيام، وإنني أحتاج إلى صرف العملة لدى الأرمني. لكنني أخبرتها أنه حدثت مشادّة بيني وبينه. وشرحت لها أن السعر

الذي يدفعه الأرمني أفضل من سعر المصرف. ولأقنعها أكثر، أخبرتها أن في إمكاني الطلب إلى شقيقتي القيام بعملية الصرف، لكن الأرمني يعرفها، وسيعرف أنني أرسلتها. سألتُ ريما إذا كان في وسعها تصريف المال من أجلي. وافقت. كانت على تمام الاستعداد. سحبتُ الرزمة وقلت، قولي له إنك تحتاجين إلى ألف دولار. وتابعت وأنا أضع يدي على يدها، والمال بين راحتينا، لكن يا ريما، أرجوك ألا تعطيه المال قبل أن تتأكدي أولاً من رؤية الدولارات في يده.

وافقت.

أعطيت أبا رورو الإشارة، وابتعد سريعاً.

انتظرت. دخّنت. مرّت ١٥ دقيقة، وعادت ريما. كانت منفعلة ومرتبكة، وأبلغتني أن شخصاً ما قد سلب ابن الأرمني. عاد الفتى والدم ينزف من أنفه. وسحبت رزمة الليرات من محفظتها وردّتها لي، معتذرة.

طمأنتها إلى أنه لا بأس، واعتذرت لوضعها في مثل ذلك الموقف. رافقتها إلى المتجر. دفعتِ الباب، ابتسمت لي، وشكرتني على الغداء.

عندما بلغت هذا الحد من روايتي، نظرت إلى جنفييف. ورأيت تعبيراً فارغاً كلّياً على وجهها.

قلت: هل انتهى وقتنا، يا دكتورة؟

فكّرت قليلاً قبل أن تجيبني. ثم قالت: لا، لا يزال لدينا

وقت. ليست لدي مواعيد أخرى حتى الرابعة. لماذا لا تُنهي لي القصة؟

ـ قد تستغرق وقتاً.

ـ نعم، لا بأس. أريدك أن تنهيها لي.

ـ يمكنني أن أرى أنك تفكّرين، يا دكتورة. ينتابني الفضول لمعرفة ما الذي تهجسين فيه. أنت تفكّرين على الأرجح كيف أمكنني استغلال فتاة بريئة، أصحيح يا دكتورة؟

ـ تابع القصة الآن.

ـ لا، أريد أن أعرف ما الذي تفكرين فيه.

ـ إنه ليس مهمّاً.

ـ بل هو كذلك. يبدو كأنك تحكمين عليّ.

ـ ما أعتقده ليس مهمّاً.

ـ لِمَ نُجري إذاً هذه المحادثة، يا دكتورة؟

ـ سأطلعك على ما أفكر فيه عندما تخبرني كامل القصة.

قلت بعناد: لست متأكداً من أنني أريد ذلك.

- حسناً يمكنك المغادرة إذاً.

- لا، بل سأبقى.. سأخبرك القصة كاملة. وإذا لم يكن لديك ما تقولينه في شأنها، فلن أعود أبداً إلى هنا.

ـ أَنهِ القصة، وسنرى.

ـ حسناً، سأُظهر لك من أنا حقيقة. وهذا ليس جميلاً، يا دكتورة. ليس جميلاً.

ـ ومن تعتقد أنك؟

ـ قولي لي أنت، يا دكتورة. لكن إليك أولاً بقية القصة، بما أنك تصرّين على ذلك.

ـ جنفييف. لا يزال يمكنك أن تناديني باسمي.

ـ مرّ أسبوعان، يا دكتورة. ثم عندما جئت في أحد الأيام إلى منزل والديّ، سمعت صراخ طفلة شقيقتي. رأتني أختي، ومضَتْ سريعاً إلى غرفة النوم وأقفلت الباب. إلا أنني رأيت ثيابها على الأريكة. دفعت بباب غرفة النوم. حاولت منعي من الدخول، وهي تقول لي إنها ليست محتشمة، تطلب إليّ عدم الدخول. إلا أنني دفعت الباب وفتحته، ورأيت من ثم الكدمات على وجهها. سحبت مسدسي من تحت الفراش. صرختْ ووقفت بالباب تسدّ علي الطريق. ملأت الدنيا صراخاً، وتبعتني بقميص نومها نزولاً على الدرج، حافية، كل الطريق حتى الشارع، وهي من ورائي تتوسَّل إلي، تولول، وتطلب إلى الناس إيقافي. لكنني تركتها ورائي وسرت مسيرة الجلاد صاحب القصد، مسيرة المنتقم. سرت، يا دكتورة، مثل أمير يمضي إلى المعركة.

المكان الأول الذي قصدته هو وكر القمار. لكن طوني لم يكن هناك. سرت إلى منزله. قرعت الباب، لكن لم يجبني أحد. وتمشّيت على مدى ساعات طلوعاً ونزولاً أمام مدخل مبناه.

صعدت أخيراً إلى السطح مستطلعاً شاربيه المتهدلين وسيارته الجيب. ثم عدت إلى وكر القمار. وهناك سرت من جديد جيئة وذهاباً. دخّنت، وتمسّكت بمسدسي في الممشى الفارغ بين الأدراج المتسخة. ثم غادرت وطرقت باب أبي رورو. قلت له: أريدك أن تعثر عليه.

قال أبو رورو: اهدأ.. اهدأ. ليس بهذه الطريقة يتم الأمر. سأجد لك مكانه. لكن لا تفعل أي شيء اليوم. عدني. سنقضي عليه ونحصل على شيء في المقابل. لنعد إلى خطتنا.

قفلت عائداً إلى منزل أهلي. وعندما رأتني شقيقتي هاجمتني بقبضتيها وأظافرها، وصرخت، وبكت، ونادتني بالمجنون، والقاتل. أخذت الطفلة وعادت إلى منزلها.

أطلق أبو رورو صفرة في الصباح التالي، من تحت شرفتي، فنزلت لملاقاته. أبلغني أن الرجل في وكر القمار.

أمسكني عندما حاولت أن أهرع لجلب مسدسي، وقال: «توقّفْ وأصغِ إلي. إذا قتلته أمام الجميع، فلن يغفر لك رجاله أبداً. سيطاردونك مثل الكلب». أمسكَ بكتفي وهزّني متابعاً: «فكّر. اهدأ. كن فطناً كما علّمتك دائماً. يمكننا الحصول على بعض المال. تفعل ما تريد فعله وتذهب بعيداً».

ـ الذهاب إلى أين؟

ـ العالم كبير. ليس بمقدورك أن تغادر بلا مال. سأحصل لك على تذكرة سفر وتأشيرة دخول مزوّرة، وبعدها تغادر. كن فطناً فحسب. هل تعمل شقيقتك اليوم؟

ـ إنها تعمل.

ـ حسناً. سأذهب إلى الوكر وأقول لطوني إن فتاتك التي في المتجر أبلغتني أنها شاهدت شقيقتك مع العجوز. اذهب سريعاً وأحضر سيارة. أين الطفلة؟

تركت منى هذا سالصباح مع والدتي. لن تذهب شقيقتي إلى أي مكان معنا من دون طفلتها.

ـ هل يمكنك إحضارها؟

ـ نعم، سأقول لوالدتي أنني آخذها في نزهة.

ـ افعل ذلك. سأنتظرك حتى تنزل، ثم أغادر. خذ سيارة تاكسي من هنا إلى المتجر لإحضار شقيقتك. وسوف أعود إلى وكر القمار للحديث مع طوني.

صعدت الدرج. أصرّت والدتي على إلباس منى أوّلاً. لم أحتجّ لأنني لم أرد أن أبدو مستعجلاً كثيراً. لكنني تمكّنت من أخذ الطفلة. ثم أوقفت تاكسي وانطلقت، وطلبت إلى السائق الانتظار. دخلت المتجر. كان جوزف خوري هناك، لكن عندما سألت ريما عن مكان شقيقتي، أبلغتني أنها اضطرت أن تعود إلى المنزل. لقد استدعاها زوجها. سلّمت الطفلة لريما وركضت عبر الشوارع. صعدت الدرج إلى منزل شقيقتي. كان باب الشقة مفتوحاً. وأول ما رأيته عندما دخلت، هو المرآة المكسورة، ثم عينا البهيمة الحمراوان، ثم سمعته يتنفّس بمشقّة، يداه على طاولة السفرة، وعيناه تنظران إلى الأرض. تعرفت إلى الحذاء، ثم إلى راحة اليد المفتوحة، ثم إلى الفخذين المكشوفين.

قال: لقد فارقت الحياة.

سحبت مسدسي وبسطت يدي.

قال، وهو يتنفس بهدوء: افعل ذلك.

لم أتمكَّن من شد الزناد، لم أستطع.

توقّفتُ عن الكلام. لم تقل جنفييف شيئاً في البداية. ثم قالت: هل تأسف على ذلك؟

ـ عدم شد الزناد؟

- نعم.

ـ ليس بعد الآن.

ـ هل تأسف على أي شيء؟

ـ على طمعي. الطمع يا دكتورة. إنه طمعي الذي آسف له. البشريون كائنات طماعة.

قالت بلطف:

أوليست جميع الكائنات طمّاعة؟

ـ لا، يا دكتورة. الكائنات الأخرى تأخذ ما تحتاج إليه. ذلك ليس طمعاً.

وقفتُ. لم أبك، ولم أتمكن من البكاء. سرت خارجاً من مكتب جنفييف دون أن أنظر إليها.

* * *

فكّرت لاحقاً كم غريب أن تكون بضع سنوات قد مرّت على وفاة شقيقتي، وكم غريب أن أستلقي في أرض بعيدة، نصف مُغطّى، ونصف عار، على ملاءات أليفة بين جدران معتمة. امتدت يد ولمست كتفي وسألتني شوهره إذا سبق لي أن قتلت أحداً.

قلت: لا.

ـ أسبق لك أن أردت الإقدام على ذلك؟

ـ نعم، لكنني تردّدت عندما واتتني الفرصة.

ـ أخبرني عن الأمر. لكن انتظر، دعني أطفئ النور أولاً.

ـ بدت خزانة الثياب كالبعبع. تحدّثت إلي خزانة الصحون، وأومأت علاّقة المعطف بذراعيها القصيرتين عندما قلت إنني لم أقتل أحداً من قبل. لكنّني سبَّبت موت أختي.

رفعت شوهره رأسها، ورأيت عينيها تطرفان لي برغم الظلال المعتمة في الغرفة:

ـ كيف؟

أخبرتها القصة بكاملها. أخبرتها عن أبي رورو، عن طوني، وعن موت شقيقتي.

سألت: والطفلة؟ ما الذي حلّ بالطفلة؟

ـ تنقّلتْ أولاً بين منزل والدتي ومنزل أهل طوني. ثم سمعت أن طوني تزوج من جديد وأخذها بعيداً عنّا.

ـ ونجا بفعلته، بهذه السهولة؟

ـ نعم، كل ما كان عليه القول هو أن شقيقتي أقامت علاقة. كانت حرب، وكان يعرف جميع رجال الميليشيا.

ـ على الناس أن يدفعوا ثمن جرائمهم.

- أحياناً لا يفعلون.. لا يفعلون بكل بساطة.

قالت شوهره: «على الناس أن يدفعوا الثمن، أن يدفعوا الثمن بكل بساطة»، وألقت برأسها على وسادتها، واهتزّ السرير، وتحرّك البعبع وأبحرت خزانة الصحون بعيداً مثل جندول تدفعه علّاقة المعطف، تغنّي عبر القناطر فوق المجارير.

سألتُ شوهره:

لمَ كنت على هذا القدر من الاستياء الأسبوع الماضي؟ ومن هو الرجل الذي أثار استياءك؟

ـ شخص عليه أيضاً أن يدفع ثمن جرائمه.

ـ لمن؟ لماذا؟

ـ للمجتمع، للأفراد، للقدر، للانتقام. ما الأهمية في ذلك؟

ـ والفرد هو أنتِ؟

- أريد بعض الماء.. هل تريد كوباً من الماء؟

ـ لا.

ذهبت شوهره لإحضار الماء، لكنها استغرقت وقتاً طويلاً

حتى أنني خرجتُ من السرير وتبعتها إلى المطبخ. المنزل بارد وأنا نصف عار. كانت تدخن.. نفثت دخان سيجارتها في وجهي. سحَقَتْها قبل أن تنهيها. ثم أمسكت للمرة الأولى بيدي وسارت بي إلى السرير، وقالت: تعال.. الطقس بارد. ما اسم أختك؟

ـ سعاد.

ـ أكانت جميلة؟

ـ نعم، جداً.

ـ أكبر منك؟

ـ نعم.

- بعد وقت طويل على... على ما حدث لي، لم أعتقد أنني سأتمكن من لمس رجل آخر. اتخذتُ في إيران امرأة كعشيقة، امرأة أكبر سنّاً. بدا لي الرجال جميعهم أشبه بالوحوش بعد سَجني وتعذيبي. هل صُدمتَ؟.

- لا، على الإطلاق. لا شيء يتعلّق بالآدميين يصدمني. ثم إنني نصف بشريّ.

«نصف بشريّ؟». قالتْها وضحكَتْ. أردفَتْ: «ما نصفك الآخر؟»، وانفجرت في ضحكة أعلى. تساءلت: سمكة؟ هل أنت سمكة؟

ـ لا. صرصار.

- صرصار؟

وضحكت من جديد، وقفزت وأشعلت الضوء. ردّت الغطاء ومرّرت يديها على فخذيّ، وصدري، وتابعت حتى رأسي، مداعبة شعري. قالت:

لا أرى فيك ما هو غير عادي.. تبدو لي بشريّاً تماماً. اصنع معي معروفاً، في المرة المقبلة التي تختار فيها أن تكون شيئاً، كن نمراً أو حصاناً صغيراً. لماذا تختار أن تكون مثل هذا الكائن الحقير؟

- لم أُرد ذلك قط، هكذا حدث. أعتقد أن الأنواع اختارتني.

- أعجوبة. أنت أعجوبة سخيفة. حسناً، صرصار. أحتاج إليك في خدمة.

وانقلبت جدّية وتابعت: أريد منك أن تتصل بي عندما يعود ذلك الرجل مرة أخرى إلى المطعم. هل يمكنك، في الواقع، أن تعرف أين يقيم؟

ـ لا. لن أفعل أي شيء حتى تقولي لي السبب.

توقّفتْ، ثم وقفت وذهبت إلى الحمام. انتظرتُها في السرير. سمعتها تُنزل سروالها الداخلي، تتكوّم مثل قطّة، وترش مثل مدفع ماء. تخيّلت بركة الماء الصغيرة تتحول ببطء إلى الأصفر. لم تكبّ الماء. أقفلت غطاء المقعد لأن من الممكن، في هذه

الساعة، سماع كل شيء على امتداد المنازل الخشبية هذه. الخشب ناقل للأصوات والخطوات. الخشب مضياف ومُراع للحشرات، وغافل عن الماء، ودعامة للفراش.

عادت شوهره إلى السرير، شربت من كوبها، قدّمت إلي بعض الماء، ثم أشعلت سيجارة أخرى، نفثت الدخان في الهواء، وقالت: كان سجّاني في إيران. شاركت في الحركة الطلابية في أيام الثورة الأولى، وتم توقيفي. هذا الرجل الذي رأيته يأكل في المطعم، اغتصبني مرّات عدة. كان سجّاني. وُضعت في غرفة صغيرة. بقيت وحدي لأشهر وأشهر. ولم أكد أبلغ الثامنة عشرة عندما جاؤوا إلى منزلنا وقالوا لوالدتي إنهم يريدونني للاستجواب. أكدوا لها أن الأمر لا يعدو كونه إجراءً عادياً. حتى أنهم قالوا لها إنهم سيعيدونني بعد ساعات. مرّت سنوات ثلاث وأنا لا أزال هناك، في زنزانة بحجم التابوت. مُنعت من الكلام، والبكاء، أو حتى التنفّس. ثم حاولوا استمالتي إلى عالمهم الديني المتعصّب. اشتغل جهاز تلفاز على مدى ٢٤ ساعة في اليوم من وراء ظهورنا في زنزاناتنا الصغيرة. لم نستطع رؤيته، بل سماع صوت يتحدّث عن الله طوال النهار والليل. كظمت الأمر في الأشهر القليلة الأولى، ثم بدأت الكلمات ترن في أذني مثل الضجيج أو الموسيقا. أردت أحياناً أن أضحك على كيفية لفظ بعض الكلمات، وكيف أن الأصوات تغلظ لإعطاء المستمعين فكرة عن أن ثمة إشارة إلى شخص أو شخصية مهمة. ثم شرعت في الهروب إلى داخل رأسي،

وانجرف ذهني واستذكرت وجوه عائلتي: شقيقي الصغير، أمي، أبناء أخوالي وأعمامي. كافحت أحياناً لتذكّر أسمائهم. ثم أخذت أنظر إلى مجالي كالكون، وكل تفصيل على الجدار، وقدميَّ، وذراعيّ. حطَّت ذبابة في إحدى المرات على رأسي، جلستُ وراقبتها تمتص دمي، راقبتها تلعق من عرق دمي وبطنها تنتفخ كالكرة. لم أُوقفها. هذه هي الحياة، فكّرت في نفسي، وإهراق الدم جزء منها، وقبل أن تطير ضربتها، سحقتها، وراقبت الدم، دمي، يتناثر على كفّي.

توقّفت شوهره. ثم سألت: هل تقتل صهرك إذا توفّرت لك الفرصة من جديد؟

بقيت صامتاً. لم أعرف. ماذا لو لم أتمكن من شدّ الزناد مرّة أخرى؟ ماذا لو استدرت وغادرت من جديد؟ ماذا لو غادرت، وأطلقت لحيتي، وبقيت صامتاً لسنوات واختفيت... وركبت طائرة، ورحلت ولم أعد من جديد.

قالت شوهره: هل تفهم لماذا أفكّر في القتل؟

- نعم.

- لماذا تقول نعم؟

- أفهم لأنني ببساطة أنا نفسي أردت أن أقتل أحداً.

- جلادي وصهرك من النوع ذاته.

- أنت وشقيقتي من النوع عينه.

- هل ستساعدني؟

ـ نعم.

- لا فائدة من مجيد، فقد تخلّى عن كل شيء. إنه قانع بالقليل جداً من الحياة. قال إنه يريد فضح الرجل أمام وسائل الإعلام. يا للسذاجة! جلبُه إلى المحكمة. هل تتخيّل؟ إلامَ سيؤدي ذلك؟ كيف يمكننا أن نثبت ما فعله بعد كل تلك السنوات؟ هل رأيت سيارته الكبيرة وجميع هؤلاء الرجال من حوله؟ واضح أنه يملك المال. يملك السلطة. يُحتمل أنه يحظى بنوع من الحصانة الدبلوماسية. لديه اتصالات هنا. رأيت لوحة سيارته. أحتاج إلى مسدس. هل يمكنك أن تؤمِّن لي مسدّساً؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ قريباً.

ـ بكم؟ سأدفع ثمنه.

- لا حاجة إلى ذلك.. سوف أؤمِّن مسدّساً.

ابتسمت شوهره، قبّلت جبيني، ونظرت إليّ طويلاً، ثم استلقينا على ظهرينا، ونظر كلانا إلى أعلى وادعينا النوم تحت السقف الخشبي وفوق الفراش، يحيط بنا الدخان وسحاب تنفسنا.

أيقظتني شوهره حوالى الرابعة صباحاً وقالت: ليتك تركب

سيارة أجرة وتعود إلى منزلك أحتاج إلى الانفراد بنفسي.. سأدفع أجرة إيصالك. أنا آسفة، آسفة جداً. أحتاج إلى العزلة.

همست وبكت وأدارت رأسها بعيداً لأنها لم تتمكن من مواجهة عيني الناعستين، وحاجبي السميكين، وأنفي الأفطس، وشعري غير المسرّح، وشفتيَّ المطبقتين، وانقطاع كوابيسي.

ذهبتُ إلى المرحاض. كانت في الحوض قطعة صغيرة من ورق الحمّام طافت وانتقعت طوال الليل ببول شوهره الأصفر. وقفت فوقها وصوّبت عليها. أحدثتُ ثقوباً في وسطها ودفعتها إلى الغرق، ثم سحبت الماء متأكداً من أن المبنى كله سيسمعه في أحلامه مثل مطر الرؤيا.

ارتديتُ ثيابي، واستمرت شوهره في الاعتذار. أعطتني قبعتي الصوفية، وساعدتني على ارتداء سترتي، ورافقتني إلى الباب، وهي تلمس ظهري. سرت إلى المنزل. أردت أن أسير. رفضت ركوب التاكسي. أردت أن أسير وأسمع أصوات الجرش من جديد تحت قدمي. فالليل هو الوقت الوحيد الذي يمكن للمرء فيه أن يفرض صوته على العالم. يعود الأمر إلى البشري في إحداث الضجيج وتعبئة الفراغ في غياب عواء الذئاب، وضحك الضباع، وغناء طيور الليل، والقمر المكتمل.

إلا أن الثلج كان ناعماً. كتم صوت خطواتي. ساد هدوء، هدوء شديد بحيث شعرت بأنني لا أمشي، بل على العكس أزحف بصمت. غطّى الثلج كل شيء وسرت على القطن، على

سجادات صامتة، على رمل الشاطئ. النعومة مؤقتة وخادعة. تستقبلك بلطف وتطردك بلطف. لم أر أحداً، لا أحد. ما من كائن على الإطلاق، ولا وجود حتى لأرنب، ولا أثر حتى لأسد الجبل، أو بقرة، أو غزال. لا شيء في هذه الأرض الشمالية. فكّرت: سأخبر كل سائح ألتقيه، وكل شقيقة تلقّت بطاقة بريدية، أن لا شيء موجود هنا؛ لا ملكة، ولا أختام، ولا دبب راقصة، أو أيائل، أو أكواخ، أو أشجار عالية، أو نيران في العراء. وليس وصف هذه كلها إلا مؤامرة، وهماً، مكيدة. لا يوجد إلا ما يمكنه أن يتجلّد. والطريقة الوحيدة للهروب منه هي في نبش حفر كبيرة، والحَفر والإبحار من تحتها. هناك، يا صديقي، يمكنك أن تلقى أنهراً من البخار، جنات استوائية مع زيزان صيّاحة، وتماسيح، وأنهراً موحلة، وفطراً أخضر متقوّساً مثل ورق الجدران فوق الأشجار، وجرذاناً متخصصة في الغطس، وقطعاناً من الصراصير تتلقى إشارات متآمرة للسيطرة على العالم. وعلى كل ما هو موجود، وكل ما سيوجد دائماً، أن يجتازا هذا المعبر تحت الجليد: الجثث الميتة عندما تتحوَّل تراباً، الأطعمة الكبيرة السعيدة، النبيذ، الدموع، النباتات الميتة، العواصف التي تهدأ، حبر الكلمات المكتوبة، كل ما يقع من فوق، كل ما يطلع، كل ما هو مقتول، مضروب، مُساء استخدامه، مساءة معاملته، كل ما له أرجل، كل ما يزحف، كل ما ينتصب، كل ما يغربش، يطير، يجلس، يرتدي نظّارة، يضحك، يرقص، ويدخّن. . . كل ذلك سيختفي تحت الأرض مثل غيمة متكسّرة.

تجمّدت أصابعي، ومفاتيح بيتي باردة ولمسها مؤلم. قفل باب مدخل بنايتي بارد أيضاً، والمفاتيح لا تدور في الباب. عدت إلى الشارع وربطت عقدة في سلسلة المفاتيح. ومثل العنكبوت، أو صياد مع حبلة، سحبت خيطاً رفيعاً من كنزتي ودلّيت المفتاح في المجرور حيث درجة الحرارة معقولة. تركت المعدن يحمى، ثم استعدته ووضعته في فمي، واهتزّ كالسمكة. هرعت عائداً إلى القفل، قبل أن ينزلق المفتاح من بين شفتي، وقبل أن أرفع عنقي وأبتلعه كسمكة قدّ طازجة في حلق الفقمة، فتحت الباب وصعدت الدرج إلى منزلي. هناك خلعت حذائي، استلقيت على السرير، غطّيت نفسي، ونمت بثيابي متمنياً لو أنني حصان صغير أو نمر.

* * *

في اليوم التالي، جاءت زوجة الناطور، السيدة الروسية من الطابق السفلي، إلى بابي وقرعت. قالت لي: إنها نائمة.. السيدة العجوز نائمة. يمكننا أخذ الصندوق الآن.

هرعت إلى زاوية غرفة نومي، بحثاً عن جوربي؛ وجدتهما. إنهما رطبان عند الأصابع، لكن ليسا مبتلّين. ارتديهما، ثم انتعلت الحذاء الذي وجدته تحت السرير. أوثقت الرباط وأحسست بالضغط على قوسي قدمي. عقدت ربطتين لطيفتين ممتازتين على الفردتين. وفكّرت في أنني إذا لم أستطع وضع ربطة عنق على شكل فراشة للقاءٍ فيكتوري كهذا، فإن من شأن ربطة على شكل فراشة على فردتَي الحذاء أن تعوّض عن ذلك.

إنها الهندمة التي تستوجبها المناسبة. «فعندما تكون في روما تصرَّف كالرومان»... إلخ. ولم يبق الآن إلا أن أرتدي سترة خفيفة، وأصبح جاهزاً لعملية السلب المناهضة للامبريالية. الحماسة حاضرة في المماشي، حماسة ظهرت من خلال اندفاعة أقدامنا وابتسامات الاغتباط على وجهينا.

دخلنا شقة السيدة. تحوّل الكثير من صورها إلى الأصفر، وغطت الجدران الصور البنية القاتمة للكولونيلات ولموجات من كثبان الصحراء.

قالت زوجة الناطور، وهي تشير بإصبعها: آه! هو هو، الصندوق الشهير. نعم هنا، هنا!

تقدّم كلب صغير صوبي وأخذ يشتمّ من حولي، ثم شرع يهمر عليّ.

هسهسَتْ لي زوجة الناطور: «أَعطه يدك.. أعطه يدك يشمّها».

لكن قبل أن تتسنّى لي الفرصة، شرع الكلب في النباح، وهو يطلق علي أسماء مثل «آفة»، و«دخيل،» و«لص».

قالت زوجة الناطور: أسرع قبل أن تستيقظ السيدة.

أخذ الكلب ينبح ويحوم حولنا ويقطع الطريق.

حملنا الصندوق وشرعنا في التحرّك صوب الباب، إلاِ أن السيدة صرخت في تلك اللحظة من سريرها: ناتاشا، أهذه أنت؟

ـ نعم، نعم، أنا هنا لآخذ إلفيس في نزهة. استمري في النوم.

- هل عاد زوجي؟

- إنه يطعم الأحصنة. عودي إلى النوم.

لكن الكلب استمر في النباح.

قالت ناتاشا:

ضع الصندوق أرضاً، ضعه أرضاً.

وضعنا الصندوق على الأرض. فتحته ناتاشا، أمسكت بالكلب ورمته في داخله وأوصدت الغطاء. أصبح النباح مكتوماً الآن. لكن لا بد من أن الكلب قد ثارت ثائرته وهو يضرب رأسه على الخشب من الداخل.

نزلنا الدرج إلى الطابق السفلي. وبوصولنا إلى شقة الناطور فتحت ناتاشا الصندوق. أمسكت بالكلب، الذي أخذ يئن الآن، وأفلتته في الشقة.

أصيب الكلب بعمى جزئي من النور المفاجئ. شمشم السجادة وقوائم المنضدة. قلت وأنا أرمق الكائن بنظرة حكيمة: ما من شيء كالظلمة لتهدئة الحيوان.

قالت ناتاشا: حسناً.. ماذا تريد أن تأخذ؟ يمكنك أخذ شيء واحد فقط.

توجد كتب وملابس، بما في ذلك سترة عسكرية، ورسائل،

وجزمة جلدية سميكة. جرّبت الجزمة، كانت واسعة بعض الشيء، إلا أنني فكّرت في إصلاح الأمر بواسطة جوربَيْن. نكشت الصندوق من جديد ووجدت زوجاً من الجوارب الملائمة.

كرّرت ناتاشا: شيء واحد فقط.

- شيئان.. أو احتسب الحذاء والجوربين شيئاً واحداً.

- حسناً، خذها واذهب قبل أن يعود زوجي إلى المنزل.

أخذت مسلوباتي وزحفت صعوداً. وعلى الفسحة بين طابقين، جلست وخلعت حذائي وجوربي، وحرّكت أصابع قدمي. تأكّدت من عدم ملامسة رجلي الحافيتين الباطون، ولبست بسرعة الجوربين الصوفيين واحتذيت الجزمة. ثم ركضت نازلاً وخرجت من المبنى، وسرت من فوق الأرض وقشرتها البيضاء المصقعة، وأنا أشعر بالدفء والاستقرار.


٦

توجَّهت مشياً إلى مكتب جنفييف. ثبّتني تمسّك نعلي جزمتي بقوّة أكثر من ذي قبل بالأرض المخفية تحت سطح الشارع الأبيض.

جلسنا أنا وجنفييف كالعادة متواجهَين. حلَّت ثوان قليلة من الصمت بيننا. وضعتُ يديّ على ذراعي الكرسي. كتفتُ رجلاً على رجل، وحرّكت قدميّ في جزمتي. طويتهما إلى الأمام، فالوراء، وفتلتهما بعض الشيء وأنا أفكّر في زوج السيدة العجوز وهو يسير لمواجهة أعدائه في ما وراء الخنادق وساحات القتال الموحلة. أصبحتْ عيادة الصحة هذه تبدو أكثر ألفة الآن، وقد ربطتُ قدميّ في الجزمة، والدم، والوحل. الباب مفتوح على الممشى. جلست جنفييف قبالتي تنظر في عيني. تبدأ دائماً بتقويم: تبدو تعباً، سعيداً، حزيناً، أو جيّداً. علمت أن ليس لكلماتها علاقة ولا ارتباط بكيف أبدو. ليست إلا حجّة دائمة للشروع في المحادثة. أهزّ رأسي في العادة وأوافق دائماً، لكنني أعرف أيضاً أنني أستطيع أن أبدو، في الوقت ذاته، ككل ما سبق، كما لو أنني خليط من انفعال غير محدّد، ليس له تعبير علمي، يحتاج إلى حيّز جديد يوجد فيه، وإلى نوع من المظهر لم تصفه بعد أي دراسة طبّية.

سألت جنفييف: هل تكذب عليّ؟

ـ لماذا تعتقدين أنني أكذب عليك؟

ـ أخبرتني أنك تحدّثت مرّة مع شقيقتك عبر الهاتف، عندما توفّى الله والدتك، وأنت تقول لي الآن إنها ماتت قبل ذلك بكثير.

ـ لقد ماتت.

ـ كذبتَ إذاً.

ـ يُحتمل أنني أتخيّل أموراً.

ـ تخيّلت أنها على قيد الحياة؟

ـ تعرفين أنني أتخيّل أموراً، حتى أنني أتخيّلك أحياناً.

ـ كُفَّ عن ذلك. في الإمكان تَوقّع ما تحاول فعله. لست فضولية حتى حول ما تتخيّله في شأني.

نهضت لأرحل.

قالت جنفييف: لا ترحل.. اجلس. أصغِ إلي. اجلس. اسمعني. التعامل مع الموت أمر شاق. تشعر بالغضب، بالذنب، وعليك التعامل مع خسارتك. أمستعد أنت للعمل معي؟ حسناً. لنعد إلى وفاة شقيقتك. ربّما اعتقدت أنك بانتحارك تستطيع إصلاح ما فعلته.

- أنت لا تفقهين شيئاً.

ـ حسناً، ساعدني على الفهم. ألهذا السبب أردت شنق نفسك؟

ـ لا.

ـ بل أعتقد أنه كذلك.

ـ إطلاقاً.

ـ ماذا فعلت بعد موت شقيقتك؟ لماذا غادرت بلادك؟ ألا تريد الحديث؟ حسناً، يمكنك الرحيل إذا شئت.

ـ سأفعل.

ـ حسناً، اذهب. هذا هو الباب.

ـ سأفعل.

ـ ما الذي تنتظره؟

نهضت، تناولت سترتي عن ظهر الكرسي، وسرت صوب الباب. وقلت: أنا لن أعود.

ـ حسناً. غادر. اذهب.

غادرت. سلكت مخرج الحرائق. وفي طريقي نزولاً، زررت سترتي الداخلية، ورفعت سحاب سترتي الخارجية. بحثت عن قبعتي الصوفية، لكن لم أتمكن من العثور عليها.

صعدت الدرج من جديد. كانت جنفييف واقفة عند باب مكتبها وقبعتي بيدها.

سرت إليها، نتشت القبعة، واستدرت مبتعداً.

قالت: عرفت، بطريقة ما، أنك ستعود.

- للمرة الأخيرة. . للمرة الأخيرة. والآن يا دكتورة، عودي إلى المنزل واستريحي، نامي على ملاءاتك الحريرية، أديري تلفازك العملاق، افتحي ثلاجتك، وانتعلي خفّيك إذا ما تمكّنت يوماً من إيجادهما.

- توقّف. . ماذا قلت؟

ـ قلت الخفّين. لقد فقدت خفّيك. لا يمكنك العثور على خفّيك القديمين.

ـ هذا خطير، خطير جداً، إذا عنيت ضمناً ما أظن أنك تقصده ضمناً. خطير جداً.

- ما من خطأ في عرض بعض الضيافة.

ـ لم أدعُك قط إلى حياتي الخاصة.

ـ لا ، لكنني برغم ذلك ذهبت.

- هذا العلاج انتهى.

بدت حزينة كثيراً وقد تولّاها الذعر.

قلتُ: تسامحتِ مع اقتحامي منازل الآخرين لكن وقد تعلّق الأمر الآن بمكانك...

استدارت جنفييف وعادت إلى مكتبها، وقالت، قبل أن تقفل الباب: لم يعد في وسعي مساعدتك.

* * *

خرجت إلى الشارع، وسرت مسرعاً، فاقداً الاتجاه ووحيداً. أوقفت رجلاً وطلبت سيجارة، لكنه لم يجبني. واصل سيره، وهو يتجاهلني. لعنته ونعتُّه بالبخيل. مضيت إلى مقهى أرتيستا، وتوجَّهت مباشرة إلى البروفسور. نظرت في عينيه وقلت: أريد استعادة السيجارة التي أعطيتك إياها. ارتاع. لا بد من أنه رأى كيف تشعّ عيناي. وضع يده في جيبه وشرع في البحث. أخرج علبة سجائر وناولني إياها. أخذتها كلها وشرعت في السير مبتعداً. وعندما أخذ أحد الفتية الجالسين إلى الطاولة في الاحتجاج، عدت إليه وسألته هل لديه مشكلة. وإذا كان كذلك، قلت، ففي إمكانه الخروج. سمعت، وأنا في طريقي خارجاً، البروفسور يقول، il est fou, il est fou (إنه مجنون، إنه مجنون).

ليس لدي قدّاحة.. أوقفت الناس وطلبت ناراً، لكن أحداً لم يشأ أي أن يشعل لي سيجارتي. بل إنهم، حتى قبل أن يسمعوا ما لدي لأقوله، سرّعوا خطاهم، وحموا قطعهم النقدية الصغيرة، ثروتهم الخفية. عليك لتحصل على نار في هذه الأيام، أن ترتدي بزة وربطة عنق. قذارة! جميعهم قذارة، هؤلاء الناس السائرون فوق الأرض. دخلت مطعماً، سرت إلى الدقّة، أمسكت بضمّة من المساويك وثلاث علب من أعواد الثقاب، وخرجت. درت حول الزاوية وحاولت عند جانب أحد المباني القديمة، أن أشعل سيجارتي بعد أن أحطتُ عود الكبريت براحتَي يدي. يا لها من ريح قذرة، لا تدعني أتمكّن من إشعال العود. وفي كل مرّة حاولت فيها إشعال عود ثقاب واحد، تقف

الريح إلى جانبي، تنفخ في وجهي، تضحك وتسخر منّي. رميت بالسيجارة على الأرض وشرعت في سحقها، وأنا ألعنها، وأهدّدها، وأذكّرها بأنه لم يعد يوجد هواء نقي، ولا نسيم نقي، بل يوجد فقط غاز قذر مليء بالدخان والضباب والسعال السقيم. سرت مبتعداً عن السيجارة، لكنها طاردتني، شعرت بلهاثها في أسفل عنقي، ثم تذكّرت المطعم الروسي المجاور، ومدخله السفلي. وجدته، ولُذْت تحت سطح الشارع. أشعلت سيجارتي وسرت من جديد صاعداً منتصراً، ساخراً من الريح، مظهراً أوراق تبغي المحترقة لكل المارة، لكل بشري مع كلب وزمام. لم أشعر بالخجل من استعراض انتصاري. نفثت دخاني بمظهر الأرستقراطي. وقفت وسط الرصيف وعلى وجهي ابتسامة ازدرائية، وعنقي ممدود إلى جانب قبعات المواطنين، أنفث في وجوههم غيوماً سميكة داكنة.

* * *

كسرت في المطعم، في الليلة التالية، ثلاثة أطباق. جاء صاحب المطعم وهو يصأى عليّ كالفأر. وقف من فوقي وأنا ألمّ القطع المتكسرة وأجمع الفتات وأجرف اليخنة من الأرض، ثم جلبت الممسحة ودفعت الماء المتسخ صوب الثقب. وعندما انتهيت، طلب إليّ تحمية سيارته، فغادرت المطبخ من دون أن أنبس بكلمة واحدة.

بعد عودتي من تحمية السيارة، فرقعت ابنة المالك لي بأصابعها. حرّكتُ قدمي صوبها.

سألتني سحر:

من هي السيّدة التي جاءت إلى هنا الأسبوع الماضي؟

- تُدعى شوهره.. لماذا؟

ـ أنا أطرح عليك السؤال وأنت تجيب. هذا كل شيء. هل ستعود إلى هنا؟

ـ إذا طلبتُ إليها.

ـ أهي خليلتك؟

- ربما.. هل تحبينها؟

- إنها جميلة جداً..

- صحيح.. أنا لا أتعرّف إلّا إلى الفتيات الجميلات. أترغبين في لقائها؟

ـ ربما. أريد أن أسألها من أين تشتري ثيابها. أحب شعرها.

- وأنا أيضاً أحب شعرها.. لكنني لا أبالي بثيابها. أنا في الواقع أفضّلها بلا ثياب.

انتهرتني سحر، قائلة:

اجلب لي الشاي، سريعاً!

جلبت لها الشاي مع مكعَّبين من السكّر الأسمر.

تمتمتُ قائلاً: يمكنُك لقاء شوهره إذا شئت. وبإمكانكما التسوُّق معاً ذات يوم.

صبّت سحر شايها، وقالت: حسناً.

- لكن لديّ بالمقابل خدمة أطلبها

ـ آه، يريد النويدل المقايضة الآن؟

ـ في الحقيقة، لدى النويدل مجرّد سؤال يطرحه.

ـ حسناً، فليسأل النويدل.

من هو الرجل الذي حضر مع الحارس الشخصي في الليلة التي كانت شوهره فيها هنا؟

ـ آه، السيد شهيد؟ أنت تسأل عن السيد شهيد؟

ـ نعم، الرجل القصير الأصلع، ذلك الذي جلس هناك.

ـ إنه رجل ثري جداً، ويعمل للحكومة.

ـ الحكومة الكندية؟

- لا ، أيها الأحمق، الحكومة الإيرانية.

ـ يبدو مهمّاً جداً .

ـ نعم، هو كذلك. إنه يعطي والدي المال.

ـ هل ذهبتم إلى منزله؟

ـ لا . لكنه جاء مرة إلى منزلنا.

ـ للزيارة؟

ـ من أجل عمل مهم، كما ذكر والدي. لمَ تسأل؟

ـ لأنني أحب أن أعرف كيف يصبح الرجال المهمون أثرياء وذوي سلطة. أتمنى لو أنني ثري.

ـ لن تصبح ثرياً أبداً.

ـ لم تقولين ذلك؟

أجابت سحر بابتسامة متألِّقة: بسبب.. بسبب.... هكذا فقط.. ولوَّحت لي بظاهر يدها، تقول لي أن أعود إلى العمل كما يجدر بالفقير أن يفعل.

عاد صاحب المطعم من أمر كان يفعله في سيّارته المحمّاة. ربّما دسَّ كيساً بلاستيكياً آخر تحت المقعد مثل قروي عجوز ما. فكّرت في أن عادة حشو قطع نقود فضية تحمل رأس الامبراطور تحت الفراش لا تبطل أبداً. بل يتم تحويلها ليس إلّا، وملاءمتها. لا أدري لماذا يستخدم صاحب المطعم مثل هذه الأكياس السميكة، الطويلة، العريضة، ثم يلف المال في داخلها مئات المرات. غالباً ما أرى عينيه تزوغان وهو يجلس إلى المقود ويده تتحسّس أسفل المقعد، وتحشوه بذلك الكيس البشع الذي يحمل أحرفاً عربية. إنه يستخدم الكيس ذاته دائماً. حسناً، فهو، على الأقل، يعيد التدوير. أعرف أن صاحب المطعم الماكر هذا أراد أن يمتحنني في المرة الأولى التي دسّ فيها كيسه تحت مقعد السيارة. قذارة! يا له من شكّاك في الخدم والطباخين على السواء. سأراهن على أنه اكتسب العادة الإقطاعية في التجسّس على المساعدين من والده الذي كان يتبختر في شوارع القرية، يفتل شاربيه الطويلين، ويحمل عصا رفيعة بيده.

امتلأ المطعم. حملت الكثير من الأطباق الفارغة، ومسحت الكثير من الطاولات، ومضيت نزولاً وصعوداً على الدرج.

سحبت كراسي، وعلّقت معاطف، وأضأت شموعاً، وعدت في نهاية الليل إلى منزلي المظلم.

* * *

عاد السيد شهيد مجدداً، في الليلة التالية، إلى المطعم، ومعه حارسه الشخصي. رافقه رجل آخر يرتدي بزة لا عيب فيها وربطة عنق، ويحمل بيده حقيبة. دخلا على الانحناءات والتملُّقات الملوكية لرب عملي، الطاغية الطيّع، المنحطّ، والتاجر الصغير المتحوّل. شعرُ الرجل الذي يرافق شهيد أشقر، وقد أمسك بالحقيبة أمامه مباشرة وكأنها تشير إلى الطريق وتقوده عبر صفوف الطاولات والكراسي. وجلس الحارس الشخصي على مقعده المعتاد عند البار.

فرقع لي صاحب المطعم، رب عملي، تاجر الغذاء الصغير، بأصابعه. وضعت الصناديق التي كنت أحملها وسرت صوبه. أشار، من دون أي كلمة، إلى كرسي الرجل الأشقر. وبرغم جميع الأعضاء الشنيعة، الفاحشة التي يملكها رب عملي، فإنه، كسلحفاة ما قبل التاريخ، لا يستخدم سوى عنقه للدلالة. سحبت الكرسي للرجل الأشقر الضخم، وبدوره سحب رب عملي الكرسي لشهيد. ثم قام، رب عملي، المضطرب، بطردي بعيداً بحركة مروحية بظاهر يده. انحنى فوق شهيد، وهزّ برأسه وكأنه يقول إن عليه أن يفعل وسيفعل، ثم استدار، مبتسماً. إنه في الواقع يبتسم. مقدّم الطعام الخشن الطباع ذلك قادر على شقّ فمه! انحنى صوب الرجل الأشقر وبيده قائمة الطعام، وهو

يشرحها بلكنة سخيفة، وشفتاه متقطّرتان، وركبتاه مطعوجتان، وصدره محدودب، وهامة رأسه اللماعة المفقدة للشهية تعرق تحت حزمة الضوء. ثم هرع إلى المطبخ، وقد تحوّل فجأة إلى نابليون منتصب.

استمع الطباخ، وهو الوحيد الذي بمقدوره معاملة صاحب المطعم كندّ، وهز رأسه، وأدار له ظهره. إلا أن نابليون الصغير دار حول الجزيرة وهمس بمزيد من الطلبات والتعليمات.

أخذت، وأنا أهرع في الجوار بسلال الخبز والمخللات، ونزولاً وصعوداً على درج السفلي، في التفكير بطريقة للاتصال بشوهره لإبلاغها بأن جلادها هنا من جديد يأكل ويسعد. لكن الأمر على درجة كبيرة من التعقيد. فهاتف صاحب المطعم موجود داخل قاعة الطعام، في مواجهة آلة النقد. بل إن عبور الخط من تحت أنظار الرجل الأصلع يتطلب صرصاراً أكثر خبرة مني. وماذا لو تمكنتُ من رفع سماعة الهاتف؟ ما الذي سأقوله؟ لن تتمكن شوهره أبداً، تحت هذه الظروف، من فهم إشاراتي الحشراتية ما فوق الصوتية، أو التقاطها. يمكنني حك أرجلي لساعات، أبعث بإشارات عالية وأحرك شاربي، فهي برغم ذلك لن تفهم أبداً. فضلاً عن أن هذا المكان لا يسمح ببلوغه، ليس قبل أن يأكل الرجل الأصلع، ويتلقى الانحناءات والإطراءات، ويغادر. وقد أصبح صاحب المطعم، بعد ما حدث لشوهره في المرة الماضية، متشدداً في منع دخول أي يكن، حين يكون الرجل الأصلع يتناول الطعام. واستمرّ يردّد أمام الباقين منا: طعامي نظيف، طعامي نظيف.

وصل رضا. وعندما دخل غرفة الطعام غيّر طريقه ليذهب وينحني لشهيد. بالكاد هزّ شهيد برأسه. ثم استدار رضا وانحنى للرجل الأشقر. سأله الرجل عن صندوقه ولحافه، ولوح شهيد بيده له. وضع رضا صندوقه على الطاولة المقابلة وأخرج سنطوره. اعتزّ شهيد مبتسماً بينما كان الرجل الأشقر يطرح الأسئلة. وأنا، في غضون ذلك، دوزنت ممسحتي، وأنا على استعداد للترجُّح فوق المياه.

جاء الطعام، وأكل الرجلان. توجَّه الحارس إلى المطبخ وطلب شريحة من اللحم. نظرت إلى غاسل الصحون وتبادلنا الغمز، فضحك وهرع إلى الخلف، وفتح الخزانة وسلّم الحارس الشخصي زجاجة كاتشاب. ثم ضحكنا جميعنا، الأمر الذي أصاب صاحب المطعم بالذعر. جاء إلى المطبخ، وتوجه نحونا مباشرة، بعينيه الجاحظتين، وحاجبيه المعقودين الكثيفين، وعنقه الذي يدور يمنة ويسرة، وهو يشتمّ بحثاً عن تخريب أو أي إشارة لتمرّد.

كان الرجلان منهمكين بالأكل في غرفة الطعام، بينما انحنى شهيد وتحدّث وشرح وضحك. وسرعان ما سحب الرجل الأشقر حقيبته وفتحها. أخرج بضع أوراق وضعها إلى جانب طبقه. قرأ من الاوراق وشرح، وشهيد، الغافل عن الأرقام والبيانات، يأكل ويهزّ برأسه، ويسترق النظر إليها من وقت إلى آخر. وعندما فرغ طبقه، وطلب الشاي إلى الطاولة، شرع في التحدث من جديد. وها إن الرجل الأشقر يستمع.

دخلت سحر ودارت حول المطبخ، جائعة ولا تعرف ماذا تأكل. فتحت البرّاد وانحنت فوق كتف الطباخ، ثم استقرّ رأيها على قطعة من الخبز الأفغاني. أمسكتها وشرعت في انتزاع قضمات صغيرة بأسنانها، وهي تدندن لحناً خفيفاً من الضجر. جالت في المكان، تُرجِّح كتفيها وهي تأكل.

غامر غاسل الصحون وسألها وهو يضحك: أتريدين الكاتشاب مع ذلك؟

استدارت سحر صوبه وقالت، بحماسة واستباق: لمَ، ألدينا هامبرغر اليوم؟

ضحكنا جميعاً في المطبخ، وتبادلنا النظرات بأخوّة، ومساواة، وبحرية جريئة في أعيننا.

عزف رضا، في غرفة الطعام، لحناً ناعماً، هادئاً. كان الرجل الأشقر ينظر بين الحين والآخر إليه ويبتسم. فكّرت في أنه مهتم بالموسيقا كما يفترض برجل ذوّاقة كثير الأسفار أن يكون، وتساءلت عن التحف التي يفترض وجودها في منزله، وجميع الخرائط والأدوات، والمكتبة الكبيرة التي تحتوي على الكتب والأسطوانات. بدا لي رجلاً لطيفاً مؤدّباً. بل إنه كان شاكراً، ومعتذراً بعض الشيء، للشاي الذي جلبته له.

بعد فترة، نهض الحارس الشخصي وسار باتجاه المعاطف. إنها إشارة الرحيل. هرع صاحب المطعم للمساعدة.

سأل شهيد الرجل الأشقر إن كان في حاجة إلى توصيلة.

قال الرجل: سوف أمشي.

ضحك شهيد وقال: تسير! لماذا تسير؟ البرد شديد. لدينا سيارة كبيرة. يمكننا أن نقلّك إلى أي مكان.

ـ أحب الهواء الطلق ولا أقيم بعيداً. المشي يفيد.

أصر شهيد بقوله: المشي مفيد بالتأكيد. لكن الطقس بارد في الخارج.

- أعرف أنه بارد، لكنني سأسير. لا مانع من البرد، فأنا أحبه.

ضحك شهيد لدى سماعه هذه الكلمات التي لا تُعقل.

قال الرجل الأشقر: سأرسل إليك من جهتي الوثائق، وعلينا أن نلتقي قريباً من جديد. هل تستمتع بإقامتك هنا؟ هل يروق لك المكان؟

قال شهيد: نعم.. إلى حدٍّ بعيد.. وشكره من جديد.

ثم أخبره الرجل الأشقر أنه يود الحديث مع رضا ورؤية الآلة الموسيقية مرّة ثانية.

حاول شهيد أن يشرح قائلاً: نعم، نعم، إنها الآلة الأكثر شهرة وقدماً في إيران. إنها فن جميل، جميل...

وقف رضا وانحنى مودِّعاً شهيد عن بعد.

راقبت الرجل الأشقر يبتسم ويسير نحو العلبة الموسيقية. رحّب رضا به بابتسامة، وشرع الرجل في طرح أسئلته، وتبعت

ذلك محادثة طويلة استغرقت أكثر من طقوسنا المعتادة في المسح والكنس، وتنظيف المراحيض، وتجفيف الصحون، وفرك الفرن.

عندما حلّ موعد الإقفال غادرت المطعم متمنياً للجميع ليلة سعيدة تم تجاهلها كأنها نوتة خافتة. خرجت، عبرت الشارع، وانتظرت. وقفت في موقف الباص. يوجد بعض الكتابات على الزجاج. ركّزت وجهي بين دائرة حمراء وجزء من الكتابة وأبقيت عيني على باب المطعم.

غادر الرجل الأشقر، وتبعه رضا، وتبادلا المزيد من الحديث على الرصيف.

تصافحا ثم افترقا. انتظرت حتى التفّ رضا من حول الزاوية، وشرعت في ملاحقة الرجل. سار بخفّة، وحقيبته تحتك بمعطفه الطويل. وبرز عند ياقة معطفه شال خمري أضفى عليه هيئة عصفور طويل أنيق الملبس. تبعته وأنا أتساءل هل كذب على شهيد في شأن قرب المطعم من منزله. أملت أنه لم يكذب لأن الشوارع عريضة وخالية، والأرصفة تصدر ضجة أشبه بداخل المنازل الخشبية، ولهاثنا يترك أثراً بخارياً يمكن للذئاب الحمراء، والأحصنة المجنونة، والزعماء الذين يدخنون الغليون، تبيّنه من قمم الجبال البعيدة، وقراءته، وفك رموزه. تنفّسنا في مواجهة الريح الباردة على طريقة المداخن، وقطارات الفحم التي تعبر الجبال الهندية. لاحقت الرجل الأشقر، آملاً ألّا يكون ممن يلتفتون وراءهم، ولا يتذكّرون أنهم نسوا قفّازاً، أو مظلة، أو

ورقة على الأرض. وقلت في نفسي: إذا تذكّر، وعاد إلى المطعم والتقينا في الطريق، فسوف أمرّ به مباشرة، ولن أعطيه حتى هزّة رأس أو ابتسامة.

لكنني حدست بأنني سأصبح، يوماً ما، على علاقة حميمة به. سأتمكن في يوم من الأيام من معرفته جيداً، ولن أنسى مكان إقامته.

* * *

أفقت، بعد يومين، قبل الفجر. استطعت، من خلال شق صغير في الستائر، رؤية السماء الزرقاء ـ الرمادية تعكس موجات صغيرة من اللون على الزجاج. تناوبت على فتح عين ثم الأخرى. عين في كل مرّة. خطّ واحد من الضوء في كل مرّة. وبقيت في السرير لمشاهدة تدرّج السماء، والاقتراب البطيء للضوء، وراقبت الجدار يصبح ببطء، وبالتدريج، أكثر إشراقاً. لم أستطع رؤية بعض الأشياء على الأرض في شكل كامل. لكنني أعرف ما هي: حذاء، طبق متسخ، منفضة، وكرسي. وعندما أضاءت الغرفة نهضت، غسلت وجهي، وقررت السير في شارعي قبل ساعة من إلقاء الصحف على أعتاب الأبواب وقيام السناجب بنبش الجذور تحت الأرض بحثاً عن طعامها الصباحي. ارتديت ثيابي وخرجت. إنه ليوم يمكن احتماله. أصبح البرد لطيفاً، والريح في حالة انسحاب، والإسفلت الرطب يمسك بخيوط من ضوء الفلوريسانت، وبانعكاسات من لافتات المحالّ التي تطفو فوق سطحه بأشكال من الحروف التي لا

يمكن قراءتها، وكلمات فقدت معانيها عندما تسطّحت وتفلطحت على الأرض. ثم، من يريد أن يعرف معاني الكلمات في مثل هذه الساعة؟ لقد تحوّل كل شيء إلى هيئات وأشكال تحاصرك وتقودك، في ما بين شوارع المدينة وجدران الأبنية، إلى وجهتك الأخيرة التي لا مفرّ منها.

بلغت منزل الرجل الأشقر. وقفت في الطرف المقابل من الشارع وانتظرت لدقيقة. لم يزعجني البرد. عرفت أن مكافأتي ستكون كبيرة: طعاماً وكوب حليب الصباح. أي رجل مستقرّ لا يملك ذلك السائل اللذيذ؟ لكن لا يمكنني مجرَّد الوقوف طويلاً في الشارع، لا أعمل، ولا أتحرّك. سأثير ريبة الجيران. فعلى كل من في هذا الشارع أن يمتلك مقصداً. إذ سرعان ما ستعمد البزات الرسمية تحت الأضواء الدوّارة لسيارات الشرطة، إلى التحقيق مع غريب ثاقب العينين يقف بلا حراك. وبينما أخذ لعابي يسيل حول عملية سلبي المقبلة، رأيت باب الرجل الأشقر يفتح. غادر كلب كبير والأشقر المنزل حزمة واحدة وعلى استعداد للعَدْو. بلغا الرصيف، وشرعا في الهرولة. الكلب ينسحب وراءه. بدا أن ذلك الكلب يحب اللون الأحمر. لا يوجد أي أنبوب ماء أحمر لا يثير اهتمامه. وقد افتتن أيضاً بالأشكال المنتصبة، المتقنة الثلاثية الأبعاد: إنه خبير حقيقي في الفن.

استدرت وسرت في الاتجاه المعاكس. وما إن بلغت زاوية الشارع، حتى نبتت لي أجنحة وأسرعت عائداً إلى التربة تحت

حديقة الرجل الأشقر، متوخّياً الأنابيب والطريق إلى الدفء. وفي الداخل، تناولت فطوري أولاً، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس. إنه منزل متواضع قياساً على رجل يتمتع بأدب وبمثل هذا المظهر الخارجي المحترم. توجد كتب، طبعاً، الكثير منها حول الحرب والسياسة. وصدّق أو لا تصدّق، لا تلفاز، ولا حتى في غرفة النوم، ولا زوجة أو أولاد. فكّرت في أن هذا أمر جيد. ولـمَ المصروف الإضافي؟ يكفي أن يسرف المرء في الدفع على الملابس الأنيقة والكتب الكبيرة الحجم ذات الغلافات القاسية. اتجهت إلى مكتبه، والخبز وكوب الحليب في يدي. وبالطبع، هناك الحقيبة الجلدية التي كان يرجّحها بسعادة تلك الليلة في البرد عندما تبعته إلى منزله. أنهيت طعامي. عدت إلى المطبخ، وغسلت كوب الحليب. فتحت خزانة المأكولات، نظرت إلى الصلصة الحارة، ووضعت بضع نقاط منها في طاسة الكلب. هاك بعض الطعام المتبّل، ومرحباً بك في العالم الجديد، يا صديقي العزيز. الطعام الشائع بات من الماضي. فالكاري والطعام الغريب العصري. التقطت الحقيبة وسرت خارجاً من المنزل، هادئاً كما لو أن كل شيء روتيني. سرت محنيّ الرأس إلى العمل، إلى المكتب في المبنى الشاهق، في تلك الساعة الصباحية التي تُخْلي فيها القطارات الطريق ليتمكن البيروقراطيون من الوصول على الوقت.

* * *

توجّهت في وقت لاحق من النهار إلى مقهى أرتيستا.

وبحثت عن البروفسور. غاب عن مقعده المعتاد. سألت النادلة عن مكانه، فأشارت إلى الحمام.

صحيح، فمعطفه على الكرسي. جلست ودسستُ يدي في جيوبه. ليس فيها شيء، لا شيء، ولا حتى فتاتة واحدة.

عندما رآني البروفسور على مقعده، أسرع نحوي، ماسحاً يديه على جانبي سرواله. وقال: ماذا تفعل على كرسيي؟

- آه، لم أدرك أنه لك.

- لكنه لأحد. فعليه معطف. إنه محجوز.

وقفتُ وسحبت حقيبة الرجل الأشقر من كيسي. وقلتُ وأنا أريه إياها: «عشرون دولاراً». إنها من الجلد... الجلد الحقيقي. حرّكت السحّاب إلى الأمام وإلى الوراء، وفرقعت الأبازيم إلى الأعلى وإلى الأسفل، لأفتح الأقفال الذهبية الصغيرة، ثم أُقفلها. قلت وأنا أفكّر في أن من الجيّد أنني أفرغت الملفات والأقلام وكل ما حوته الحقيبة: «إنها متينة وخفيفة.. إنها خفيفة». الخفّة هنا، الخفة أداة تسويق بارعة، وجبات خفيفة، نسوة خفيفات، كل شيء يقوّم بحسب خفّته في هذه الأيام.

نسي البروفسور أمر صراعنا الإقليمي. التقط منديلاً ورقيّاً عن الطاولة، ومرّر حول أصابعه وبينها، وهو ينظر إلى الحقيبة.

قلت: «خمسة عشر»، ودفعتها باتّجاه صدره.

أمسك بالحقيبة. قلبها، ولم يستطع إلا أن يختلس النظر إلى داخلها. سألني.

أهي لك؟

- إنها لك مقابل عشرة دولارات.

- لا أشتري بضاعة مسروقة.

- في الحقيقة، يا بروفسور، أي أرض ليست مسروقة؟ وأي مقعد لا تتم المطالبة به؟ وأي مستوعب ليس ناتج السرقة والدمار؟ جميعنا ذئاب في هذه الأرض.

- «Non, je ne peux pas faire ça» (لا، لا يمكنني فعل هذا). عليك أن تعيدها إلى من أخذتها منه...

إلا أن البروفسور أمسك بالحقيبة بشدة أكبر وأكثر وثوقاً، وهو يقول هذا.

قلت: حسناً.. اشتر لي إذاً الغداء وفنجان قهوة.

حملت الطعام ومضيت إلى الزقاق الخلفي. لم أستطع الأكل أمام هذا الغشاش الخبيث. تعهّدت ألا أتشارك معه أبداً في أي وجبة طعام. خبيث. عرفت أنه سرعان ما سيسير في الشوارع أشبه بمحام إلى مكتب. يعتقد أنه بواسطة أشياء وممتلكات مزيَّفة يستطيع أن يؤكّد أفكاره ويكسب الاحترام. قذارة. دجّال. وهو، تماماً مثل حقيبته الجديدة، مستوعب فارغ مصنوع من مواد لا تدوم.

* * *

قلّبت، في المنزل، ملفات الحقيبة. احتوى أحدها على أوراق هي مزيج من الفارسية والإنكليزية، وصور بيانية وجداول، وما بدا أنه لائحة بمنتجات للبيع. استطعت لفظ الكلمات الفارسية في الأوراق، لكنني لم أفهم معناها. وهكذا قرأت بعض الصفحات بصوت مرتفع، مستمعاً إلى صوتي ينطق بالفارسية من دون أن تتوفر لي أي دلالة على المعنى. رتّلت الكلمات كأنها نوع من الكتابة المقدّسة. آه، ها! فكّرت. لا بد من أن الأمر على هذا الشكل بالنسبة إلى المؤمن الذي يردد الكتابات المقدسة بلغات أجنبية دون أن يفهم أي كلمة منها.

نزلت الدرج في وقت لاحق، وسرت إلى موقف التاكسي. سألت عن مجيد، إلا أن أحداً لم يره. كنت على وشك المغادرة، لكن أحد السائقين كلمني وأشار إلى آخر الخط: رأيت مجيد يركن سيارته هناك.

توجَّهت إليه، فتحت باب التاكسي، دخلت، وصفقت الباب مقفلاً. سلَّمته الملف وسألته: «أيمكنك قراءة هذا؟». قلب الأوراق نتراً. ابتسم، وهزّ رأسه بهدوء. قرأ بانتباه وصمت، ثم نظر إليّ وقال: من أين جئت بهذه؟

- من منزل أحدهم.

ـ سرقتها؟

لا.. وجدتها.

ـ أيمكنني الاحتفاظ بها؟ سأقرأها بعناية وأعيدها إليك.

ـ نعم، قم بذلك. أريد أن أعرف فقط ما الذي يبيعونه في هذه الأوراق. أترى؟ انظر إلى هذا الرسم البياني هنا. اسمح لي، أرجوك. أترى؟ هنا، بدءاً من هذه الصفحة.

- أتريد الذهاب إلى مكان ما؟ يمكنني أن أقلّك.

ـ لا، فأنا أقيم في الجوار.

- أشكرك على هذه.. سأنظر في هذه الأوراق.

* * *

عندما أخبرت شوهره عن الملفات، سألتني لماذا لم أُطلعها في شأنها على الفور، ولماذا أعطيتها لمجيد وليس لها.

أخبرتها كيف أن اللوائح بدت مثل منتجات للبيع. وقلت: أعتقد أنني قد أتمكَّن من إشراك سائق التاكسي في صفقة مما يتم بيعه. ربما أنجزنا بعض الأعمال بطريقة ما معاً، وهي، كما تعرفين، أعمال مثل اكتشاف مكان تخزين البضاعة، والحصول عليها باستخدام سيارته... لم أفكّر في أنك ستهتمين بمثل هذه الأمور.

ولتغيير الموضوع أخبرتها عن محادثتي مع سحر، وكيف أن ابنة مالك المطعم تريد لقاءها. قالت شوهره: دبّر الأمر! دبّر الأمر فوراً. وعليك، في المرة المقبلة، أن تقول لي متى يصل الرجل الأصلع. هل يأتي وفق مواعيد محددة؟

ـ لا. وسأقول لك عندما أعرف ما تحويه هذه الملفات. وبالمناسبة، إن اسمه شهيد.

- شهيد؟ قالتها، ثم هزَّت رأسها وتابعت: شهيد، وشهيد هو. عذّبني وأذلّني ولم أعرف اسمه قط. شهيد»، وضحكت، وتوقّفت، وتردّدت، وفكّرت، وضحكت من جديد، وهزّت برأسها.

* * *

بعد بضعة أيام، أخذت شوهره سحر للتسوُّق. تدبّرتُ أمر لقائهما. التقت شوهره سحر بعد المدرسة. وأخذتها بعد التسوُّق إلى منزلها وسوّت شعرها، وصبغت أهداب عينيها، وبودرت خديها، وقامت الاثنتان بتجربة الملابس وبتبديل تسريحات الشعر.

جاءت سحر إلى مطعم والدها وهي تسير وتتحدث كسيدة الغناء. وعندما طلبت إليّ جلب طعامها والشاي، فعلتُ ذلك بحنكة، وتهذيب، وفي شكل مسرحي... بل إنها استخدمت كلمة «خرافي».

استدعتني لاحقاً، ووالدها في المطبخ. أعطتني بضعة دولارات وطلبت إلي أن أجتاز الشارع وأشتري لها السجائر. وعندما أبلغتها أنني لا أستطيع مغادرة المطعم من دون إذن والدها، وقفت وسارت إليه وطلبت أن يأمرني بأن أذهب وأشتري لها العلكة. هزّ الرجل برأسه نحوي فخرجت وجئتها بعلبة. التقينا في الطابق السفلي حيث تنتظرني. استندتْ إلى الجدار مثل بغي شابة رفيعة المستوى، وفتحت جزدانها الجديد الذي تحمله منذ لقائها شوهره، ثم أغلقته، وقالت: «شكراً، يا عزيزي»، وراقصت ردفيها على مهل وهي تصعد الدرج.

* * *

أخبرتني شوهره في تلك الليلة، إن النيروز على الأبواب. وقالت: أنت تعرف، كيف يحتفل الإيرانيون بمجيء الربيع. وأنا أفكّر في إقامة حفلة. نحن في إيران نسهر الليل كله، نأكل، ونحتفل. لذا دعنا، في الأسبوع المقبل، ندعُ أناساً إلى منزلي. خذ، لفّها أنت»، وناولتني السيجارة.

قلت: لستُ جيداً في اللف.. أصابعي ترتجف.

ـ أعطني إياها. سأفعل ذلك بنفسي. ادعُ رضا وفرقته. دعه يعزف بعض الألحان التقليدية.

- نعم، حسناً، سأفعل.

رأيت رضا في اليوم التالي لدى انتهاء نوبتي في المطعم. أبلغته عن حفلة شوهره. كان كالعادة متردّداً ومتفلّتاً. قال إنه ليس على اتفاق مع شوهره أخيراً، ويشعر بأنها تزجره.

ـ ألمحتْ إلى أنها ربما فكرة جيدة دعوة سيلفي وأصدقائها لمشاهدتك تعزف في مكان غير رسمي.

أثارت الفكرة اهتمام رضا.

ذكّرته بأن من الجيّد دوماً البقاء إلى جوار هؤلاء الناس ومواصلة الاتصال بهم. وقلت: من الجيّد كذلك إظهار تقاليدكم أمام هؤلاء الأناس الأثرياء. شوهره وفرهود سيرقصان، وأنت تعزف. سيكون الأمر مثالياً. عليك أن تسلّي وتنتزع يا صديقي. يجب أن تضيف إلى الأمر ثقافة إذا أردت أن تعيش وتتغوط.

وعد رضا أن يتَّصل بسيلفي.

دفعت في اليوم التالي إيجاري من مالي الذي جنيته من المطعم، واشتريت أيضاً بعض البقالة والخبز والجبن. أدركت، وأنا آكل، كم أن صوت البرّاد مرتفع. فكّرت في قطع الكهرباء عنه. هو شبه فارغ على أي حال. لكن الجبن سيفسد. لذا قرّرت أن آكل كل الجبن من دون أي خبز، ثم أفصل الكهرباء عن البراد.

تمددتُ على سريري ونظرت إلى السقف. أمعنت في التفكير وفي وضع الاستراتيجية. أثارت فكرة التآمر مع شوهره اهتمامي. سأساعدها. قررت أنني أحبها. سأعطيها ما أرادت. وقد تملّكتني أخيراً رغبة أكثر من ذي قبل في أن أكون معها.

غفوت، ثم أفقت ونزلت الدرج إلى الشارع. استهواني مجرّد السير إلى مكان ما، أي مكان، لكنني تردّدت. شعرت بأنني متلكئ ومجمّد. فكرت في أنني لست جائعاً، ولست نعساً، كما أنني لست حزيناً ولا فضولياً. أردت فقط أن يمر الوقت قبل أن أرى شوهره من جديد، ويبدأ مخططي في العمل. أحتاج فقط إلى أن أقرر ما أفعله بنفسي. ولحسن الحظ، كان الطقس بارداً، ولم يعد أمامي، بعد وقت ليس بالطويل، من خيار سوى التحرّك. فكّرت في الذهاب إلى مقهى أرتيستا، إلا أنني شعرت بالاشمئزاز من ذلك الجمهور، وبخاصة البروفسور، الذي تحمّل امرأة الرسائل تلك. يا للحقارة، يا لعزمه الخائر على أن يتحمّل إهمالها، ونرجسيتها، ورسائلها الغبية. واضح أنها استغلته من أجل تسلية نفسها.

فكّرت في أن لديَّ خيارَ التدخين، تسلُّقَ سطح ما ومراقبة الجوار من فوق. إلا أنني في المرة الأخيرة التي حاولت فيها هذا، لم يستغرق رجال الشرطة سوى دقيقتين للمجيء وسؤالي عن سبب وجودي على السطح. اشتكت إحدى السيدات من أنني أنظر إلى غرفة نومها، واستدعتهم. كان صيفاً، وكل ما أردته هو التسكع على السطح كما ملايين الناس في كواكب لا تحصى في هذا الكون. فمليارات المزارعين، والحدادين، والنادلات، وربات المنزل، يقفون على الأسطح وينظرون من حولهم ويدخنون. . . ينشرون الغسيل، ويتأملون. وعندما أخبرت الشرطي أنني طالما فعلت ذلك، كل حياتي، أجاب: حسناً، لكن الناس هنا لا ينظر بعضهم إلى بعض من السطح.

قلت: إذاً، سأنظر فقط إلى النجوم.

منعني من التطلع بالنجوم وهددني بالسجن، وقال: «حيث كل ما ستنظر إليه هو الجدران والرجال في الحمام»، وضحك زميله.

قررت أخيراً السير شمالاً ثم جنوباً إلى شارعي، وذهبت في النهاية إلى المقهى. رأيت البروفسور وبعضاً من أصدقائه. وما إن رأوني أقترب، مقطوع النفس وغاضباً، حتى وقفوا وأحاطوا بالبروفسور. بل إن واحداً منهم حاول دفعي.

طلبت إلى الرجل عدم لمسي. إنه أكبر مني، لكنني أدركت أن باستطاعتي التغلب عليه. حاول البروفسور تهدئة الجميع،

لكنني رفضت التراجع. طلبت إلى البروفسور بعض المال الذي يُفترض أنه يدين لي به. جاء النادل وأبلغنا أنه سيتصل بالشرطة. وقال: حلّوا المسألة خارجاً.

خرجنا جميعاً نحو الباب المؤدي إلى الزقاق الخلفي، وأنا في الطليعة. وتماماً قبل أن أبلغ الباب، توقّفت ونظرت خلفي وناديت على النادل قائلاً له إنني سأراه لاحقاً. وفي حين نظر الجميع إلى الوراء لمشاهدة رد فعل النادل، أمسكت بكوب قهوة فارغ عن طاولة مهجورة. وما إن بلغت الزقاق الخلفي حتى استدرت حول نفسي، وقفزت إلى الأمام، وضربت الرجل الكبير به على جبينه. انهار. هرع الجميع لنجدته، ثم توجّه بعض الرجال إلي. وضعت يدي خلف ظهري، مدعياً أنني ممسك بشيء خطير. وقف البروفسور، وهو يرتجف، بيني وبين الآخرين، وصرخ، ملوحاً بيديه في الهواء: «ابقوا بعيدين! معه شيء. ربما سكين». توقفوا جميعهم في أماكنهم. ابتعدت. وعندما بلغت نهاية الزقاق الصغير شرعت في الركض، ثم توقفت. شعرت بلزاجة بعض من سائل القهوة بين أصابعي. رائحته أشبه بالحليب المحمّض، نفّرتني فكرة أنه لمس شفاهاً بشرية ما. دفنت يدي في كتلة من الثلج وشرعت في تنظيفها. مرّ بي كلب وصاحبه. توقّف الكلب ولعق نفسه. وفكّرتُ: يا للكلب القذر.

سرت. سرتُ المساء كلّه. كان في إمكاني الشروع في ثلاثة قتالات. لم أعد أشعر بالبرد. شعرت بحرارة العنف. وقلت في

نفسي: إن كل ما على المرء فعله هو إبدال إحساس بآخر. التغييرات. الحياة كلها متعلِّقة بالتغييرات.

ليلة الحفلة، وقفت في الممشى خارج شقة شوهره وراقبت أساور سيلفي. أمسكتْ أظافرها المطلية بحاجز الدرج، وسمعتُ ضحكتها تتصاعد نحو باب شوهره. انحنيت من فوق مسطحة الدرج وفكّرت كم أنني أمقت هذه المرأة. لا أطيقها لا هي ولا أصدقاءها. خشيت أن يتجشّأ صديقها ابن السياسي طعاماً معلّباً في وجهي. بل خشيت أكثر من ذلك، ألا يظهر ابن الصناعي. وأخيراً بدا رأسه للعيان. شعرت بالراحة. رأيت شعره الأصفر السادل وعدت إلى شوهره في الداخل وقلت لها: إنهم هنا.

قالت: سيتولّى مجيد إيصالك.

دخلت سيلفي وأصدقاؤها، بضجيج وسعادة، وهم بالفعل سكارى ومنتشون. ورضا في وسطهم يضحك، وهو يعانق سنطوره ولحافه. وفي الداخل فيض من الطعام معروض على الطاولة داخل المطبخ حيث سينتهي الجميع يدخنون ويشربون.

دخل مجيد الشقة وسار باتجاهي مباشرة.

قال: «أمهلني دقيقة»، ومضى إلى الحمام.

عثرت على شوهره. وقفت إلى جانبها وقلت: أنا راحل.. شدّت على يدي. أحنيت شفتي صوب أذنها وقلت لها إنني أريدها أن تمسك بيدي إلى الأبد. ابتسمت، وعصرت أصابعي من جديد.

خرج مجيد من الحمام، وتبعته خارج الشقة ونزولاً على الدرج. سار ببطء. حتى أنه فتح باب سيارته ببطء أيضاً. قاد عبر المدينة، جنوباً صوب الجسر. أخذنا مخرج الكازينو ووصلنا إلى المكان الذي يعيش فيه ابن الصناعي. طلبت إلى مجيد التوقُّف مباشرة قبل بلوغنا المدخل، والانتظار في الجانب المقابل للمبنى من الشارع، ثم هرعت صوب المدخل. زحفت قرب الجدران ومن تحت البوابة الزجاجية لمدخل البهو. كان البواب جالساً إلى مكتبه. رفعت نظري إليه ومررت من تحت أنفه مباشرة، وسلكت طريقي صوب الشقة. هرعت مباشرة إلى غرفة النوم. فتشت في أدراج ابن الصناعي. أحد أدراجه مليء بالأدوية. لعنته: السوداوي محب الأسلحة، ابن صانع القذارة. استدرت إلى الخزانة حيث أعرف أنه يحتفظ بمسدسه. كان لا يزال في المنشفة التي استخدمتها للفه في ذلك الوقت الذي مضى. سحبت المخزن ووجدته مليئاً بالرصاص. مرّرتُ يدي فوق رف الخزانة ووجدت مخزناً صغيراً يحتوي على الرصاص. أخذته. ثم نزلت إلى الطابق الأسفل بحثاً عن مال، أو ذهب، أو أي شيء صغير يمكنني حمله. لم أجد شيئاً. انسللتُ على الدرج نزولاً إلى السفلي، وأنا أشعر بالإثارة، وسرت حول المبنى.

صعدت من جديد إلى السيارة مع مجيد. لم يقل لي في البداية أي كلمة، ثم كسر الصمت وسأل: هل حصلت على ما تحتاج إليه؟

قلت: نعم.

هزّ برأسه وقاد عائداً صوب المدينة.

قلت: مجيد، ماذا يوجد في الملف الذي أعطيتك إياه؟

معلومات حول أسلحة. كندا تبيع قطع غيار سلاح إلى إيران. هل لدى الرجل الذي يأتي إلى المطعم حارس شخصي إيراني أو كندي؟

ـ كندي!

ـ نعم، طبعاً. كلفته الحكومة الكندية بالحماية. يريدون التأكد من أنه يبقى بخير. . . والاطمئنان إلى عقد الصفقة.

ـ لكن كندا...

ـ كندا بالتأكيد! فلمونتريال، هذه المدينة السعيدة، الرومانسية، وجه بشع، يا صديقي. فواحد من أكبر المجمّعات الصناعية العسكرية في أميركا الشمالية يقع هنا تماماً، في هذه المدينة. ماذا تعتقد؟ أن الغرب يزدهر على صناعة السيارات، والكومبيوتر، والسكيدو؟

سألته: هل لا تزال تحتفظ بالملف؟

- لا. أعطيته لشوهره. طلبته مني. . اعتقدت أنها ستقول لك. توجد تلك الرسوم التوضيحية بالإنكليزية... هل قرأته قبل أن تعطيه لي؟ آه، نعم، أنت لا تستطيع قراءة الفارسية.

ـ في الحقيقة، يمكنني، لكنني لا أفهم ما أقرأه.

ـ صحيح طبعاً. نحن في الفارسية نستخدم الأحرف العربية.

- وماذا يقول أيضاً؟

- في الحقيقة، ثمة صانع أسلحة محلي ما يعمل على إنتاج أسلحة أكثر خفّة. وإيران تريد الأسلحة الخفيفة.

- خفيفة. . الجميع يريد أن يعتقد أنه خفيف.

- صحيح. . أسلحة خفيفة للجنود الأولاد بحيث يستطيعون استخدامها والتصرف بها على نحو أفضل. الآلات القديمة ثقيلة جداً على هؤلاء الأولاد الذين يُجبَرون على الانضمام إلى الجيوش. يمكن تدبّر الأسلحة الخفيفة بسهولة، لذلك يصنعونها خفيفة.

تمتمت: أنا دائم الشك في الخفيف.

- يجب وقف هذا.

صحيح. . لنعد إلى مكان شوهره. لا بد من أن الموسيقى بدأت.

* * *

دخلتُ غرفة نوم شوهره، ودسست المسدس تحت فراشها، ثم عدت إلى غرفة الجلوس. شرع رضا في دوزنة آلته، وهدأ الجميع، في انتظار أن تبدأ الموسيقا. وأخيراً عزف رضا وفرقته. أعجبهم ذلك، بالتأكيد، لكنهم كانوا بعيدين بعض الشيء عني، وقد تحاشوني طوال المساء. لا يزالون يخافونني، لكنهم لم

يعودوا معجبين بي. ولّت مرحلة الأجنبي المتوحش. وحان الآن وقت القرد مع علبة الموسيقى.

رقصت شوهره، لاحقاً، مع فرهود. سحباني إلى الساحة، ووقفْنا نحن الثلاثة متكاتفين، ورقصنا معاً في دائرة صغيرة.

همست شوهرة: «رقصة أخيرة»، وهي تبكي وتقبِّلنا على الخدين، ثم شرع الجميع في الرقص. تركت الحشد، وعدت إلى غرفة النوم. سحبت المسدس من تحت الفراش، جلبت سترتي، وخرجت. رأيت ابن الصناعي يتَّجه إلي. كان منتشياً وهو يتمايل ويتمتم. اقترب مني بذراعين مفتوحتين، وهو يريد احتضاني بخواتم عائلته وذراعيه. ما إن اقترب مني حتى أمسكته بياقته. تأكدت من أنه لن يلمس أبداً سترتي أو المسدس من تحتها، ودفعته بعيداً بقوة، لاعناً والده ووالدي. نزلت الدرج إلى الشارع وسرت عائداً إلى منزلي.

* * *

عندما وصلت إلى العمل بعد ظهر اليوم التالي، طلب إلي صاحب المطعم تسلُّم مغلف مختوم من محاميه في وسط المدينة. رأيت، في الطريق إلى المترو، رجلاً يرتدي بزة جديدة، وهو رجل وسيم في الأربعينات، وشعره مسرّح بترتيب. وقف وبيده مجلتان، مبتسماً بثقة، ومنحنياً تجاه المسافرين المنتظرين، عارضاً عليهم كلمة: الله.

قاربت الرجل. ابتسم.

قلت: أنا ضائع أحتاج إلى توجيه.

ـ إلى أين تريد أن تذهب؟

- لا ، أنا ضائع في شكل عام.

ابتسم من جديد وقال: بمقدور الرب أن يرشدك إلى المكان الصحيح.

سألت من بين أسناني التي تصرف: وأين ذلك، أيها القذر؟

- مملكة الله هي المكان الصحيح.. وأنت لن تضيع من جديد.

ـ أرى أنك مستعد تمام الاستعداد، وبكامل ملابسك، للقائه.

أصبح وجهه أكبر حجماً وفخراً واستفاضة. انحنى صوبي. قال: صحيح.. الأمر أشبه بلقاء شخصية مهمة. يجب أن تبدو في أفضل أحوالك.

- كالمحامي مثلاً؟

ـ المحامي؟

- أو كمواطن صالح.. أَوَتحتاج إلى الأناقة لتكون مواطناً صالحاً؟.

ـ حسناً...

- حسناً ماذا، أيها الدجّال؟ انظر إلى نفسك، أنتَ تقف بكامل أناقتك لتغوي، وتفتن، وتجلب أولئك المواطنين

المساكين إلى عالمك الوهمي الخيالي، لتجعلهم يركعون على مقاعد قاسية، يرددون تراتيل الخلاص داخل الجدران ذاتها، من خلال الشموس الحارقة عينها لأيام عملهم الشاقة. ثم تأخذ مالهم، وتناسل بناتهم مع خراف من القطيع ذاته، وتعدهم بجنة مليئة بغيوم سفاح القربى. قذارة. أنت دجال، تقف هنا مع مجلاتك الملأى بالصور الواعدة مثل الأفيون. انظر إلى نفسك، أيها البشري، بكامل أناقتك. انظر إلى نفسك، يا ابن الإنسان، ترتدي الحرير. لا يمكنك أن تكون وسيماً من دون حياكة لعاب الديدان من حولك، من دون سرقة الصوف من ظهور الخراف، من دون أن تجعل الفقير يعمل كالبغال في معامل كبيرة ذات صفارات قاسية وبطاقات آلات الثقب. أنا، على الأقل، لا أحتاج إلى أي من زخارفك. انظر إلي! انظر إلى جناحيَّ المستقيمين والقاسيين. انظر إلى لمعان لونهما البني. انظر إلى شاربيّ الطويلين ووجهي الدقيق. انظر إلى جمالي. كله طبيعي. لم أحتج قط إلى أفخر بالثياب والجواهر. أمتلك بريقاً طبيعياً بالكامل، مخمّراً جداً ومعتّقاً كالخمرة المقطّرة.

ومددت من ثم واحدة من أذرعي الكثيرة، وخطفت واحدة من مجلات الرجل. أدرت له ظهري، مدعياً القراءة، وقضمت سريعاً كل كلمة تبدو كالله. أعدت إليه المجلة وقلت: انظر الآن، اقرأ، وقل لي ما حدث لإلهك. ألا يزال آتياً؟ هل لا يزال هنا؟ يا آكلة لحوم البشر! يا آكلة لحوم البشر!

سرتُ بعيداً ونزلت الدرج إلى النفق. لاحظت، وأنا أنزل،

العوارض المنخفضة المعلقة فوق بيت الدرج. أحنيتُ شاربيَّ الطويلين، وفكّرت كم أن هؤلاء البشريين مقتصرون على أنفسهم. ولا يشيّدون أبداً إلا لنوعهم وبما يتوافق مع طولهم.

* * *

عملت المساء كلّه، وعدت إلى المنزل ونمت نوماً عميقاً. وسرت في الصباح التالي عبر شارع سانت لورانت. تفاديت القهوة. فأنا لم أحتج إلى المواجهة ذلك الصباح لأن رأسي شعر على نحو ما بالصفاء. اجتاحني إحساس بالنشوة. ربما أخذ الطقس يصبح أكثر دفئاً، وسرعان ما ستمتلئ الشوارع، في غضون أسابيع قليلة ربما، بشبان بلا قمصان، ونسوة أنصاف عاريات، وبالدراجات والأزهار والحدائق. أنا، بالفعل، في حالة مزاجية نادرة. سلكت منعطفات عشوائية. توقفت عند واجهات المحالّ ونظرت إلى البضاعة المعروضة. ورأيت، ببلوغي شارعاً أكثر هدوءاً، امرأة تتَّجه نحوي، وعلى وجهها ابتسامة متردّدة. لم أعرف جنفييف إلا عندما أصبحت قريبة مني. كدت أتجاوزها من دون أن أتوقف. وقفت أمامي واستغرق الأمر بضع ثوان لنقول شيئاً.

قالت: «يوم جميل»، وأتبعت ذلك بسؤالي: «كيف تشعر؟».

- عظيم.. أنا سعيد جداً اليوم. ولا أدري مصدر السعادة هذا.

- ربما كان الطقس.. ألا تزال بلا هاتف؟

قلت موافقاً: لا هاتف.

ـ حاولتُ الاتصال بك. أردت التحدث معك.

- عمَّ؟

ـ وضعت تقريراً عنك.

ـ أفعلتِ؟

هزت رأسها وقالت بهدوء: سيتصل بك قريباً شخص من المستشفى.

- لن يجدوني.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى تحت الأرض.

ـ لا يمكنك أن تحيا كالهارب. من الأفضل لك الذهاب وتلقّي بعض العلاج.

- لا . . أنا ذاهب إلى تحت الأرض

ـ أوصيتُ بأن ترى طبيباً نفسياً وبأن تبقى في حراسة المستشفى لفترة قصيرة.

ـ وما الذي سيفعله الطبيب النفسي لي؟

ـ إنها مقاربة طبية أكثر. قد تُعطى أقراص دواء.

ـ أقراص؟ من أجل ماذا؟

ـ ربما أرادوا مراقبة سلوكك في المستشفى.

ـ لن أعود إلى هناك. لن يعثروا عليّ.

ـ في الحقيقة، قد يفعلون. قد يوفّرون لك بعض الفائدة.

ـ أردت فقط أن أعرفك. . أردتك أن تدعيني إلى منزلك.

- علي أن أذهب. . اعتن بنفسك.

- إنه يوم لطيف.

التفتت جنفييف مرة واحدة إلى الوراء وهي تتابع سيرها.

وأنا أسير، تحرَّكت بعض الغيوم فوق السماء وحجبت الشمس. فجأة استحال كل شيء رمادياً ورطباً، وبدا الجانب الأكثر ظلمة للطبيعة على وجوه الناس. رأيت البعض ينظر إلى السماء ويتمتم في سرّه. ثم، بعد شوارع عدة، هطلت قطرات الماء. استطعت رؤية القطرات تنهمر على الرصيف. كانت في البداية منفصلة وظاهرة لعدم توافر إلا القلة منها، ثم اجتاح الرعد المدينة كلها، وابتلعت الرطوبة المتناسقة كل شيء، وبدّلت لون المدينة ورائحتها. بدا صوت أسطح التنك أشبه بفرقعة ضربات السوط على ظهر مسخ. السيارات أشبه بمياه متدفّقة. هرعت بعض الخيالات البشرية ذات الرؤوس غير المرئية عبر الشوارع المرصوفة بالحجارة. وآوت أطراف الأرصفة جداول صغيرة سرعان ما أصبحت زاخرة وسريعة. تبعتها، وأنا غافل عن المياه المتساقطة من فوق. فأنا مهتمّ بهروب الماء وليس بمصدره. أصبح كل شيء مبللاً: الجدران، وشعري وملابسي. حتى المسدس تحت سترتي تبلّل. التصق سروالي

بساقي. وأحدث جورباي أصواتاً ماعسة. وفجأة، توقَّف المطر. وقفلت عائداً إلى المنزل على وقع قدمي المبلَّلتين.

في المنزل، خلعت ثيابي كلها وكوّمتها على كرسيّ. وجدت قميصاً قديمة استخدمتها منشفة، ومسحت بها كافة أنحاء جسمي. ثم أخذت قميصاً أخرى جفَّفت بها المسدس. أعدت إطباق المخزن وتحققت منه. لم يبد مبللاً. المسدس الجيد لا يُسرّب، والرصاصات مضادة للماء. تغيّر مزاجي فجأة، كالطقس، وشعرت بالحاجة إلى الظلمة من جديد. هرعت إلى النافذة وأسدلت الستائر، ثم جلست على كرسيّ في مواجهة المسدس. أمسكت به. نظرت إليه من زوايا متعدّدة. صوّبته وسرت به في المكان، مخيفاً كل الكائنات التي تسكن مكاني. ذهبت إلى المرآة وصوبته إليها. رأيت الصرصار الكبير يواجهني، بأجنحته وسترته وكل شيء. صوبته إلى صدره وتحدّثت إليه. طلبت إليه أن يرحل. قال لي: «أطلق النار.. لا تشهره إذا افتقرت إلى النية في إطلاق النار». صعدت يده إلى وجهي. تمكّنت من رؤية ابتسامته التهكُّمية. لم يرفّ لي جفن. لن أعطيه هذا الاغتباط. نظرت إليه مباشرة. قلنا معاً: «أَطلقِ النار، أيها الجبان!». أنزلنا يدينا وصَلَيْنا المسدس في الوقت ذاته. ضحك، وكدت أشعر بسبابته تضغط قبلي على الزناد.

رن جرس الباب. ضحك كلانا. صرخ في اتجاه الباب: دقيقة من فضلك!

لففت منشفة حول خصري وفتحت الباب.

وقفت المرأة الباكستانية من الطابق الأسفل أمامي وبيدها طبق من الطعام. ابتسمت لما رأت صدري العاري. طلبتُ إليها الدخول. هزّت برأسها نافية ودفعت إلي بالطبق.

قلت: تفضّلي.. أرجوك.

نظرت وراءها ثم دخلت.

أمسكت بالمنشفة بيد وأخذت الطبق بالأخرى. استدارت، أدركت أنها قررت الرحيل فوراً لما رأت أجنحتي العارية. وضعت الطبق، أمسكت بيدها ووضعتها على صدري.

قالت: لا.. لا.. فثمة مشكلات كثيرة تنشأ.

سحبت يدها بسرعة، وخرجت من الباب. أوصدته خلفها وعدت إلى المرآة. كان المسدس على المجلى. أخذته وسرت إلى سريري، دفعته تحت الوسادة، ونمت وقد أصابني الإعياء.

* * *

هرع صاحب المطعم في تلك الأمسية إلى المطبخ. استدعاني وأرسلني للتأكد من أن الحمام نظيف، ومن وجود زجاجة ماء فارغة فوق المغسلة. وأُبقيت، بينه وبين ابنته المشتعلة، منشغلاً في الدوران في المكان. أخذ الطباخ يحزّ فخذ خروف بسكين مطبخ كبير. غاسل الصحون يحمل الأطباق. النادل يقف عند الباب. يُفتح الباب ويدخل الحارس الشخصي الذي جاء في الليلة السابقة، يتبعه رجل أصلع، قصير القامة. خلع شهيد معطفه وأخذه صاحب المطعم منه سريعاً وفرقع

بأصابعه، فهرعت وعلّقته في الخزانة الخلفية. كان المعطف مبللاً وثقيلاً، وعرفت منه أن السماء لا تزال تمطر في العالم الخارجي.

* * *

في وقت لاحق من تلك الليلة، بعد انتهاء دوامي، مضيت إلى منزل شوهره وأبلغتها أن الرجل جاء إلى المطعم من جديد تلك الليلة. اضطربت وسألتني لماذا لم أتصل بها على الفور.

أخبرتها أن الهاتف يقع وراء البار وهو محمي. ثم قلت: إن الوقت ليس مناسباً بعد. لكن قريباً، ستواجهينه قريباً.

ـ ألم تستطع الخروج والاتصال بي؟

ـ سأفعل ذلك في المرة المقبلة، عندما نصبح جميعنا مستعدين، لكن صاحب المطعم وابنته متطلبان.

شرعتْ تسير ذهاباً وإياباً، ومضت إلى غرفة نومها وأقفلت الباب. سمعت أنها التقطت الهاتف وهي تتحدث الفارسية بصوت مرتفع. قررت المغادرة، لكنها نادتني للعودة قبل أن أضع سترتي، وأعدَّت بعض الشاي في المطبخ. أمسكتْ بيدي وسألتني مجدداً عن الرجل الأصلع وصاحب المطعم. جعلتني أكرّر كل تفصيل من تفاصيل الأمسية: بمَ كلَّفك صاحب المطعم؟ ما نوع السيارة التي وصل بها الرجلِ؟ ماذا طلب؟

أبلغتها أن صاحب المطعم كلّفني التأكد من نظافة الحمام، ومن وجود زجاجة فارغة فوق المغسلة.

قالت شوهرة منتهرة: نعم. . لينظّف نفسه ذلك المتدين الخبيث بعد أن يبوّل. لم ينظف نفسه قط قبل أن يجعلني أفسخ ساقي. أنا محظوظة بأنني لم أحبل. فالنسوة اللواتي يحبلن يُقتلن.

تناولت رشفة من الشاي، ثم قالت: هل بمقدوري رؤية المسدس؟ إلى من يعود؟

ـ إلى ابن الصناعي.

ـ أيٌّ منهم هو؟

ـ ذلك الذي كان يرتدي قميصاً مزخرفاً.

ـ جميعهم سطحيون ومزخرفون. أين التقيت هؤلاء المهرّجين، ورضا كان يقبّل أعجازهم طوال الأمسية.

- هل استخدمتِ مسدَّساً من قبل؟

ـ تعوَّد الحرّاس في السجن التجوال والمسدسات تتدلى من أحزمتهم. لم أعرف كيف هو صوت إطلاق النار إلى أن سمعنا في إحدى الليالي شاحنات تأتي وتذهب؛ وعلى مدى أسبوع سمعنا صوت عيارات نارية تتردّد أصداؤها في الفناء الخلفي. كانوا يجلبون أناساً في كل ليلة ويطلقون عليهم النار عند الجدار. لا بد من أنهم قتلوا الآلاف من الرجال والنساء. كم كانوا هادئين. لم يشتكِ أي من هؤلاء السجناء. لم يعترض أحد أو يقول شيئاً. لا بد من أنهم عرفوا أنهم على وشك الموت. ربما كانوا فزعين جداً، معذّبين جداً، ضعفاء جداً، أو ربما

كانوا سعداء جداً بالموت. أردت أحياناً أن أكون هناك، إلى جانب ذلك الجدار. اعتقدت أنهم المحظوظون. وفي إحدى الليالي، وقبيل إطلاق النار، سمعت رجلاً يصرخ: «في سبيل إيران!»، وشرع بقية السجناء في الصياح، «في سبيل إيران!»... ثم أُطلقت عيارات نارية كثيرة، وعم صمت طويل. أبمقدوري رؤيته؟

ـ ماذا؟

ـ المسدس!

ـ لا أحمله معي.

- أيمكنك أن تعلّمني كيفية استخدامه؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ الأربعاء. سنذهب بعيداً إلى الشمال... حيث الغابات.

ـ حسناً، سأستأجر سيارة. سنكون نحن الاثنين فقط.. يمكننا الذهاب إلى مكان ناء... بعيداً عن هذه المدينة.

* * *

عند الحادية عشرة من صباح الأربعاء، قرعت شوهره بابي.

فتحته. كانت تضع نظّارة شمسية وتحمل حقيبة ظهر على كتفها. دخلت. دسستُ نفسي تحت السرير وزحفت حتى منتصف الفراش، وسحبت المسدس.

اتَّبعنا الطريق السريع الرقم ١٥ شمالاً. اجتزنا في بداية رحلتنا الكثير من السيارات، والمنازل، ومحطات الوقود، والمطاعم العامة ذات اللافتات الكبيرة الأشبه بالطوطمات المزيفة. وكلّما ابتعدنا شمالاً، نقص عدد السيارات التي تصادفنا، وظهر المزيد من التلال، ومن الطرق الملتوية، والأشجار، والريح، والسماء، والأفق.

قالت شوهره: إن أوراق الأشجار تصبح في الخريف برتقالية وذهبية. إنها جميلة جداً. جميلة ليس إلا. كل شيء يستحيل ذهبياً.

توقّفنا في أحد المطاعم. تسلَّمنا قائمة الطعام من النادلة العجوز التي تتحدث بنغمة مرحة، وتبتسم برغم غياب أسنانها. طلبنا البيض، والخبز المحمص، والقهوة، ثم اختفت شوهره في الحمام. دخّنت النادلة عند الدفّة، وشاهد زوج من سائقي الشاحنات التلفاز وهما ينحنيان من فوق أطباق بيضوية. سمعت ضجة تأتي من المطبخ، أصوات طشيش وقرع على القدور. خرج الطباخ، وهو من سكان البلاد الأصليين الهنود، من المطبخ. نزل الدرج، وظهر من جديد وبيديه حمولة. توقّف ونظر إلى عيني، واختفى من جديد قبل أن تسنح لي الفرصة لإحناء رأسي، وشكره على الطعام، وعلى الشجر، وعلى الجبال، وعلى الأنهر.

تبعته إلى مدخل المطبخ. وقفت هناك وسألته إذا كان قد

رأى أي صراصير. وقلت، قبل أن يصاب بالذعر: أنا مهتم بهذه الكائنات وبتاريخها.

قال: تعال، اتبعني.. سأخبرك بكل شيء عنها.

وقفنا خارج الباب الخلفي للمطبخ، ودخّنا بهدوء. قال: اسمع.. بعدما صنع الخالق الجبال والبحر وكل شيء، ترك وراءه طبلاً هائل الحجم مصنوعاً من جلد الجاموس البري الأبيض. استخدم الطبل وهو يخلق العالم، لكنه حذّر جميع الكائنات من العزف على الطبل، وإلا فإن الشمس ستقترب أكثر لتستمع، ولن تعود أبداً إلى النوم، وستذيب كل الثلوج. في ذلك الوقت، لم تكن العصافير تطير، وكانت تأكل البق عن الأرض.

- والصراصير أيضاً؟

ـ نعم، تلك أيضاً. لم تحتج العصافير إلى أجنحة لأن كل شيء كان متوفّراً: السمك في البحر، والبق على الأرض. أُبقيت البقات بأعداد كبيرة، لأن العصافير كانت تأكل منها كل يوم، وعلى فترات طويلة. ثم، في أحد الأيام، جاء الذئب إلى هذه الأرض في سفينة كبيرة. كان فضولياً وجائعاً من رحلته الطويلة. أخذ يبحث عن طعام وكل ما يمكنه سرقته وأخذه معه إلى الجانب الآخر من البحر. عندما رأى الطبل الكبير المصنوع من جلد الجاموس البري، أراد سرقته. إلا أن البق يزحف دوماً حول الطبل، ويحميه. وهكذا عاد الذئب إلى الطيور، وقال لها إن البق حول الطبل ألذ وأشهى طعماً من أي بق آخر. أثار هذا الخبر العصافير، فهرعت إلى المكان وأكلت البق من حول

الطبل عندها، سرق الذئب الطبل، وأخذه إلى الباخرة، وأبحر به بعيداً. قرع في السفينة، عليه، وأيقظ الشمس وجعلها تشرق. عندما رأت العصافير الشمس نبتت لها أجنحة وطارت صوبها وغادرت الأرض. لم يبق بعد ذلك أحد ليأكل البق، وقد غطى الأرض، وازداد عدده أكثر فأكثر، وغطّى الأرض وأكل كل شيء.

شكرتُ الطباخ على روايته، ولما عادت شوهره دفعنا حسابنا وغادرنا. قدنا السيارة لساعات، وكلما ابتعدنا شمالاً ازداد البرد. ولا يزال الثلج يغطي الطبيعة ببقع ترفض أن تذوب لتصبح جداول تنسل بين الصخور والأشجار وتشكِّل أحواضاً وبحيرات وتحلّي البحر. الأشجار عارية. بدت السماء أكبر ولا نهاية لها، وعلت الابتسامة وجه شوهره. امتلأت سعادة، وفرحت لأنها هي التي تقود. تطلّعت عبر الزجاج الأمامي إلى منظر الأشجار التي تمرّ محاذية، والذئاب، والتلال، والغزلان. وأخذت بعد فترة تقلّب موجات الراديو. سألتني عن نوع الموسيقا الذي أحب، ووجدتْ، قبل أن أجيب، أغنية تحبها. أخبرتني أنها تحبها. إنها أغنية فرنسية وقد غنّتها بلكنتها الفرنسية القوية. وفجأة انعطفت يميناً وسلكت مخرجاً. أوقفت السيارة على طريق صغير مهجور وغير معبّد. حلّت حزام الأمان، ومررت باطن يدها على شعري، سحبت رأسي صوبها، وقبلتني. تبادلنا القبل لفترة طويلة. وعندما لمست نهدها، ابتعدت، وضعت حزام الأمان، وتوجَّهن شمالاً من جديد.

سألتها: ألديكِ مكان محدَّد في ذهنكِ؟

- نعم.. إنه مكان صغير أعرفه، مكان بعيد وفيه كوخ. جئت إلى هناك مرّة من قبل. أمضيت أسبوعاً هناك مع عشيقة سابقة. جئنا في الصيف وقررنا أن نعيش مثل امرأتين متوحشتين في الغابات، من دون أي شيء. كان ذلك مسلّياً. فهي قد ترعرعت في الطبيعة وتحبها. اصطدنا السمك وأكلنا التوت البري، وقفزنا في النهر عاريتين. سرنا، وتسلّقنا. عليك أن تجرب التدلّي فوق الجرف وأنت غير معلّق إلا بحبل.

- آه، قد أسقط.. أنا متعلّق بالحبال وبالتدلّي، لكن الصراصير تقوم دوماً بقطعها لي.

بقيتُ صامتاً لفترة. ثم قلت: غالباً ما أفكّر بك. هل تفكرين بي؟.

ابتسمت شوهره. مدّت يدها، داعبت شعري، ولم تجب... ثم ابتسمت وقالت: أنت وصرصارك!

* * *

توجَّهنا إلى الكوخ سيراً. دخلته شوهره ونادتني إليه. قالت: انظر لا يزال كما تركناه. تعوَّدنا النوم على الأرض، وأشعلنا ناراً هناك.

سحبت المسدس، في وقت لاحق، صليته، وصوَّبته إلى شجرة. أطلقت النار، وعلا أزيز دوي الطلقة من الجانب الآخر للجبل. أخلى جذع الشجرة بعض الهواء من البقعة التي أصابتها الرصاصة.

قالت شوهره، وهي تنفخ الدفء في عقد أصابعها: حسناً. . جاء دوري.

سحبتُ المخزن. أظهرت لها كيف تدخل الرصاصات، وكيف تدفع بالمخزن في أسفل المسدس. وضَّحت لها ببطء كيف تمشطه، وتصليه، وترفعه. طلبت إليها ألا تصوِّبه أبداً إلى وجه أحد، وأن تديره دوماً نحو الأرض أو ترفعه باتجاه السماء. وأظهرت لها كيف تصنع خطّاً خيالياً يبدأ عند مؤخرة المسدس ويذهب إلى رأس السبطانة ويمتد إلى الهدف.

أمسكتْ بالمسدس ومدّت ذراعيها.

سألتها: إلى أين أنت تصوِّبين؟

قالت: إلى الحجر، الحجر الكبير عند طرف الماء.

أطلقت النار وترجَّحت يداها بعض الشيء. جاءت الرصاصة بعيدة عن الهدف.

طلبتُ إليها أن تجمّد يدها، وأن تمسك نفسها قبل أن تطلق النار، وأن تركِّز، وألا تتردَّد.

ـ أَطلقي النار حين تقرّرين ذلك. لا تفكّري، ولا تتردَّدي.

الطلقة الثانية جاءت أقرب. بقيت شوهره تطلق النار إلى أن أفرغت المخزن. أصابت الحجر مرة، ثم استدارت، وهي تقفز، وسألتني إن كنت قد رأيت الطلقة.

أخذ الطقس يبرد. اقترحت شوهره أن نُشعل ناراً ونبقى في الكوخ لفترة. لكن الطبيعة ترعبني والأماكن الموحشة تُشعرني بأنني غير حصين. أردت المغادرة والعودة إلى المدينة قبل أن يحل الليل والظباء تعوي، والذئاب تسرح، والدببة ترقص، والأيائل والقنادس تتصارع عند النهر، والأشجار تنحني لتراقبني وأنا أنام. وماذا لو جاءت الطيور في الصباح الباكر، وألقت بمخالبها العملاقة عليَّ وغرزت مناقيدها في صدري ومزّقت لحمي، وألقت بي على ظهري والتهمتني حيّاً، ورجلاي ترقصان في الهواء تحت أعينها الكبيرة الهائلة.

قلت لشوهره: أنا في حاجة إلى العودة.

قالت: من المبكر جدّاً. . فلنبقَ بعد. أترى هذا الهدوء؟ تنشَّقْ رائحة الغابة. انظر، انظر إلى هذه الطيور في السماء.

نظرتُ إلى الأعلى. رأيت نقطتين سوداوين معلقتين في الهواء، تطوفان فوق البحر الأزرق. هرعت إلى السيارات، وتأكدت من أن النوافذ والأبواب موصدة. وقفت شوهره هناك، يدها على جبينها، تنظر إلى السماء وتخارز عينيها. ثم سارت في دوائر وابتسمت. راقبتها من خلال الزجاج، تدور وترقص في ما يشبه عبادة ذلك كله.

* * *

بالعودة إلى المدينة بعد ظهر الجمعة، انتظرت في الشارع المقابل لمقهى أرتيستا. دخّنت وزرعت الأرض جيئة وذهاباً.

وعندما خرج البروفسور تبعته. أدركته وأمسكت بمرفقه. ولما رآني حرّر ذراعه وخطا إلى الوراء. إلا أنني، قبل أن يهرب أو يصرخ طالباً النجدة، قلت: أريد التحدث إليك ليس إلّا. لا أريد بك ضرراً، كل شيء على ما يرام. أريد التحدث فقط.

قال: «أنا مشغول»، وشرع في السير مبتعداً.

تبعته. سحبت إحدى رسائل الحب المسروقة وشرعت في قراءتها.

استدار وعيناه جاحظتان، وصاح: من أين حصلت على ذلك؟

قلت: لنتحدَّث.. أحتاج إلى التحدث إليك.

قال، بتحدّ: «أعد إلي الرسالة»، وبدا على استعداد للعراك.

فاجأني رد فعله. قلت: أنت لن تتعارك معي، يا بروفسور.. لقد كبرت بعض الشيء على ذلك.

أجاب قائلاً: «Un fou, tes malade, mon ami, un homme malade (مجنون، أنت مريض يا صديقي، رجل مريض)»، وشرع في رفع صوته من جديد.

ـ أريد أن أتحدث إليك، لا غير.

قال: «سأستدعي الشرطة إذا تبعتني»، وحمل حقيبته الجلدية بقبضته، وهو على استعداد لضربي بها.

قلت: لا أفهم.. لماذا تتركها تفعل هذا بك. إنها لا تبالي بك. إنها، في هذه الرسائل، تتحدث عن نفسها فقط. لماذا

تكذب علينا؟ أنت لا تعلّم ولا تعمل مستشاراً. أنت تحيا على الإعانة. لماذا تنكر ذلك؟ قل لي، أرجوك، ما الخطأ في كون المرء فقيراً ومحتاجاً؟

نزع البروفسور الرسالة من يدي وأسرع في السير مبتعداً، وصاح كالمجنون: الشرطة، الشرطة، un fou, un fou (مجنون، مجنون).

كانت هذه آخر نظرة أُلقيها على المنفيّ الضائع بمعطفه الطويل والمثير للشفقة، وحقيبته المسروقة التي تترجَّح وتحتكّ بجيب من جيوبه الكبيرة. بدا أشبه بهالك، بمخادع صغير ضائع، بجاسوس مستوحد يسير خارجاً في صقيع العالم.

سرت إلى المنزل وانعطفتُ يساراً عند شارع برانس ـ أرثور. غامرت بعض المطاعم بوضع طاولات وكراسي في الخارج. إنه يوم مشمس، ويمكنك، إذا ارتديت سترة خفيفة، الجلوس خارجاً بأمان، وتناول شراب وتدخين سيجارة والنظر إلى جميع أولئك النسوة المتشوقات إلى إظهار سيقانهن الصيفية، والكشف عن أكتافهن للشمس، والسير بلا خوف من آخر بقع الجليد الزلقة، عبر الخشف المثير للضجة والبرد المُرعش. قررت الجلوس وتناول القهوة والتدخين.

اخترت رواق قهوة سُيّج بحبال تتدلى من عمود إلى آخر. رفعت ياقة سترتي، وأشعلت سيجارة، وانتظرت مجيء النادلة. نفثت الدخان في الهواء واستمعت إلى وقع أحذية النساء تطقطق

على طول الشارع. لفحتني الشمس في وجهي، وتساءلت عما حل بتلك الأيام التي جل ما أردت فيها هو الهروب من الشمس. وها إن الشمس لا تبدو على هذا القدر الكبير من السوء. تذكّرت مقطعاً مختاراً من إحدى رسائل البروفسور: نهضت سيدته باكراً في الصباح وسارت بمنشفتها إلى الشاطئ الرملي، ولاحظت الطيور. تساءلت إذا كانت النسوة كتلك، وهن في ذهول دائم حول الجمال والشهوانية، يمارسن العادة السرّية أبداً. كيف هي تخيلاتهن؟ هل يتخيلن سيداً وسيماً يسير في الجوار محاطاً بالأزهار والابتسامات السابحة، والأصوات العميقة والناعمة؟ هل الألوان أكثر حيوية في أحلامهن، والهواء عند درجة الحرارة المناسبة تماماً، والمنشفة والرمل مثال للنعومة والمتعة؟ نعم، فإن الأغاني التي سيسمعنها ستكون كلها أغاني جميلة تتعلق بالعذاب اللطيف للقلب. ما من شيء مأساوي فعلاً. فكّرت كيف أن تخيُّلات كتلك يجب أن تنتمي، عن حق، إلى الفتيات الفقيرات اللواتي لهن آباء عنيفون وأمهات مجنونات، إلا أنها بدلاً من ذلك ملك للثريات، والمغتبطات بأنفسهن، أولئك اللواتي يتقن إلى الأيام القديمة للأرستقراطية، وإلى خادمات الغرف، وإغماءات اللذة، ورقص الصالونات.

قذارة! فكّرت. يمكنني إطلاق النار عليهن جميعاً. أنا أصوِّب جيداً. لا أخطئ طلقة أبداً. يمكنني دخول حلم عشيقة البروفسور وقتل جميع هؤلاء الصبية الجميلين، وأولئك الرجال الأكبر سناً وحنكة، الذين يلفّون أعناقهم بشالات حريرية. يمكنني

تغيير الخلفية الموسيقية، ووقف طبطبة المحيط اللطيفة، وإطلاق النار على جميع طيور البحر، وسحب المناشف من تحت ثياب السباحة النائمة. يمكنني أيضاً أن أجلب البروفسور معي وأغيّره. أجعله بمظهر أفضل، ويتحدّث بعنجهية، وأعطيه حذاءً أفضل، وأُفقده نظّارته وأحل ربطة عنقه، وأعطيه un regard (نظرة)، بحيث يبدو دوماً ساهماً، رومانسياً، وسلساً، وغنياً بالتأكيد. وربما عندها ستصبح عشيقته تلك أكثر انتباهاً وحباً للرجل الكبير في السن.

علمت، تلك الليلة في المطعم، أن الرجل الذي عذّب معشوقتي على وشك الوصول. بدا صاحب المطعم عصبياً، وسحب الطباخ سكينه الطويل لقطع النوع الجيد من الخروف، وانتظر النادل عند النافذة.

* * *

تذكّرت فجأة كيف أنني، بعد وفاة شقيقتي، تفاديت النوافذ. تذكّرت جلوسي في العتمة لأيام، أشدّ وأقيس طول لحيتي، داعياً القمل وغير ذلك من الكائنات إلى غزو شعري والتغذّي من بشرتي المتسخة. وجدت العتمة في حمامي، ومهداً في حوضه. نُحتُ حتى سمعت الأصداء في المصرف، مثل خفقان الأشرعة، تطلب إلي الرحيل. حلقتُ لحيتي وأبحرت مبتعداً عن تلك الغرفة، وذلك المنزل، وتلك الأرض، معتقداً أن ذلك كلّه من الماضي، وقد دُفن كله، وسيصل إلى نهايته.

ها أنا الآن أسير صوب سحر أسألها إن كانت تحتاج إلى العلكة، وغمزتها غمزة خفيفة. قالت: نعم.. اذهب. سأقول لوالدي إنني أرسلتك.

اجتزت الشارع إلى المتجر واتصلت بشوهره.

قلت: يبدو أن الرجل سيأتي الليلة.

سألتني إن كانت الفتاة هناك. ثم قالت: سأصل في غضون نصف ساعة.

دخل شهيد مع حارسه الشخصي، وهرع صاحب المطعم للقائه. انشغل الجميع. ذهبتُ بعد نصف ساعة إلى الطابق السفلي، فتحت الباب الخلفي على الزقاق، ووضعت قطعة من الخشب عند الحاجب لمنع الباب من الإقفال ورائي. فتحت غطاء مكب النفايات خارج المبنى تماماً، وجثمت على طرف الحاوية الحديدية الخضراء. لم يسبق لي أن تطلعت إلى داخلها من قبل. وازنت قدمي على الحافة. بدت في شكل ما الروائح القديمة والسائل الدبق الذي يلطخ الداخل والخارج مألوفة: روائح قديمة لمناظر طبيعية مظلمة سبق اختبارها، أشبه بنمط مجرّد داخل فناجين القهوة الصغيرة بعدما يتم شرق السائل الأسود إلى هوّة الألسنة والحناجر. تذكّرت فجأة كل قطعة خُضَر كنستها، وحملتها في كيس النفايات ورميتها عن الحافة إلى داخل الحاوية المعدنية الخضراء. وعندما نظرت خلفي إلى الأرض، الأرض الملوثة، شعرت بأنني على علو شاهق أتدلّى

عن شجرة، أو عن طرف جرف، أترجَّح بذراعين ممدودتين. كدت أنسى لماذا أتيت إلى هنا في المقام الأول.

ثم تذكّرت. بحثت عن الكيس الذي تركته لي معشوقتي، وسرعان ما وجدته. كان المسدس في داخل كيس بلاستيكي أبيض، ملفوفاً داخل طيات كثيرة. نظرت إلى طرف الزقاق ورأيت تاكسي مجيد في الجانب الآخر من الشارع، وأضواء إشارته تومض كالخوف.

قفزتُ نزولاً. أخذت المسدس، ومضيت إلى الداخل. وجدت حبلاً ما، قطعته بالسكين، وذهبت مباشرة إلى الحمام. ربطت المسدس خلف كرسي الحمام، لففته حول الأنبوب، وتركت السكين فوق الحوض.

عدت إلى المطبخ. كان صاحب المطعم يبحث عني، وها هو يطلب إلي أن أنظف أرض المطبخ بالماء والصابون. ملأت السطل وجلبت الممسحة، وشرعت أفتلها مثل عبد في حقل جاف. دندنت وغنيت أغنية قديمة نسيت نصفها. علت من الفرن رائحة البصل المطبوخ. شرع الطباخ بسعادة في رش البهارات، ماسحاً أصابعه الملطخة بالدماء على مئزره، مقطّعاً أشياء على المنضدة، ساكباً الماء، مغطيّاً الأرز، ومدندناً مثل راعي غنم في أرض بعيدة. ومن خلال الشق الذي يطل على غرفة الطعام، أبقيتُ عيني على المدخل.

سمعت عندها شوهره تنقر على الزجاج.

نهض الحارس الشخصي وسار باتجاه الباب.

سألتْ شوهره عن سحر.

هرعت سحر إلى الباب لما رأتها، وأمسكت بيدها، وجرّتها إلى الطاولة. عاد الحارس الشخصي وجلس إلى البار في مقعده المعتاد. بدا ضجراً. حرّك رأسه ظرفياً، لينظر في الغالب إلى رب عمله. تحدّث صاحب المطعم إلى ابنته بالفارسية، وردت الفتاة بالإنكليزية. قالت سحر لوالدها عن شوهره: «إنها معلمتي».

أبقت شوهره على نظارتها الشمسية. كانت منشغلة وغير منتبهة إلى حديث الفتاة. استمرت تسترق النظر إلى الطاولة التي يجلس إليها الرجل الأصلع ويأكل طعامه. غفل عن عطر معشوقتي، وفخذيها الطويلين المستورين، وعينيها الكبيرتين الداكنتين. فهو في السجن تحت الأرض قد أخذها من الوراء، على مكتب معدني بارد في الشتاء ويحرق جلدها في الصيف. استلَّ، بعد انتهائه من تناول الطعام، منديلاً أبيض ومسح أصابعه الوسخة، وفمه المبلل. التقط أنفاسه، وقد رضي عن طعم الخروف.

رفعت ممسحتي مثل راية في ساحة المعركة، وسمعت طبول هنود يأتون من الشمال. أحنيت رأسي للنار في الفرن ودرت من حولها. قلت: «نعم لصاحب المطعم»، وسكبت المزيد من الماء من سطلي على الأرض.

خلّصت شوهره نفسها من قبضة سحر، ونزلت الدرج. لم

أسمع سائلها يدفق على الخزف. لم أسمع ضحكتها، وبكاءها، وغناءها، وهزّة ردفيها، بل استمعت إلى صوت قطع حبال، وتمايل أسلحة، وسمعت عدو أحصنة فارسية تصعد الدرج الخشبي. سمعت ضرب القدور والسيوف، والسكاكين الطويلة، وثغاء الخراف المذبوحة. سمعت هدوء الطبيعة قبل أن ترسل ريحها تجتاح الأرض.

صوّبت شوهره مسدسها إلى الحارس الشخصي طالبة إليه البقاء بلا حراك ورفع يديه في الهواء. استغرق الأمر بضع ثوان ليلاحظ صاحب المطعم والرجل الأصلع المسدس. وفي هذه الأثناء سارت شوهره صوب الطاولة، منادية الرجل باسمه: شهيد، صاحت. «شهيد!»، وشرعت تتحدث إليه بالفارسية. نزعت نظارتها، وضعتها على الطاولة، ولمعت عيناها. امتدت يداها أخيراً وصوبت المسدس إلى الرجل.

تمتم صاحب المطعم وأدار رأسه يمنة ويسرة أشبه بمعزاة مربوطة الأرجل. لم يتحرّك شهيد. لم يبدُ خائفاً ولا متفاجئاً. كان ساكناً، هادئاً، يبدو عليه عدم المبالاة. بدا الصلف على وجهه. ردّ على شوهره، ونظر سريعاً إلى حارسه الشخصي.

طلبت شوهره إلى صاحب المطعم الابتعاد عن شهيد، فاندفع مسرعاً نحو باب المطبخ، وهو يطير من فوق السجاد والطاولات. تطلّعت ابنته، متسلية وغير خائفة، لكن والدها أمسك بذراعها وهو خارج وتبعته. أسقط الطباخ سكينه الكبير على الدفّة، واسترق النظر عبر فتحة المطبخ.

طلبت شوهره إلى شهيد الوقوف. تردّد، ثم وقف ببطء. التقط منديله ومسح فمه من جديد، ثم تحدّث بهدوء إليها. مد ذراعه، وخطا خطوة صغيرة نحوها، طالباً إليها تسليمه المسدس.

خطت شوهره بضع خطوات إلى الوراء، نحو باب المطبخ. صاحت به، وضغطت على زناد المسدس. أخطأته. اصطدمت الرصاصة بالجدار وارتدّت إلى البار، محطمة بعض الزجاج. اختبأ الجميع ما عداي والحارس الشخصي. هزّت شوهره برأسها وصرخت بالرجل. «شوهره!»، هتفت باسمها: «شوهره.. شوهره شيرازي!». أمرت الرجل بأن يستدير ويحني الجزء الأعلى من جسمه على الطاولة، وهو ما فعله.

رأيت الحارس الشخصي يتحرَّك باتجاه المطبخ، ويمركز نفسه على مهل قريباً من شوهره. وبينما كان شهيد يتحدث بهدوء مع معشوقتي، تحرّك الحارس الشخصي ببطء إلى موقع خلفها.

راقبت الحارس الشخصي. فكّرت كم أنه يشبه رجلاً ضخماً دفعني مرة بلا سبب. كنت في إحدى الحانات أشرب، وأراد الرجل إلى جواري الحديث عن الرياضة. هدأ عندما قلت له إنني لا أبالي البتة بالرياضة، أو بمطاردة قرص خفي. ثم، لا لسبب ظاهر، دفعني عن كرسي. وقعت على الأرض واندلق شرابي عليّ. نظر الرجل من جديد إلى التلفاز واستمر في مشاهدة مباراته. غادرتُ البار وصرت أسير جيئة وذهاباً عبر الشارع. كرهت البرد وجعلتني رطوبة الكحول على ثيابي أكثر صقوعة.

وعندما خرج الرجل من الحانة وسار في الشارع إلى سيارته، التقطت حجراً كبيراً وطرت إليه بأجنحتي الأربع كلها وضربته على رأسه. الرجل على درجة كبيرة من القوة، بحيث بدا أنه بالكاد أحس به. استدار ونظر إليّ، مبتسماً. اعتقدت أنه على وشك أن يسحقني، أن يدوسني ويفتل حذاءه في الاتجاهين بحيث يتكسّر غضروفي ويعتصر القيح من أحشائي، لكنه انهار فجأة. أخذت الحجر من جديد ورميته على النافذة الأمامية لسيارة الرجل. وفكّرت: هكذا سينطلق ابن الحرام في رحلة طويلة على الطريق السريع، وسيشعر بما يمكن أن تفعله حشرة رمت بها الريح عليه.

استغرقت طلقات معشوقتي وقتاً طويلاً جداً، وأخطأت الهدف، وانهمرت دموعها على الأرض. رأيتها، من خلال الفتحة في جدار المطبخ تركع ويداها ممدودتان، وسمعت صوتها يتغيّر. رأيت الرجل يقف منتصباً ويسوّي ربطة عنقه. ويمد يده من جديد، وتماماً عندما استغرق المسدس وقتاً طويلاً لإطلاق النار، راقبت الحارس الشخصي وهو يمسك سريعاً بيدها ويرجّح معشوقتي عبر الطاولات الخشبية والكراسي الفارغة. رجَّحها بسهولة، وهو يكاد يرفعها بيديها، وتدلّت من ذراعيه مثل حيوان مسلوخ على حبل متفلّت. رجَّحها فبدت صغيرة ومغلوباً على أمرها، وقد غطى شعرها وجهها.

تقدّم شهيد ولمسها. أمسك بيديها عند فخذيها.

راقبت ذلك كله يحدث كما لو أنه يحدث في مكان ما بعيد

جداً. كل شيء بلا صوت. كل شيء غير واقعي، بعيد، وبطيء. سرت عائداً إلى دفة رئيس الخدم، والتقطت سكين الطاهي.

الحارس الشخصي يدير ظهره لي. طعنته بالسكين في كبده. سقط فوق طاولتين وسحق القناديل بجسمه، وحطت الأطباق الطائرة وتكسّرت بصمت على الأرض. سقط المسدس من يده. التقطته وصوبته على شهيد. أطلقت عليه النار مرتين. أصبته إصابة مباشرة في صدره ووقع تحت غطاء طاولته.

أسقطت المسدس وسرت عائداً إلى المطبخ. نظرت إلى الماء الذي تجمع وتوجّه مسرعاً صوب المصرف.

ثم زحفت وسبحت فوق الماء، ورأيت ورقة شجر يحملها مجرى من الصابون والماء كأنها جندول في البندقية. تسلّقت على متنها واهتززت مثل غجري راقص، ووجّهتها بأجنحتي المتألقة إلى تحت الأرض.

شكر

شكر خاص للين هنري، للمجلس الكندي للفنون ومجلس كيبك للفنون والأدب.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

مجموعات

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بيدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المساجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها ـ هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر ـ د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ ـ نافتج سارنا



- لا أحد يفهم ما يدور الآن ـ روحي طعمة
- الأيام والناس ـ برهان الدجاني
- علم الإبداع ـ د. مروان فارس
- آن الأوان ـ طلال حيدر
- سرّ الزمان – طلال حيدر
- انظر إليك ـ مرام المصري
- بائع الفستق/رواية ـ سمير عطا الله
- اللباس والزينة ـ أ . بينول
- أُخذَةُ كِشْ ـ ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية ـ د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال – بقلم شخصيات عدة
- طه حسين، من الشاطئ الآخر ـ عبد الرشيد محمودي
- الله بالخير ـ ابراهيم سلامة



- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية ـ منير عبود
- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون ـ عصام محفوظ
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان ـ عصام محفوظ
- قصة يوطوبيا ـ قصة مشرية ـ حسن فتحي
- جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران ـ د. بطرس حبيب
- الحب والتصوف عند العرب ـ د. عادل كامل الآلوسي
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي ـ هادي محيي الخفاجي
- الطربوش ـ روبير سوليه
- مهما قلت لا تقل ـ د. نبيل سليمان
- امرأة تبحث عن وطن ـ ماريا المعلوف
- خطوات أنثى ـ رُدينة الفيلالي
- أثواب الحزن ـ هدى السراري
- وراء الأفق ـ ابراهيم أبو زيد
- بريد لحام/مشوار العمر - د. فاروق الجمال
- بساطٌ من الزهر الأحمر ـ نيلوفر بازيرا
- إمرأة. . . وظلّان ـ خلود عبد الله الخميس
- اعترافات غايشا ـ آرثر غولدن
- خريف من ذهب ـ جوزيف طوبيّا
- عودة النبض ـ نوال نجم
- مغامرة حب في بلاد ممزقة ـ جين ساسون
- سموّ الأميرة - جين ساسون
- يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى ـ غسّان علم الدين
- طلاق الحاكم ـ منى دايخ
- حقيبة حلم ـ عاطف البلوي
- ألف عام من الصلاة ـ ييون لي
- حبٌّ محرَّم ـ يوكيو ميشيما
- بيل كانتو ـ آن باتشيت
- إيزيس في القدس ـ منى دايخ
- عشّاق أمي ـ هاجر عبدالسلام
- وراء الأفق - إبراهيم أبو زيد
- هل كنا مثل أي عاشقَين - نافتح سارنا
- الخامدون - ربى عنبتاوي
- هو وهي في السعودية - هتّان بن محمد الطاسجي
- نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية - خديجة نمري
- حبيبتي الحقيقة - أحمد طقش
- الوردة الضائعة - رواية سردار أوزكان
- أرملة مهندس - صالح ابن عايض
- بومبي - روبيرت هاريس
- مصائر الغبار ـ راويْ حاج
- الصرصار - راوي حاج
- ويسألونك عن الذاكرة - د. عبد السلام فزازي
- فتاة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- أصل الغواية - قصص قصيرة - منتهى العزة
- دماء الأزهار - أنيتا أميرسفاني
- باب للخروج - طارق محمود فراج
- امرأة للشتاء المقبل - روحي طعمة
- الحريم اللغوي - يسرى مُقدّم
- الخجل والكرامة - داغ سولستاد
- بوح أنثوي - منى دايخ



راوي حاج

راوي حاج كاتبٌ لبناني كندي ومصوّر محترف. ولد في بيروت وترعرع بين بيروت وقبرص. ثم انتقل الى نيويورك عام 1982. وبعد انهاء دراسته في معهد نيويورك للتصوير. انتقل الى مونتريال حيث درس الفنون.

روايته الأولى «مصائر الغبار» حازت جوائز عالمية مرموقة. منها International IMPAC Dublin Literary Award ووضعته ضمن الروائيين العالميين الأكثر شهرة الذين تُنتظر أعمالهم بشغف. وقد رُشح راوي عن روايته هذه لجوائز عديدة ونال منها: Paragraphe Hugh Maclennan. كما اختير كتابه هذا بين أفضل ١٠٠ كتاب بحسب Globe and Mail.

هذا الكتاب

في جو من الانتقام والرغبة والهلوسة والأزمات. يحوك راوي حاج أحداث روايته الجديدة متناولاً حياة المهاجرين إلى كندا. ويقدّم لها نهاية غير متوقّعة البتة.

لبناني يعيش في مونتريال. يحاول الانتحار ويتمّ إنقاذه. يرتاد العيادة النفسية لكنّه يتلاعب بأعصاب الطبيبة. بما يسرده عليها من أحداث غريبة مريبة عن مغامراته وعمليات سطوه. وعن أمه وأخته؛ وبما يلفّقه من أخبار ليستمتع بتحليلات الطبيبة. ساحرٌ بأسلوبه وأفكاره. يتحدّث عما يدور داخل العالم السفلي من تشرُّد واعتداءات وعلاقات مشبوهة وأحلام مختلفة كلّيّاً وصراعات دامية للبقاء. يتخيَّل نفسه صرصاراً يغزو البيوت الأرستقراطية من تحت الأبواب. ويطَّلع على أسرارها وخفاياها. وينقلها كما هي بلا رتوش.

بعد مصائر الغبار. تجيء هذه الرواية التي طالما انتظرها النقّاد والقراء.


ISBN 978-9953-88-308-3

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com


شركة المطبوعات للتوزيع والنشر